وخزة عشق

* الكتاب: وخزة عشق (رواية)
* الكاتب: د. أحمد الباسوسي
* مراجعة لغوية: عبدالله الصياد
* تصميم الغلاف: شيماء أبو طالب
* إخراج داخلي: سليل الفراعنة
* رقم الإيداع: 2022/3680
* الترقيم الدولي: 978-977-6968-18-9

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

صدر عن دار المنتدى
بالتعاون مع دار المثقف

دار المنتدى للنشر والتوزيع
المثقف للنشر والتوزيع

9 789776 968189

(روايـــة)

وخزة عشق

تأليف

د. أحمد الباسوسي

صدر عن دار المنتدى
بالتعاون مع دار المثقف

دار المنتدى للنشر و التوزيع

المثقف للنشر والتوزيع

(1)

مشعل والمفكرة

حينما تتفلت أشعة الشمس الذهبية من حصارها الخانق في عمق السماء وتهبط بسرعة في موعدها لتصافح الأرض الميتة؛ فإنها تكون قد وهبتها قبلة حياة جريئة، وأعادت لكوكب الأرض المحتضر حيويته ونشاطه لقضاء يوم إضافي آخر من الحركة والدأب والتفكير، ويصبح لدينا يوم جديد تدور فيه ماكينات طباعة صحف الصباح، وتدهشنا بأخبار لم يكن من الضروري أن نعلمها أو نخبرها خلال هذا الصباح الجديد، وقد كان مجرد سطر داخل إطار صغير في الصحيفة التي اعتدت أن أمسح بها بصري كل صباح إرضاءً لفضول عيناي الجائعتان لتحسس أخبار الناس والسياسة، تملكتني الدهشة والجزع والحزن في أن واحد، شعرت بغصة شديدة وشعور مفاجئ بالافتقاد، السطر الصغير لم يكن عاديا، كان إعلانا بالوفاة، ومكان العزاء، «ياه... مات مشعل»

هكذا رددتها داخلي الذي اهتز لمفردات ذلك السطر الصغير بالصحيفة اليومية، وهكذا شعرت بالافتقاد لشخص مثير للدهشة والاهتمام، ربما اعتبرته ذات يوم من أقرب مرضاي إلىٰ نفسي رغم طول زمن الاعتراك مع مرض الإدمان والمدمنين، راجعت مفكرتي التي أدون فيها ما استطيع من جدالي مع نفسي والآخرين وواقعي المتأرجح لعلني التقط تدوينة تذكرني بزمن لقائه، طلبت ملفاته الطبية

كلها، كانت أربعة ملفات متخمة بتاريخ طبي طويل وأحداث عريضة حافلة بالعجب والمرارة، ومسار مزدحم بالتعاريج التي تعكس أياما جافة، حافلة بالقليل من الفرح والكثير من الانكسارات والمتاعب التي انتهت بموته بهذا الشكل الدراماتيكي والذي كان متوقعا على كل حال، صادفت هذه التدوينة القديمة، تاريخ كتابتها قبل عامين، والمدهش فيها احتوائها على كل هذه التفاصيل غير المعتادة في تدويناتي السابقة، تقول التدوينة:

«التقيته اليوم في ردهات العيادات الخارجية بينما كنت هناك للتحدث مع زميلي طبيب العيادة في أمر يخص أحد المرضى بالجناح الذي أعمل فيه عنبر التأهيل «ب» بمصحة الأمل لعلاج الإدمان، كان بديناً نوعاً ما، قصير القامة، عيناه جاحظتان، رأسه ضخمة مسحوبة طوليا مثل رأس ضفدع جاحظ العينين ينقنق في مصرف مياه راكدة، محفور في رأسه طريق من الصلع يميز هيئته، يصحبه ممرض قوي البنيان. كانا في طريقها إلى عنبر «أ» الخاص بالتدخلات الطبية وإزالة آثار السموم من الجسد، التقطت اسمه «مشعل» من حوار بين الممرض المصاحب له والممرض المسئول عن العيادات الخارجية قبل انصرافهما، كان يحمل كيسا قديما من البلاستيك يمتلئ بأغراضه الخاصة»

راجعت ما تم تدوينه في الملف الطبي في هذا التاريخ حينما استقبلوه، لم يكن هناك أمر يسترعي الانتباه، كتب الطبيب الذي استقبله الآتي:

«العمر ثلاثة وثلاثون عاما، أعزب، توقف تعليمه عند المرحلة المتوسطة، لا يعمل حاليا، يعيش في بيت العائلة مع إخوانه، يتعاطىٰ مادة «الهيروين» المخدر منذ عشرة أعوام عن طريق الحقن، له تاريخ مع تعاطي الحشيش، وحبوب «الريهابينول» وغيرها من الحبوب المنومة منذ كان عمره اثنتي عشر عاما، تم سجنه خمس سنوات في قضية إتجار وتعاطي مخدرات قبل شهرين من هذا التاريخ، حالة الوعي كامل، مظهره في حالة جيدة، حاول العلاج عدة مرات في مصحات خاصة منذ أقل من عشرة أعوام، لا توجد آثار لإصابات في جسده، وليس لديه تاريخ مع الأمراض العضوية المزمنة، آخر جرعة هيروين حصل عليها كانت قبل ساعتين من الدخول، الكمية «3 جرام» وفي خانة الأدوية يوجد وصف لقائمة من الأدوية لمعالجته من تأثيرات انخفاض إزالة السموم من جسده»

بينما كنت أقلب في مفكرتي خلال تلك الفترة الماضية؛ اكتشفت أني دونت كلمة قصيرة عن لقائي معه في عنبر التأهيل «ب» حيث كنت أعمل حينها، كتبت التالي:

«التقيته اليوم بعد قضائه أسبوعين في عنبر «أ» لم يكن علىٰ ما يرام، شارد الذهن، عيون زائغة، يتصارع مع أفكاره ومشاعره، لم ارتح لمجيئه الآن، كان من الأفضل أن يظل هناك أسبوعين إضافيين، لكنها لوائح ونظام المصحة»

كنت في ذلك الحين أعمل في عنبر التأهيل «ب» قبل انتقالي بعد أسبوعين إلىٰ عنبر التأهيل «ج» ومن المعروف أن عنبر التأهيل «ب» تتبنى سياسته علىٰ التركيز علىٰ العلاج السلوكي في ضوء ضبط سلوكيات المرضىٰ التي تفككت تماما مع مسيرة التعاطي والإدمان، وأيضا ضبط مسألة النوم واستعادة المدمن المتوقف للإيقاع الطبيعي للدورة البيولوجية للنوم الطبيعي بعد التدمير الشامل الذي حاق بها من جراء سلوكيات ومتطلبات التعاطي والإدمان، واضطرار المدمن خلال مسيرة إدمانه أن ينام حيث يكون غالبية الناس الطبيعيون مستيقظون، وأن يستيقظ حيث يكون غالبية الناس الطبيعيون نائمون أيضا، وهذه المصحة التي شيدتها الدولة ورصدت لها مبالغ مالية وإمكانات بشرية وتقنية رهيبة تم زراعتها ورعايتها لمعالجة المدمنين فقط لا غير، وهي عبارة عن بناء جديد علىٰ مساحة كبيرة من الأرض، تتشكل في صورة مثلث متساوي الأضلاع، تحفة هندسية معمارية رائعة تأخذك وأنت تطالع شكل المبنىٰ من الخارج، تحسبه فندقا ذو سبعة نجوم؛ عريق علىٰ الرغم من حداثة البناء، معمار هندسي خلاب يتكون من عدة مبان تفصلها ممرات وحدائق و«باركنج» كبير لاصطفاف السيارات يقع في منتصف المبنىٰ تقريبا، ويبدو مبنىٰ العيادات الخارجية ناتئا في زاوية المثلث المقابلة لبوابة المصحة الرئيسية، يتكون من الكثير من الغرف المخصصة للأطباء؛ للكشف علىٰ المرضىٰ وقاعات لبرامج التأهيل النفسي الخاصة بالعيادات الخارجية، وغرفة مجهزة تجهيزا خاصا للحالات الحرجة والتي تحتاج إلىٰ تدخلات طبية خاصة، بالإضافة إلىٰ كافتيريا أنيقة بمثابة

استراحة للأسر المصاحبة للمرضى، وأيضا بعض المكاتب الإدارية، وبمجرد الابتعاد عن مبنى العيادات الخارجية وعبور الحديقة يصادفك مبنى أنيق جهة اليمين، واجهته مطلية من الخارج باللون الأحمر القاني اللافت للانتباه، نوافذه مطلة على الحديقة تبدو صغيرة الحجم محكمة الإغلاق، صمموه بغرض استقبال المرضى وتنظيف أجسادهم من كافة سموم المخدرات التي علقت بها، وتلك مسألة صعبة، ومرحلة مزعجة للمرضى وللأطباء والعاملين في المجال عموما، خلالها يتلقى المريض علاجا كيميائيا وينصح بالاستلقاء على سريره حتى تنتهى الأعراض الانسحابية المزعجة، وهي أعراض يخشاها المرضى كثيرا ويتحسبون لها كثيرا، أن تأثير نقصان معدلات السموم من الجسد نتيجة لتوقف المدمن عن التعاطي عادة يكون مصحوبا بآلام جسدية شديدة المراس على المريض، يعاني خلالها من آلام مبرحة في كافة أنحاء جسده، أعراض برد، رشح، إسهال، غثيان، صعوبات في النوم، والآم في العظام والمفاصل، وصداع، اضافة إلى أعراض نفسية شديدة الوطأة من كآبة وعصبية وقلق وتوتر شديدين، وبالطبع فان جرعات العلاج الدوائي الكيميائي التي يتحصل عليها المرضى تحاول التخفيف من حدة هذه الأعراض بقدر الإمكان وليس كل الإمكان، وبالتالي فإن هذه المرحلة الأولية من العلاج تعتبر صعبة للغاية على المريض وعلى المعالجين أيضا، المريض يتألم بشدة رغم تعاطيه الدواء، يصبح حاد المزاج، لا يطيق الاحتجاز في العنبر، يثير الضوضاء والمشاكل من أجل الخروج من المصحة وقطع مسيرة العلاج، يمكن أن يفعل أي شيء من أجل

الخروج والتعاطي، لأنه يدرك عن يقين أن شفائه من معاناته الحالية لن يكون سوىٰ بجرعة ولو بسيطة من المخدر، لذلك تم تجهيز هذا المبنىٰ بما يحقق أمن وسلامة المرضىٰ من جانب، ومساعدتهم علىٰ احتمال تأثير هذه المرحلة والخروج منها بسلام قبل الانتقال إلىٰ المرحلة الأولىٰ من التأهيل والعلاج السلوكي من جانب آخر، في هذا المبنىٰ تتراص غرف النوم المزدوجة والرباعية المفروش أسرتها «بالملاءات» الأنيقة الفاخرة، وستائرها الكريمي المنسوجة من أفخر انواع القماش الانجليزي، تضفىٰ علىٰ المكان مهابة وفخامة، وتتناثر بجوار المبنىٰ بعض المباني الإدارية الصغيرة والصالات الرياضية وقاعة المؤتمرات ومكتبة المستشفىٰ الضخمة، وفي زاوية المثلث البعيدة يقبع مبنىٰ التأهيل وتعديل السلوك في مرحلته «ب» الذي يستقبل المرضىٰ الذين انتهت الأعراض الانسحابية لديهم، وتحسنت أحوالهم الجسدية والنفسية وباتوا مؤهلين للتأهيل النفسي وتعديل السلوك، هذا المبنىٰ يبدو طرازه مختلفا تماما، طلاء الواجهة المهيبة بلون سيموني، المبنىٰ يتميز بشرفاته العريضة المطلة علىٰ الحديقة، والنوافذ كبيرة، مفتوحة كلها تقريبا، ومن الداخل تتراص غرف المرضىٰ وقاعات الجلسات العلاجية وغرف الأطباء والتمريض، ويتوسط العنبر «كاونتر» التمريض الدائري الذي يتيح للممرضين الذين يعملون إمكانية مراقبة المرضىٰ وغرفهم من مكان وقوفهم، والإجراء المتبع أن يتم تحويل المريض لهذه المرحلة من أجل تعديل سلوكه وتنظيم حياته لكي تتسق والحياة الطبيعية التي يتم تأهيله لها بالمصحة، يستمر المريض في هذه المرحلة حوالي أربعة أسابيع أو

أكثر، يسمح له خلالها بالاتصالات الهاتفية مع أسرته، وكذلك زيارات الأسر بالمستشفىٰ، ويتم تأهيله سلوكيا ونفسيا تمهيدا لنقله إلىٰ المرحلة النهائية من التأهيل وتسمىٰ مرحلة التأهيل «ج» في العنبر التالي الذي يقبع علىٰ مسافة نحو خمسين مترا من العنبر السابق والذي تم تشييده بطريقة تتناسب والحياة الطبيعية للمريض في الخارج إلىٰ حد ما، غرف نوم المرضىٰ تصبح انفرادية، وأسرّة النوم مصنوعة من الخشب الزان مثل ما هو موجود في البيوت، يتسع مجال الخصوصية لدىٰ المريض بشكل ملحوظ، وكذلك يتمتع خلال هذه المرحلة بأنشطة متطورة مثل رحلات «الأوت_دور» إلىٰ الأندية والمزارات السياحية والدينية، وخدمة الذات، وكذلك مسئولية إدارة المكان، واختيار الرئيس بأسلوب ديمقراطي، وتنظيم الحياة داخل العنبر بما يتناسب مع رغبات المرضىٰ، ومتطلبات الحياة الطبيعية، كذلك يتمتعون بنظام الإجازات المنزلية العلاجية الأسبوعية، حيث يتمكن المرضىٰ الملتزمين بالبرنامج العلاجي من قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع ذويهم، باختصار كل شيء متاح داخل هذا المبنىٰ طالما يخدم العملية العلاجية ويؤدي إلىٰ هدف تأهيل المدمن المتوقف عن التعاطي نفسيا وسلوكيا واجتماعيا؛ حتىٰ بلوغ مرحلة التعافي المنشودة.

فحصت السجل الطبي لمشعل خلال هذه المرحلة، وراجعت أيضا ما دونته من ملاحظات في مفكرتي الشخصية بخصوصه خاصة في الأيام الأولىٰ من تحويله إلىٰ هذا المكان، وجدتني دونت ما يلي في

مفكـرتي بعـد الملحوظـة السـلبية السـابقة عـن شـروده وعـدم حماسـه الظاهر، كتبت بعدها في اليوم التالي:

«يبدو في حالة صحية طيبة اليـوم، اسـترد عافيتـه، أُضيـئ وجهه، لمعت بشرته البيضاء وتزهزهت، انتفخت وجنتاه، بدا أكثـر وزنـا وقـوة مقارنـة بتلـك الصـورة التـي صـادف أن رأيتـه عليها في اليوم الأول من دخوله المصحة»

والمدهش أني قد دونت ملحوظة في اليوم التالي في سجله الطبي في الورقة الخاصة بمتابعة المريض أشعرتني بالحيرة، كتبـت في سـجله الطبي:

«عينـاه زائغتـان، تتحركـان بسـرعة، كأنمـا تفتشـان عـن شـخص مـا، تحركـت ذاكـرتي للخلـف، رجعـت لمفكـرتي في ذلك اليوم بالتحديد، كان مشعل حاضـرا وبقـوة محتلا عـدة سطور في الصفحة، دونت يومها»

بالصـدفة كنـت في عنـبر «أ» لمتابعـة أحـد مرضـاي المنتكسـين والمحـولين حـديثا لهـذا المكـان، تشـبث بـي مثـل شـخص عثـر علـىٰ مبتغاه، بادرني سريعا، وقبل أن أنتبه إلىٰ تليفوني النقال الذي كان يزعق في جيبي:

- يـا دكتـور أنـا الحـين تعافيـت ولازم أطلـع عنـدي أشغال كثيرة بره»

سـحبت تليفـوني لأطـالع الشـخص المتصـل، سـحبته بيـدي الأخـرىٰ، أخبرتـه إني لا أعمـل في هـذا العنـبر، وبالتـالي لا أسـتطيع أن

أساعده بالصورة التي يتوقعها مني، وعليه أن يلجأ إلىٰ طبيبه المعالج لاستشارته في كافة أموره العلاجية، تباطأ حماسه تجاهي، اعتذر بشياكة لافته بعد أن رمقني بنظرة حانية مدهشة وغريبة تقول أنه يعرفني منذ أزمنة قديمة، أو أنني أعرفه منذ أزمنة قديمة كذلك، استدركت بينما كان يحاول أن يباعد المسافة بيني وبينه بعد أن تيقن من عدم فائدتي له في تلك اللحظة:

- أتمنىٰ أن تلتزم ببرنامجك العلاجي، وتكمل مسيرة العلاج، الطريق طويل وشاق، ولن تستطيع أن تقطعه وحدك.

إلىٰ هنا انتهت الكتابة، لكن ذاكرتي العائدة للخلف أكملت الصورة بطريقة جلية، كأنه سمع كلماتي حرفا حرفا، تباطأت حركته، اهتزت رأسه مع ظهره، ارتجف جسده كله بينما طفق يسأل الممرض عن طبيبه المعالج الذي لم يظهر بعد في العنبر، تشبثت أكثر بالملف الطبي الذي بين يدي، دققت في الملاحظات الطبية المكتوبة خلال هذه الفترة التي كان يبحث فيها عن شيء ما أو شخص ما، الغريب أني لم أجد شيئا غير اعتيادي فيما يتعلق بملاحظات زملائي الأطباء والأخصائيين والممرضين، مجرد ملاحظات عادية...

«النوم مضطرب إلىٰ حد ما كما هو معروف خلال تلك الفترة، أسماء الأدوية التي يتعاطاها بانتظام، يحضر الجلسات النفسية، لا يثير مشاكل أو اضطرابات في العنبر، مسالم، يتعاون مع الممرضين ومع زملائه بالطبع، تحاليله الفجائية سلبية ويعني ذلك نظافة جسده وخلوه من سموم مواد التعاطي التي كان يتعاطاها، كما أن نتائج التفتيشات

الفجائية علىٰ غرفته ومتعلقاته سلبية أيضا بما يعني عدم تورطه في عمليات تهريب مخدرات أو ممنوعات من الخارج»

الملاحظة الوحيدة اللافتة كانت في نهمه الشديد علىٰ التدخين وحاجته المستمرة إلىٰ شراء علب السجائر، هكذا بدا الأمر طبيعيا، لكن تقلبات الحالة تثير الدهشة وعلامات الاستفهام، عدة أيام مضت قبل أن أتواجه معه مرة أخرىٰ في أعقاب تحويله إلىٰ عنبر التأهيل «ب» حيث أعمل، كان قد حضر بصحبة أحد ممرضي جناح «أ» يحمل امتعته الخاصة وسجله الطبي أو الملف الخاص به لكي يسلم المريض وأغراضه إلىٰ هيئة تمريض العنبر الجديد، التقينا سريعا، كأنه تذكرني ساعتها، ابتسم من بعيد، راجعت ما دونته في مفكرتي في ذلك اليوم بدا الأمر علىٰ النحو التالي: «استقبلت اليوم مريض جديد/ قديم بالنسبة لي، مشعل، بدا قلقا، حائرا، عيناه تدوران في كل اتجاه تبحثان ربما عن شخص ما أو أشخاص يرتمي في وناستهم وأمانهم، ورغم ذلك طالعني بابتسامة الشخص القريب منه، أرسل تحيته من بعيد، بينما كان الممرض المصاحب منشغل مع زميله في تسليم المريض الوافد للعنبر، أخبرته أني سوف التقيه في الغد، وأن يحاول الاستمتاع بوقته والتعرف علىٰ زملائه الجدد، مؤكد يعرف بعضهم».

أتذكر أني استدعيته بعد ظهر اليوم التالي في مكتبي، بدا اللقاء وديا، هادئا، والأهم أنه بدا مرحبا مدفوعا بقوة خفية، غامضة، لمست فيها قوة الاعتقاد بإمكانية ولوجه في تيار الإقلاع والتعافي، وبسرعة دعمت هذا الاعتقاد الغامض، بسرعة أيضا ذكرني بتفاصيل لقائي معه

في العنبر السابق حينما سألني عن رغبته في الخروج بعد أن حقق الشفاء ولم يعد بحاجة للاحتجاز، وكيف كان ردي عليه حينها، راجعت ملفه الطبي بحثا عما دونته في ورقة ملاحظات المتابعة لعلي أجد ما يدعم ذاكرتي بخصوص هذا اللقاء، عثرت علىٰ ضالتي، مكتوب بتوقيعي... «حضر المريض جلسة تقييمية فردية، حالته طيبة، هادئ، متعاون، لديه رغبة في استمرار الإقلاع والتعافي، ودود، اجتماعي» قلبت الأوراق بحثا عن ملاحظات أخرىٰ تخصني، لم أعثر علىٰ شيء، اسعفتني ذاكرتي، ذلك أنني استدعيت للعمل في جناح التأهيل «ج» وكانت التدوينة الخاصة في مفكرتي بمثابة وثيقة تذكرني بالذي حدث وقتها، زميلي الذي كان يعمل في عنبر التأهيل «ج» ذهب في إجازة طويلة، تم تحويله للعمل في مكان آخر نتيجة لمشاكل شخصية، الإدارة استدعتني اليوم، أبلغوني بضرورة انتقالي فورا للعمل في جناح التأهيل «ج» بدلا من زميلي، وبالفعل امتثلت للقرار وتسلمت العمل في العنبر الجديد، لكن ماذا عن مشعل؟! راجعت أوراق الملاحظات، وجدت الكثير من الملاحظات المتتالية في ظرف يومين اثنين فقط عقب مغادرتي للعنبر، خلال اليوم الأول تشير الملاحظات إلىٰ المزاج الاكتئابي الذي اعترىٰ المريض، رغبة في العزلة، عدم حضور الجلسات النفسية والأنشطة العلاجية، شكوىٰ دائمة ومطالبات بالخروج، ثم ملاحظات في اليوم التالي تشير إلىٰ توتر المريض واضطرار الطبيب إلىٰ وصف مثبط مزاج لعله يعود إلىٰ حالته الطبيعية، وفي اليوم الثالث كانت هناك ملحوظة تفيد بنجاح المريض في الهروب من المستشفىٰ في المساء بعد أن تعاون مع

مريضين آخرين في السيطرة علىٰ الممرضين وتقييدهما والاستيلاء علىٰ مفتاح العنبر، ثم قرأت قرار خروج مشعل من المستشفىٰ نتيجة لهروبه، بالطبع حالة هروب المرضىٰ الثلاثة من المستشفىٰ أغرقت الجميع في حالة من الجدل والبحث عن الأسباب وتبادل الاتهامات، هروب الثلاثة معناه أن حياتهم في خطر، وربما تدخل المصحة في مشاكل قانونية مع أسرهم، راجعت مفكرتي للبحث عما دونته بخصوص هذا اليوم الصعب، وجدت عبارات قصيرة، مقتضبة، ثلاثة من المرضىٰ هربوا قبل فجر اليوم، قيدوا الممرضين واحتجزوهم في غرفة، استولوا علىٰ مفاتيح العنبر وفروا للخارج، الارتباك يسود جميع العاملين بالمصحة، قال الممرضين أنه تم تهديدهم بالقتل عن طريق سكاكين مطبخ وكسر زجاج، الإدارة غاضبة، رئيس الإدارة يلوم الجميع، حالة من القلق والارتباك تغمر المصحة، من بين الهاربين مشعل، ذلك المريض الذي يبحث عني، أتمنىٰ أن يكون وزملائه بخير، بعد يومين بالضبط ظهر مشعل مع أحد زملائه الهاربين في العيادات الخارجية، هكذا أخبرني زميلي الذي يعمل بالعيادة، قال عاد اثنين من رحلة الهروب، علمت أن مشعل من بينهم بالطبع، وجاري عمل إجراءات دخولهم عنبر «أ»

تابعت مفكرتي والملاحظات الطبية التي سجلت تلك اللحظات، أحاول أن افهم ما الذي حدث! مكتوب في مفكرتي... «علمت أن اثنين من الهاربين عادوا، ذهبت إلىٰ عنبر «أ» التقيتهم، مشعل كان في حالة سيئة جدا، أخبرني أنه تعاطىٰ كمية كبيرة من «الهيروين» وكاد أن يدخل في «أوفر دوز» يتحدث بصعوبة، أنفاسه

متحشرجة، مخنوقة، مثل بالون كبير مكتوم ليس به سوىٰ فتحة صغيرة تسمح بخروج الهواء بالكاد، زميله أكثر تماسكا، رفض الحديث، وفي الملف الطبي سجل طبيب الاستقبال أن العلامات الحيوية للحالة غير طبيعية، الوعي شبه غائب، مشوش، الحالة تحتاج إلىٰ رعاية طبية دقيقة، لكن لم يمر أكثر من عشرة أيام علىٰ هذه الحادثة حتىٰ صخبت المصحة بنداءات الاستغاثة عبر ميكرفوناتها الداخلية تشير إلىٰ وجود اضطرابات وشغب في عنبر «أ» هرع الجميع صوب العنبر وفق مقتضيات نظام العمل من أجل المساعدة في إنهاء هذه الحالة من الشغب والتمرد، تعلق بصرنا بشخص مشعل يحمل عمود سرير معدني ويقف فوق أحد الأسرة، كان غاضبا جدا، الشرر الأحمر الخارج من عيناه الضيقان يتطاير، يثير الهلع في الجموع الوافدة إلىٰ العنبر، طالعته بشفقة، كلماتي لم تجد طريقا إلىٰ أذنيه الموصدتين، صعد إليه شخصان من التمريض يجيدان التعامل مع مثل هذه المواقف باحترافية تم التدريب عليها كثيرا، تمكنا من السيطرة عليه وسحب العمود المعدني من يده، تم التعامل الطبي معه في الحال واحتجز في غرفة العزل، علمت لاحقا أنه أصر علىٰ الخروج النهائي ضد النصح الطبي، تم استدعاء إخوانه، وخرج معهم، تم تسجيل اسمه في قائمة سوداء تحرمه من الاحتجاز في المصحة مدة ستة أشهر علىٰ الأقل، قلبت في مفكرتي وسجله الطبي لاسترجاع ما حدث ومحاولة البحث عن تفسير له، هرب منذ يومين، ثم يعود بعد أربعة أيام من عودته يطلب مغادرة المصحة بالقوة! ما الذي يدور في رأسه؟ والدوافع الخفية وراء رحلتي الهروب والعودة؟

إن حكايات المدمنين داخل مصحات العلاج كثيرة، وتحصنك من الدهشة، مؤكد هناك أسرار قد نعلمها لاحقا حينما يبوح بها أحدهم في لحظة صدق أو لحظة مواءمة يسعىٰ خلالها إلىٰ إدراك شيء ما، في مفكرتي وجدت السطور التالية «إنذارات الشغب أو 'الكود جرين دوت' في المصحة، كان مشعل العائد حديثا بعد حادث الهروب يتحدىٰ بعمود السرير أي أحد يقترب منه، لم يسمع مني أو يدرك أي شيء، الأذن صماء، والعيون عميت»

ثم قلبت في ملفه الطبي بحثا عن سبب ما حصل، وجدت تقرير بحادثة كتبه الممرض المسئول عن العنبر بلغة ركيكة، يقول:

«المريض مشعل طالب بخروجه الآن، كان في حالة غضب وانهيار، وغير مستعد للحديث مع أحد، أبلغت طبيبه المعالج، طلب مني محاولة السيطرة عليه وإعطائه حقنة مهدئة لحين انتهاء الاجتماع مع المدير الطبي، يبدو أن المريض توقع ذلك، زاد هياجه واندفاعه وصياحه، خلع عمود السرير، ظل يهدد كل من يقترب منه بالقتل، طلبنا الاستغاثة»

لم يذكر تقرير الحادثة أسباب هياج المريض واندفاعه ورغبته القوية في قطع مسيرة العلاج التي اختار أن يكملها عقب عودته قبل أربعة أيام بعد حادث هروبه الدراماتيكي، أتذكر أنني لم أنشغل كثيرا بهذه الأحداث بعد رحيل بطلها الدراماتيكي مشعل، طويت صفحته، انشغلت بعملي حتىٰ ظهر بعد عامين في العيادات الخارجية يطلب الدخول والعلاج، في هذه الأثناء كانت تشغلني أمور كثيرة شخصية أو متعلقة بالعمل، ذات يوم، وبينما كنت أتهيأ للانصراف بعد نهاية يوم

عمل شاق شهد اجتماعات كثيرة مع الإدارة والفريق الطبي من أجل تحسين الخدمة وتطوير العمل داخل المصحة؛ فوجئت بممرض من عنبر «ب» يصطحب مشعل وملفه ويقف أمام «كاونتر» التمريض لتسليمه للجناح، ابتسمت للممرض، سألته وكنت أُومئ نحو مشعل، متىٰ جاء للمستشفىٰ؟ بادر مشعل بابتسامة عريضة ماكرة «موش تقول حمد الله علىٰ السلامة الأول يا دكتور، نسيتني خلاص!»

أخبرني الممرض قبل أن تأخذني الدهشة «بقاله ثلاثة أشهر، محولينه النهاردة» التفتُ إليه متكلفا، مددتُ له يدي بالمصافحة، قلت في نفسي بصوت مسموع: «غريبة إني معرفتش بوجودك بالمصحة، حمد الله علىٰ السلامة، أتمنىٰ أن تكون هذه هي المرة الأخيرة» تركته وانصرفت إلىٰ حال سبيلي دون أن أنظر خلفي، وجدتني دونت في مفكرتي عبارات قصيرة عن هذا الموقف، راجعتها مرات كثيرة، «تفاجأت بظهور مشعل، المريض الهارب في عنبري «ج» اليوم، شيء مدهش أن يمكث مريض مثله في المصحة نحو أربعة أشهر دون أن تعلم، لم أرتح لمظهره ولا لابتسامته، مؤكد سوف ألتقيه في الغد لتقييمه» وقد كان، جاء الغد، وحصل اللقاء، لم يحتج وقتا للتأقلم، كان يحفظ أركان العنبر ودهاليزه، وكان يحفظ نظامه أيضا، وكانت جلستي معه في أول لقاء رسمي بعد الاجتماع الصباحي، حسبت أنه قد يفتح آفاقا جديدة في عالمه وروحه ورغبته في أن ينجز شيئا طيبا في هذا العالم، هكذا مضىٰ الوقت، تعارفٌ عميقٌ نوعا ما، تقييم «إكلينيكي» للحالة في ضوء ظروفها الشخصية والاجتماعية، وتاريخها الشخصي، والمرضىٰ وتاريخ التعاطي، رصدت ودونت كل شيء

يتعلق بشخصيته، أسرته، إدمانه، بمرور الوقت تسرب إليه شعورا بالتململ وعدم الراحة والقلق، أنهيت الجلسة، وكان الاتفاق على اللقاء في جلسة العلاج الجمعي غدا، لاحقا توالت اللقاءات والجلسات، تراكمت المعرفة والعلاقة والمشاعر، لكن أيام الإقلاع شاقة وطويلة وتقلبات المزاج حادة وعنيفة، وبينما كانت الأمور تسير في العنبر على ما يرام، وبينما كان يسجل انجازات مهمة في مشروع التأهيل، تولى خلالها منصب رئيس الاجتماع بعد أسبوعين فقط من وجوده في الجناح، وحصل على ثقة ودعم زملائه المدمنين المخضرمين، أصبح بين ليلة وضحاها قريبا من الجميع، ومحبوبا من الجميع أيضا، خلال هذه الفترة التي لم تتجاوز الشهر تكشفت أمامي الكثير من المعلومات والحقائق التي تميط اللثام عن أسراره المدفونة داخل خلاياه والتي يسعى دائما عن طريق نظرته الحانية أن يخفيها عن الآخرين، وأن يصرف الانتباه عنها، اتضح لي أنه شاب مسكين رغم ما يتمتع به من حدة الذكاء، وقوة المنطق، وحدة النظرة المتفحصة، وكفاءة التخطيط والقيادة، شخصيته من الداخل شديدة الوهن والهشاشة، لا يشعر بالثقة في نفسه، ولا يسكن بداخله الأمان والطمأنينة، مشغول دائما بالدفاع عن نفسه «عمال على بطال» لديه شعور مزمن بأنه مدان، ومتهم، «على راسه بطحة» علاقته بالتعاطي متينة إلى حد بعيد، جرعة «الهيروين» بالنسبة له بمثابة شريان الحياة الذي لا يستغني عنه أبدا، دائما يعلن هذا الأمر بمنتهى الجرأة والشجاعة وربما التباهي في جلسات العلاج النفسي الجماعي، ذات مرة صرخ بأعلى صوته بينما كنا نمارس إحدى الألعاب النفسية

المتعلقة بإمكانية التوقف عن التعاطي قال «يا دكتور ما تتعبش نفسك، أنا موش هابطل تعاطي خالص، أنا هاموت مدمن» وللآن لاتزال أصداء هذه الصرخة تزلزل كياني حينما تستدعيها ذاكرتي وأتعرض لموقف مشابه، أتذكر أني في أعقاب تلك الجلسة اجتمعت مع زملائي واقترحت عليهم إمكانية استحداث برنامج خاص للأشخاص الذين نتفق علىٰ أن حالتهم ميؤوس منها بخصوص إمكانية الإقلاع والتعافي، ابتسم رئيس العنبر والزميل الأقدم في المصحة ونظر لزملائه القدامىٰ في المكان وقال «لقد نفذنا برنامج «الميثادون» منذ عدة سنوات، وكان المرضىٰ علىٰ شاكلة مشعل يحضرون إلىٰ العيادة من أجل الحصول علىٰ جرعات «الميثادون» أو «الهيروين» المخفف بواسطة أطباء العيادات الخارجية وفق أسس وقواعد طبية منضبطة صارمة، لكن ذلك لم يستمر أياما قليلة، فوجئنا بتكاثر أعداد المرضىٰ التي تطلب هذا البرنامج، ومعظمهم لا يستحقون، وكانت النتيجة مشاجرات عنيفة مع الأطباء والممرضين والعاملين من أجل الحصول علىٰ جرعات «الميثادون» بالقوة، تم الاعتداء علىٰ الأطباء والعاملين بالسباب والضرب، ودمرت العيادة بالكامل، ثم أشار إلىٰ أحد الزملاء الحضور وضحك، الدكتور مراد تم الاعتداء عليه بالضرب المبرح ونجا من علقة موت بصعوبة بعد أن نجح الممرضين في تهريبه من أمام المرضىٰ الغاضبين»

تقلبات المزاج كانت السمة السائدة لديه، أخبرني مرة عن ضرورة خروجه إجازة لمدة ساعتين فقط من أجل إنجاز أمور خطيرة بحسب زعمه! يتوقف عليها حياة وموت بشر، أفهمته بطريقة مبسطة

أن ما يمر به الآن ليس سوىٰ حالة من حالات الاشتياق للمخدر Craving وتميز حالة المتوقف عن التعاطي، وهي حالة مألوفة لدىٰ المدمنين تعكس لهفة شديدة للمخدر بعد زوال أعراض الانسحاب الجسدية، والتبطيل، واختفاء آثار السموم، حيث يبدأ الجسد في استعادة إيقاعه الحيوي، واتزانه البيولوجي الطبيعيين، يشعر خلالها المدمن المتوقف بتعافيه البدني، وقدرته الشخصية علىٰ التعامل مع الآخرين وحل مشكلاته بنفسه، وتلك تصورات وهمية وغير حقيقية تنتاب المدمن تحت العلاج، المرض لا يزال موجودا، لكن نشاطه انخفض بفعل نقصان أو إزالة آثار السموم الضاغطة، وهذه الصحة أو العافية المتوهمة مجرد لعبة أخرىٰ من العاب ذلك المرض المراوغ، لم يكن مستعدا في ذلك الوقت لسماع أي شيء، مزاجه مغلق، حواسه وجميع مداركه معلقة علىٰ شيء واحد لا ترىٰ ولا تدرك سواه وهو المخدر، ظل طوال مدة الجلسة يلح علىٰ الخروج حتىٰ اضطرني لان أخبره بحسم «إنك لن تستطيع الخروج في زيارة أسرية قبل استقرار حالتك النفسية والبدنية والتأكيد من ذلك، هذا الأمر لا يمكن تقييمه قبل شهر من وجودك في هذا العنبر» أدرك أن لا جدوىٰ من كلامه معي فثار ثورة عارمة مدعيا إننا سوف نتسبب له في كارثة كبيرة وانه يحملني شخصيا المسئولية عما يحيق به من كوارث نتيجة عدم خروجه، أبلغت زملائي في اجتماعنا اليومي بالعنبر بهذه التفاصيل، وجاءت تقارير الممرضين مدعمة لكلامي حيث أفادت أن المريض غاضب جدا، يسعىٰ للخروج، يحرض المرضىٰ الآخرين علىٰ عدم التعاون في العنبر وعلىٰ الهرب أيضا، تم وصف أدوية إضافية لتهدئته وأدوية

أخرىٰ عند اللزوم، علىٰ الرغم من اعتبار هذا العنبر خالي من الأدوية، حيث أن حالات مرضاه استقرت بالفعل بدنيا ولم يعودوا في حاجة لتدخلات كيميائية، بل العكس هو الصحيح، فالمطلوب اعتيادهم علىٰ نمط الحياة النظيفة الطبيعية من دون اللجوء إلىٰ استخدام الأدوية سواء للنوم او التهدئة، وتم وضعه تحت الملاحظة حتىٰ لا يؤذي نفسه أو يهرب، وهذا إجراء مخالف تماما لطبيعة وفلسفة العمل في هذا العنبر، كذلك تم الاتصال بأخوة الذي كان معه وقت الدخول وترك تليفونه، كان الأخ الأصغر للمريض، وكان الوحيد من بين أفراد الأسرة الموجود في مشهد العلاج، الأم توفيت قبل أكثر من سبع سنوات والأب متزوج من امرأة أخرىٰ ويعش حياته الثانية في سكن آخر، والأخ الأصغر هو الوحيد المكترث برعايته وعلاجه، في هذه اللحظة أيقنت أن التاريخ يكرر نفسه، وأن ما حدث قبل عامين يتكرر بنفس الصورة النمطية، وأن مشعل سائرٌ إلىٰ قدره المحتوم ولن تستطيع قوة مهما كانت أن تغيره، الذي حدث أن الأخ المسئول عنه قال «إنني مشغول الآن في اختبارات الجامعة وسوف أحضر بعد يومين» ولم يمهل مشعل أحدا فرصة السيطرة علىٰ الموقف، حاولت بدأب دعمه واحتواء آثار ذلك الاشتياق الشيطاني الرهيب للمخدر، لكن هيهات، كان مشعل أسرع مما ينبغي في سباق الرغبة والحصول علىٰ متعة الحرية والمخدرات، نجح في إقناع بعض زملائه من المرضىٰ في العنبر ممن في مثل حالته، سيطروا علىٰ ممرضي نوبة الليل بنفس الطريقة السابقة، هددوهم بالآت حادة أمكن تهريبها للعنبر سلفا، اشتبكوا بعنف مع الممرضين، تمكنوا من الفرار أخيرا، كان

مساءً غير سار، غص المكان بالفوضىٰ والارتباك وبعض الدماء التي سالت من جبين أحد الممرضين الذي كان يقاوم هروبهم، أقل من اثنتي عشر ساعة مرت بعد هذه الأحداث، ظهر مشعل مرة أخرىٰ في العيادات الخارجية كما هو معتاد، هكذا ذكرت التقارير الطبية، وكما أبلغني بذلك الممرضين في الاستقبال، حاول أن يبدو متماسكا علىٰ الرغم من ثيابه الرثة، وعيناه الجاحظتان الحمراوان، بدا كأنه لم ينم طوال الليل، طفق يفرط في لوم الأطباء والإدارة الذين منعوه من الإجازة الضرورية لإنجاز معاملات شخصية مهمة بالنسبة له، ولم يتفهموا كلامه، وأضاف بجرأة وقحة «لذلك قررت الخروج بنفسي لإنجاز معاملاتي المهمة وحضرت مرة ثانية لأستكمل علاجي» راجعت دفتر يومياتي حول هذه المسألة، كتبت بالحرف «عاد مشعل لممارسة الجنون، هذا الشخص غير قابل للعلاج «لا أدري كيف صمد محتجزا داخل المصحة مدة تقترب من الأربعة أشهر!» وفي نحو نصف صفحة وجدتني اندفع لتفسير ما يجري بطريقة متعجلة، كتبت ما يلي: «يستخدم أي مشعل «ميكانيزم» دفاعي مألوف وشهير لدىٰ المدمنين يسمي «بميكانزم» دفاع التبرير، ويسير أيضا علىٰ خطىٰ المثل المصري الشهير؛ خدوهم بالصوت لا يغلبوكم، بمعنىٰ أنه إذا بادرت بالهجوم أربكت خصمك، وضمنت عدم إلقاء اللوم عليك، وأصبحت أنت الضحية وغير الملام، بنفس القدر الذي تُحمِل فيه الآخر مسئولية تصرفاتك الرعناء» دفاع التبرير عادة يلجأ إليه المدمن ليبرر كافة أشكال تصرفاته السلبية، هدفه واضح ومحدد الوصول إلىٰ جرعة ««الهيروين» » ولكي يبلغ هذا الهدف يعلم أنه سوف يمارس

سلوكيات وتصرفات غير سوية لا تتفق والقيم الاجتماعية السائدة، وبالتالي يضطر لأن ينفق جزءا كبيرا من وقته في البحث عن مبررات تفسر سلوكه وتصرفاته وتضبطها اجتماعيا لتنسجم مع سلوكيات وتصرفات الأسوياء غير المدمنين، وفي هذا الحالة يضطر أيضا لاستخدام «ميكانزم» دفاعي أقل حظا في الشهرة والبريق من السابق وهو دفاع «العقلنة» ويعني إفراط الشخص في استخدام تفسيرات وتبريرات تبدو منطقية لسلوكياته الإدمانية، تتخذ هذه التفسيرات والمبررات أشكالا عقلانية ومنطقية بهدف مخاطبة عقل المتلقي لإبهاره وإقناعه، مشعل وجد في هذين الميكانزمين الدفاعيين ملاذا يريحه من الانتقادات التي قد يتعرض لها نتيجة تصرفاته الرعناء بتحريض المرضىٰ علىٰ الهروب والاعتداء علىٰ أحد الممرضين بعنف أفضىٰ لإسالة دماءه والهروب من المستشفىٰ، لم أكن متحمسا لإعادة دخوله من جديد، لكن بعد جدل شديد تقرر دخوله مرة ثانية للعلاج بشرط إبلاغ الجهات الأمنية المسئولة بما أحدثه من إصابات للممرض بالجناح وتحريضه المرضىٰ علىٰ الهروب، لكن الممرض كان كريما للغاية، قرر التنازل عن حقه في البلاغ وبالتالي حقه في مقاضاة المريض بتهمة الاعتداء علىٰ موظف عام في محل عمله، توجه مباشرةً نحو عنبر «أ» لمعالجة السموم في جسده، ويعيد الكرّة من جديد، حيث الولوج إلىٰ عنبر «ب» ليعاد تأهيله السلوكي مرة أخرىٰ، ثم يعود إلىٰ عنبرنا «ج» ليستأنف البرنامج الذي قطعه نتيجة الهروب تم إجراء الفحوصات اللازمة ومن ضمنها تحليل عينات من بوله ودمه، جاءت النتائج حسبما كان متوقعا، تحليل بول إيجابيا

للأفيونات، الحشيش، المهدئات الصغرىٰ، والمنومات، أيضا كشف تحليل عينة الدم عن وجود آثار لشراب الكحول، والنتائج علىٰ هذا النحو تكشف عن درجة مرتفعة من النزق مارسها مشعل خلال الساعات القليلة التي قضاها في الخارج، فوقفا للفحوصات المختبرية تعاطي مادة ««الهيروين» » المخدر والحشيش مع بعض الحبوب من فصيلة المهدئات الصغرىٰ بالإضافة لشرب الخمر، ولكنه بعد أن عاد أنكر بالطبع وظل يقسم بأغلظ الأيمان أنه أنهىٰ مصلحته الحيوية التي كان مستقبل العائلة يتوقف عليها ثم عاد ليستكمل علاجه، وعندما تمت مواجهته بتحاليل المختبر لاحقا أعرب عن عظيم استغرابه من المعمل ونتائجه المزيفة، مؤكدا إنها ليست المرة الأولىٰ التي يظهره المعمل بهذه الصورة غير الصحيحة، حيث أنه تعاطي سيجارة حشيش واحدة مع أحد أصدقاءه بعد أن أنهىٰ عمله وشعر بخرمه قوية تجاه «الهيروين» ففكر وقرر أن يسكت نيران تلك الخرمة بسيجارة اختطفها من صديقه علىٰ عجل حتىٰ لا يعود للهيروين ثانية، أبلغه الطبيب «لكن تحاليلك فيها هيروين أيضا» اصطنع دهشة كبيرة اتسع لها فمه عن آخره مظهرا أسنانه الصفراء الصدئة من فرط عدم اكتراثه بنظافتها وتدخينه المفرط للسجائر، ارتفع صوته مخترقا جدران مكتب الطبيب «من فين هذا «الهيروين» اقسم بالله أني ما تعاطيت هيروين ولا رايته منذ دخلت هنا للعلاج «هذه الحادثة رواها لي زميلي الطبيب الذي يعمل في العنبر الذي تم تحويل مشعل إليه، كتبت في مفكرتي في نفس اليوم «مشعل يتباهىٰ بالكذب، يقاتل من أجل انتصار كذبه وغباءه، مشعل الآن يستخدم كافة أسلحته الدفاعية

النفسية المتاحة من أجل إظهار نفسه بصورة الشخص الصادق الذي وعد فأوفى، وحدث فصدق، يصر أن يظهر نفسه إنسانا طبيعيا قادرا على حماية نفسه والسيطرة على سلوكه الإدماني، وجدير بثقة الأطباء والمعالجين وإدارة المركز الذين ارتكبوا خطأ كبيرا بعدم وثوقهم به وتصديقه، والدليل أنه موجود بينهم الآن ويطلب العلاج بإلحاح»

والمدهش في تلك الأيام إنني كتبت تفاصيل تفسر هذا الموقف مثل: «هذا الموقف الدفاعي المستأسد من المريض عكس شيئا جديرا بالاعتبار يتعلق بدافعية المريض نحو العلاج، فالمرضى اللذين يفرطون دائما في استخدام تلك الأساليب الدفاعية من إنكار وتبرير وعقلنه مرورا بالكذب تنخفض الدافعية للعلاج لديهم، وغالبا يقاومون الاندماج في البرامج العلاجية ويضطر أغلبهم إلى قطع مسيرة العلاج، مشعل في هذه المرحلة من العلاج، منخفض الدافعية، على الرغم من وجوده بالمستشفى وادعاءه أنه يسعى للعلاج والتعافي، الحقيقة أنه يريد علاج تفصيل، على مقاسه، أو كما يريد ويشتهى، بعد هذه الحادثة بأيام وفي جلسة العلاج النفسي الفردي عندما ذكرت له قصة الهرب والتعاطي والعودة منتكسا، أخبرني وقد خرجت منه ضحكة مجلجلة عميقة ومريحة وصادقة، ذكر «لم أحتمل قوة اشتياقي لضربابة، كنت مخنوق، لا أستطيع الجلوس أو النوم أو حتى الحركة، فقررت الخروج لتعاطي جرعة صغيرة تريحني، رفضتم إني أخرج قررت أهرب، قابلت الشلة، كان كل شيء متاح، خمرة، هيروين، حبوب، نسوان، كله كان موجود، أنا كنت خرمان جدا، مقدرتش أحرم نفسي من أي شيء، ومقدرتش أرحم نفسي كمان، لحد ما كنت

هاموت» وبادرني بسرعة وقد لمحت علامات الاشتياق تغزو جبهته ووجنتاه وعيناه «متىٰ أخرج يا دكتور؟ أنا ما أحبش الحبس»

أيقنت ساعتها أنه استشاط رغبة واشتياقا، سحبته إلىٰ سريره وطلبت منه أداء تمرين الاسترخاء حالا، إنه في حاجة للهدوء الآن، استجاب، بعد دقائق كان مسترخيا تماما علىٰ سريره، دخل في نوبة نوم عميقة للغاية، في الحقيقة تعقيدات هذه الحالة لا يمكن عزلها عن تعقيدات مرض الإدمان ذاته، اتذكر ورقة قدمتها منذ أيام في المؤتمر الذي عقدتهُ المصحة بمناسبة اليوم العالمي للصحة النفسية، قدمت ورقة بحثية تتناول مسألة الإدمان وعوامل انتشاره، كنت قد دونت الأفكار الأساسية للبحث في مفكرتي علىٰ النحو التالي:

«الإدمان والتعاطي مجرد انعكاسات أو ردود أفعال استجابية لمشكلات عميقة للغاية في الشخصية، وفي التنشئة الاجتماعية للمدمن، تشير نتائج البحوث العلمية إلىٰ الدور الهام للعوامل الوراثية في التعاطي والإدمان، مجرد التفكير في هذه المسألة شيء يصعب احتماله، الشخص الذي يعاقر الخمر، أو يتلذذ بحقن «الهيروين» في أوردته يتوقع أن يصبح ابنه الذي لم ينجبه بعد وما يزال في علم الغيب مدمنا بامتياز مثل أبيه، والسبب ذاكرة الجينات أو الموروثات اللعينة التي انتقلت إليه من أبيه، إنها قضية ما تزال تثير جدلا علميا وأخلاقيا، نتائجها كارثية علىٰ أي حال، التعاطي والإدمان مجرد انعكاسات لأمور خارجية أخرىٰ تتعلق بمدىٰ إتاحة المواد المخدرة في السوق، وتشير البحوث إلىٰ تزايد عدد المدمنين مع تزايد المعروض من المواد المخدرة، وكذلك رخص ثمنها، مسألة عرض

وطلب لا أكثر، مثل أي سلعة تجارية في السوق، زيادة المعروض في الأسواق يعني انخفاض السعر، وبالتالي جذب أشخاص جدد محدودي الإمكانات المادية إلىٰ سوق المخدرات للتجربة والانزلاق لاحقا، هذا إلىٰ جانب عوامل أخرىٰ مؤثرة بالتأكيد علىٰ قرار الشخص بالتعاطي وسلوك التعاطي نفسه، مثل الدور الذي يلعبه الأقران أو ما اعتاد الناس تسميتهم أصدقاء السوء، ومع تحفظي الشديد علىٰ هذا التعبير الغامض، لكن لا أتحفظ بالتأكيد علىٰ المدىٰ غير المحدود لتأثير جماعة المدمنين علىٰ الشخص بداية من اتخاذه قرار التجربة للمرة الأولي، مرورا ببدايات التعاطي، وانتهاء بذلك المدىٰ الواسع من الانتكاسات إذا قرر التوقف بنفسه عن التعاطي أو قرر لاحقا العلاج داخل المصحات المتخصصة، أو بعد انتهاء مسيرة العلاج داخل المصحة، أيضا تحفزنا مسألة البحث عن التركيب الدينامي لجماعات المدمنين وعوامل الجذب الخارجية لغير المدمنين لإدخالهم إلىٰ عالم التعاطي والخيال، وكيفية تناغمها مع العوامل الشخصية الداخلية لدىٰ هؤلاء الأشخاص من أجل بلوغ تلك الحالة من الاستئناس، والانتشاء، واللذة، والاندماج في خيال استثنائي مميز، والأمر في حاجة إلىٰ بحث تلك المسألة بجدية لازمة»

انتهت أزمة مشعل بتحويله إلىٰ عنبر «أ» وإعادته لبرنامج التأهيل من أول وجديد، طويت صفحته حتىٰ ظهر في العنبر محولا من عنبر التأهيل «ب» بعد أن مكث هناك عدة شهور، أشادت تقارير وملاحظات الأطباء والممرضين والإخصائيين بسلوكه وانضباطه، ومساعدته لزملائه المرضىٰ و«الاصطاف» في عمليات التأهيل

السلوكي، أخبرني أحد الزملاء ويعمل في نفس الجناح منذ شهرين قبل وصوله إلىٰ عنبري أنه لاحظ أن مشعل تغير بصورة دراماتيكية، زميلي نفسه مندهش من حجم هذا التغيير، أخبرني أيضا، كان من المفترض تحويله منذ شهرين، لكنه كان يستجدينا أن يمكث فترات إضافية في هذا العنبر، يقول مازالت هناك أمور داخله يتطلع للعمل عليها في هذا المكان قبل الانتقال إلىٰ عنبر «ج» راقبناه، احتوينا شخصيته بقدر الإمكان، نستطيع أن نقول أنه تغير الآن، لم أكترث كثيرا بهذه التباشير الإيجابية، قلت في نفسي دعنا نرىٰ ما نحن مقدمين عليه في المرحلة القادمة، تم وضعه تحت الملاحظة المباشرة وغير المباشرة، وكانت التقارير ايجابية، اندمج في العنبر بسرعة، استحوذ علىٰ عقول وقلوب العاملين بسرعة أيضا، أصبح بين ليلة وضحاها المحرك الأساسي لماكينة العمل داخل العنبر، مراجعة ملفه الطبي المتخم أشارت إلىٰ حصوله علىٰ خمسة إجازات منزلية أسبوعية علىٰ مدىٰ عامين مدة إقامته بالمصحة وقبل اختفائه والإعلان عن خبر وفاته في الصحيفة المحلية، زيارة أسرية واحدة فقط كانت ناجحة وفقا للتقارير المعملية وتتمثل في عودته من الزيارة في موعد العودة المقرر سلفا، ونتائج تحليل البول السلبي عقب الزيارة، وتقارير الأسرة أثناء الزيارة من انضباط في السلوك والأفكار، وتقلص ممارسته للسلوكيات الإدمانية القديمة، وبخصوص الزيارات الأربعة فتعتبر فاشلة بمقاييس العودة متأخرا عن الموعد المقرر للعودة، ونتائج التحاليل الإيجابية التي تشي بتعاطيه المخدرات أثناء الزيارة، والتقارير السلبية من الأسرة بخصوص سلوكياته أثناء الزيارة، كان يتم تحويله إلىٰ عنبر «أ» ويعيد

البرنامج من جديد، ظل على هذا الحال قرابة عامين حتى حصل على زيارة منزلية، خرج ولم يعد، اختفى تماما، بعد شهرين من غيابه تم غلق ملفه، وعمل خروج إداري بسبب عدم العودة من الزيارة والغياب، والمدهش أن أحدا من أسرته لم يهاتفنا، أو حتى يرد على اتصالاتنا للاستفسار والاطمئنان عليه قبل غلق الملف إلى الأبد، انشغلت كثيرا بالأمر، استفزني ظهوره المتكرر في خيالاتي، وإلحاح ذاكرتي على استدعائه، جاء خبر موته في الركن الصغير من الصحيفة المحلية مستفزا لكياني كله، حاولت اقتحام الغيب والتلصص على أسراره خلال العامين حيث اختفى في المرة الأولي في أعقاب ظهوره الأول في المستشفى، وأين اختفى عقب الإجازة المنزلية الخامسة؟ وكيف مات؟ كان يعلم أنه سوف يموت، أخبرني بذلك وسط الجلسة العلاجية، جميع تصرفاته وأفكاره انحدرت في نفس الاتجاه، نحو قدر لم يعد غيبا عليه، بل حاضر بوضوح داخل وعيه وخلاياه ويعلمه جيدا، لم يكن بمقدوري وزملائي منع هذا القدر المنحدر من أعلى الجبل، ولم يكن بمقدور أخيه المساند الوحيد له أن يوقف انحدار القدر من أعلى الجبل أيضا، راجعت ذاكرتي، مفكرتي، استجمعت شجاعتي في مواجهة القدر، والغيب، وتجميع تلك القصاصات المبعثرة التي يطوحها الهواء في الأزمنة البعيدة والفيافي الواسعة لعلي أستجمع صورة الغيب، وأواجه هذا القدر العجيب شديد المراس.

(2)

معالم في الطريق إلى الوحل

لا يتذكر شيئا عن طفولته المبكرة، لا يوجد شخص جاد من العائلة يندمج في العملية العلاجية ويمد المعالجين بالمعلومات الكافية والصادقة التي تساعدنا في الفهم الأكثر وضوحا وعمقا لشخصية مشعل؛ حتىٰ نضع يدنا علىٰ «الاستراتيجية» الصحيحة للعلاج، مصدرنا الوحيد للمعلومات هو المريض بنفسه، لكنه ليس كافيا وشافيا وكاشفا للرؤية التشخيصية والعلاجية علىٰ السواء، خلاله تختلط الخبرات الذاتية بالموضوعية ويتعمد أو ينسىٰ ذكر خبرات مهمة بفعل «ميكانيزم» الدفاع المسمىٰ بالإنكار، يسعىٰ بكل طريقة إلىٰ التقليل من حجم المشكلات التي ترتبت علىٰ إدمانه لأنه ببساطه لا يستطيع رؤيتها بحجمها الحقيقي، لو رآها بمثل حجمها الحقيقي لتعمق اضطراب الشخصية لديه، وربما تفسخت مكوناتها وتباعدت، ويدخل في حالة جنون صريحة، الاكتفاء بالمريض مصدرا وحيدا للمعلومات يتح له الفرصة أن يوجه الأطباء والمعالجين إلىٰ الوجهة التي يبتغيها، ومعروف أن المريض المدمن يتمتع باستبصار كامل، وقدرة هائلة علىٰ المراوغة، وحرفيه شديدة في التعامل مع الآخرين من أجل بلوغ هدفه، ومن ثم يتوقع منه أن يستخدم «ميكانزمات» الدفاع التي اعتاد التعايش معها في حياته اليومية مثل الإنكار والتحريف والتقليل من حجم المشكلة، في مراحل العلاج الأولي،

والتي ينبغي فيها الحصول علىٰ المعلومات الدقيقة، الكاملة من أجل التوصل إلىٰ الفهم الأعمق للحالة «التشخيص» ثم وضع البرامج العلاجية (الدوائية والنفسية والتأهيلية) المناسبة، بالإضافة إلىٰ توقع نسيان أحداث وخبرات هامة ربما تفيد في العلاج، وتغير من مساره، مشعل لا يتذكر أي شيء عن طفولته المبكرة جدا، كل ما يذكره متعلق بمرحلة المدرسة الابتدائية والمتوسطة قبل أن ينهي تعليمه للأبد، يقول:

«كنت شقي في المدرسة، كنت أهرب، ما كنت أحبها، ما كنتش أحب البيت أيضا، أبوي كان دايما يصارخ عليا وعلىٰ أمي، أمي طيبة لكن كان فيه مشاكل كثير في البيت، بعد كده وأنا عمري عشر سنوات، والدي تزوج واحدة ثانية غير أمي وخرج من البيت، أمي صارت وحدها معانا أنا وإخواني الثلاثة وأخواتي الاثنين، ترتيبي الثالث بين الستة، والدي ما عاد يبجي البيت، وما عاد يصرف كمان، كنت أشعر دايما بالقلق علىٰ أمي، جدي وإخوانها كانوا يساعدوننا، لكن والدتي ضاق خلقها وبقت تتعصب كثير، كنت قريب منها وأحبها كثير، وهي كمان كانت تحبني كثير، والحين مستغرب من أبويا اللي لا يعرف عنا شيء للآن، شوف أنا عندي الآن تلاتة وتلاتين سنة وما شفته منذ غادر البيت غير مرتين أو ثلاثة في مناسبات زواج أخواتي البنات واخوي الكبير، موش قادر افهم تصرفاته للحين؟ علمت فيما بعد أنه كان يشرب خمر كثير، وبعد كده أصبح يتعاطىٰ «هيروين» لكنه ماسك نفسه، هوه الآن في الستينات من العمر»

يضيف...

«أنهيت المرحلة المتوسطة بشق الأنفس، ضغطت نفسي، أرىٰ إخواني وأخواتي الأصغر والأكبر ينجحون، وأنا أظل أرسب! ضغطت نفسي وحصلت علىٰ الشهادة، لم أفكر في الثانوي، قررت أقدم أوراقي في وزارة الدفاع، والدتي وإخواني كانوا متحمسين، وأنا أيضا كنت عايز أتفك، وأشوف حالي! كنت محتاج فلوس، وكانت تحصل مشاكل مع إخواني الأكبر ووالدتي بسبب الفلوس لدرجة مرة اتعصبت وسبيت أمي وتهورت علىٰ أخي الأكبر، لما حاول يضربني، كنت أسبب لهم مشاكل كثير».

عند هذا الحد وجدتني أكتب في الملف الطبي تعليقا علىٰ هذا التاريخ الملاحظات التالية:

«الغلاف الأسري المحيط بالمريض وباقي أعضاء الأسرة يتميز بالهشاشة والضعف بالدرجة التي يصبح خلالها أي ضغط أضافي مصدرا دالا للإزعاج وعدم الراحة، المريض بتركيبته النفسية والسلوكية المميزة مرشح لأن يصبح أضعف الحلقات من بين أعضاء الأسرة في مواجهة تلك الضغوط المتواترة (معاقرة الأب للشراب وإدمانه، المشاحنات الزوجية المستمرة بين الأب والأم بسبب الإدمان والنقود، حالة القلق والغموض حول مستقبل العلاقة بين الأب والأم، حالة الغموض حول المستقبل بالنسبة لجميع أفراد الأسرة) حالة سوء التوافق التي ميزت استجابات مشعل خاصة فيما يتعلق بجنوحه للتدخين في سن مبكرة، ومشكلاته في البيت مع أمه وإخوانه طلبا للنقود، وانعدام مقدرته علىٰ الانضغاط في سياق برنامج دراسي يتطلب انتظاما ومسئولية، إضافة إلىٰ مشكلاته في المدرسة مع

المدرسين وزملائه، وكذلك غيابه المستمر عن المدرسة والمنزل دون مبرر، كل ذلك يشير إلىٰ إننا بصدد حالة شخصية هشة، ضعيفة، لا قبل لها بتحمل أو التعامل مع ذلك الإعصار الهائل من الضغوط النفسية الذي خيم علىٰ الأسرة، أما بسبب معاقرة الأب للشراب والإدمان، أو تلك العلاقة الزوجية الهشة والتي ربما رفضها الزوج هربا إلىٰ الإدمان، ثم هربا من البيت ذاته، أو رفضتها الزوجة هربا إلىٰ أولادها، الغلاف الأسري مضطرب، العلاقات بين الأفراد اللذين يشكلون كيان الأسرة وكذلك استجابتهم للضغوط المتواترة تبدو غير طبيعية، من الصعب الحديث عن غلاف أسري آمن، متين في علاقاته واهتماماته واتصالاته، وبث روح التواصل الوجداني والمشاعر الإنسانية الطبيعية بين الأفراد في مثل هذه الحالات، لكن النمط الذي يسود في مثل هذه الحالات غير الطبيعية فيما يتعلق بالعلاقة بين الأفراد يتمثل في الانعزالية، الذاتوية، البحث عن حلول فردية للنجاة أو الهرب من هذه الضغوط اللعينة، الآن أصبح مشعل بشخصيته الهشة اضعف الحلقات في تلك المنظومة الأسرية، فاقدا الدعم الاجتماعي والنفسي المفترض إمداده به بواسطة أعضاء الأسرة الآخرين، وبناء عليه لن يجد غير الشارع، أصدقاء الشارع، والتعاطي، لكي يستمد الدعم الذي يحتاجه، استرجعت التاريخ والذكريات، الملف الطبي ومفكرتي التي اعتدت تدوين انعكاسات اعتراكي مع واقعي والأحداث، تاريخ لا يختلف عن تاريخ آلاف المدمنين، بل ربما ليست له معالم مميزة، لكنه مدهش علىٰ كل حال، وجدت هذا

التعليق بخط يدي في ملفه الطبي، تاريخ مع التعاطي حافل ومثير، يقول:

«كان عمري تسع سنوات لما دخنت أول سيجارة، ابن عمي أعطاها لي، بعد كده بديت اشترىٰ، كنت أدخن في المدرسة. مرة شافني المُدرِّس وعمل لي مشكلة، لكن أبوي جه وحلها، كنت أسرق فلوس من البيت عشان أجيب بيها سجاير، أهلي كلهم عرفوا، أصبحوا يضربوني، لكن ما قدرت أتركها، بعدها بسنتين بعد والدي ما ترك البيت شربت الحشيش، عن طريق ابن عمي أيضا، عجبني أوي مزاجه، صرت أتعاطاه كثير، صار ليا أصحاب كثير غير ابن عمي اللي قدر يوقف الحاجات دي بعد كده، والتزم والتفت لمدرسته، لكن أنا استمريت أدخن حشيش من عمر حداشر أو اتناشر سنة، لحد في يوم جه واحد من الأصحاب أعطاني حبة كده، قال دي تخليك زي الحصان، كان عندي حوالي خمستاشر سنة، كنت أتعرفت علىٰ بنات، بدأت أشعر برجولتي، وأحب أمارس الجنس، كانت حبة «كابتي» رفعت مزاجي علىٰ الأخر، ظليت حوالي يومين لا أنام، ظليت آكل حبوب ألكابتي، وكنا نتواعد أيضا مع الأصحاب ونجلس ندخن حشيش في منزل واحد من منهم، ظهر في الشلة شخص أول مرة أشوفه، شكله ما كان طبيعي، اختارني أنا بالذات موش عارف ليه! سحبني علىٰ الحمام، وطلع من أيده كيس صغير فيه بودرة بني كده، كنت اسمع عن «الهيروين» لكن لم أكن رايته، قال لي: خد شد الشوية دول وادعي لي. وعمل خط علىٰ ظهر إيدي، خط من البودرة رفيع، وقال: يلا مد خشمك وشد جامد. لم أتردد، عجبني هذا

الصاحب الجديد، روحت شادد، لم أشعر بشيء في الأول، لكن بعد كده لقيتيني كأن كان فيه حاجة فيا كانت بايظة واتعدلت، موش عارف هيه إيه! مزاجي ارتفع علىٰ الآخر، شعرت إني شخص تاني، كأني ما كنتش عايش من أول ما أتولدت، دلوقتي شاعر إني أتولدت من جديد علىٰ أحسن».

هكذا تتضح معالم الطريق الطويل للإدمان والتعاطي، دونت في مفكرتي ملحوظة هامة للغاية وهي أن منظمة الصحة العالمية تراجعت مؤخرا عن تراجعها السابق وأعادت مفهوم الإدمان "Addiction" إلىٰ مكانه مرة أخرىٰ باعتباره توصيفا يعبر بدقة عن مشكلة مرضية ملحة، والغت مفهوم الاعتمادية "Dependency" الذي ظل بديلا لمفهوم الإدمان لعدة عقود متتالية، بعد أن تبين للخبراء أن مفهوم الاعتمادية فضفاض، يتسع لحالات إنسانية كثيرة لم تتورط في الإدمان والتعاطي باختيارها علىٰ الإطلاق، كما أن مفهوم الاعتمادية يتضمن مظاهر وتجليات نفسية واجتماعية أخرىٰ كثيرة لا علاقة لها بتعاطي المخدرات أو الكحوليات، ومن ثم لم يجد الخبراء في منظمة الصحة العالمية أي تحرُّج في إرجاع المفهوم القديم إلىٰ مكانه الأصلي، معالم الطريق إلىٰ الإدمان لدىٰ مشعل تجلت فيما يلي:

البداية التقليدية بحكم المعتاد لدىٰ غالبية المدمنين، تدخين التبغ في سن مبكرة، وميل للجنوح والمغامرة، الرغبة المستمرة في التعرف علىٰ المجهول، وكشف المستور، مخالفة واعية للنظم والتقاليد والأعراف الاجتماعية الأسرية السائدة، عدم الاكتراث بعواقب الأفعال والتصرفات، والاندماج ضمن سلسلة من السلوكيات

والتصرفات منذ الطفولة يمكن تصنيفها «سيكايتريا» ضمن فئة اضطرابات التواصل، ثم ذلك الزلزال القوي الذي ضرب العائلة من جراء إدمان الأب للكحول، واندماجه في النشاط الإدماني «للهيروين» لاحقا، ومشاكله المزمنة مع الأم، ثم الخروج الدرامي للأب من المنزل إلىٰ غير رجعة، أو حتىٰ دون التفكير في إقامة حد أدنىٰ من التواصل الإنساني مع أبنائه بعد انشغاله بحياته الجديدة مع زوجة أخرىٰ وكذلك تعاطي «الهيروين».

فقدت الأسرة توازنها الجمعي نفسيا واجتماعيا، غابت فكرة دعم الأفراد بعضهم لبعض ضمن شبكة الأسرة الواحدة علىٰ حساب الانعزالية، والترقب والتوجس، ترتب علىٰ ذلك أن انشأ كل فرد لنفسه شبكة الدعم الخاصة به، سواء ذاتيا بمعنىٰ أن كل فرد من العائلة قرر حماية ومساندة نفسه ذاتيا بالاعتماد علىٰ قدراته ومهاراته الخاصة ومستندا علىٰ متانة شخصيته دون النظر أو اعتبار الآخرين من أفراد الأسرة، أو مساندة نفسه خارجيا عن طريق أقران من الخارج كما حدث بالنسبة لمشعل، حيث أن ظروف شخصيته، واستعداداته الجينية «الوراثية» أوصلته إلىٰ قدر من الهشاشة حدا لا يتمكن بمقتضاه من إقامة شبكة دعم ذاتي يستطيع بها التغلب علىٰ تأثيرات هذا الزلزال الذي ضرب الأسرة بعنف، وكذلك توابع هذا الزلزال، بالإضافة إلىٰ أن مهاراته الاجتماعية، والشخصية كانت من الفقر والضحالة بحيث لم تتمكن من إسعافه في انجاز وتحقيق هذا التوافق في ظل الظروف المضطربة مثلما نجح بقية إخوانه وأخواته من قبل، لجأ إلىٰ الأقران من خارج العائلة ممن يماثلونه نفس الظروف،

ونفس درجة الهشاشة في الشخصية والضعف في المهارات الاجتماعية للتوافق والتعامل مع الواقع الضاغط بطريقة سوية مسئولة وكان ما كان، أيضا يبدو أن توفر المواد النفسية وسهولة الحصول عليها، وكذلك الدعم النفسي والاجتماعي الذي تتيحه للمدمنين لهما تأثيرٌ بالغ الدلالة.

وفي توصيفي لحالة مشعل في ظل هذه الظروف دونت في ملفه الطبي ما يلي:

«إن حالة مشعل ترقت واستجابت بسرعة لهذين النوعين من الدعم، الدعم الاجتماعي؛ حيث حصل علىٰ مراده من المساندة والائتناس من أقران علىٰ شاكلته، ولهم ظروف مثل ظروفه في الغالب، وجد ضالته في تلك الجماعة التي تستطيع أن تفهمه، وتتفهمه، وتدعم سلوكياته وتصرفاته وأفكاره أيضا، وتحقق له ما لا يستطيع إخوانه وأخواته ووالدته أو حتىٰ والده المدمن الغائب تحقيقه، وعن الدعم النفسي فحدث ولا حرج، المخدرات تساعده بالتأكيد في التغلب علىٰ آثار الحالة الاكتئابية التي يعاينها بين حين وأخر، وترفع عنه كافة أشكال الكف و«ميكانزمات» الدفاع النفسية، لذلك نراه، ينطلق، يبتهج، يخاطر، يندفع، يواجه، ويرتفع مزاجه للسماء، يعيش لحظات مرتعشة مع تخديرة «الهيروين» لا تحدها سماوات أو أفق، يرىٰ نفسه كأنه يملك الدنيا في يده».

والتاريخ المهني لا يقل دهشة عن مجمل حياته، فقد سبق له التقدم بأوراقه إلىٰ وزارة الدفاع للعمل عسكري، ويكشف ملفه الطبي

عن هذه الحادثة بالتفصيل، دونت هذه المسألة بوضوح علىٰ النحو التالي:

«أيام مشعل في الجيش كانت قاسية وفق معاييره الشخصية، انقلبت حياته رأسا علىٰ عقب، كان يُجبر علىٰ الاستيقاظ مبكرا، لم يعتد علىٰ ذلك، كان يجبر علىٰ الاندماج في تدريبات قاسية تمتد منذ تسرب طلائع ضوء الشمس إلىٰ الأرض وحتىٰ انفلاتها قرب المغرب، يومين اثنين في بداية أيام الجيش كانا كفيلان بإدخاله في غيبوبة مفاجأة، أدخلوه العيادة، قالوا إعياء بسبب حرارة الشمس، الوحيد الذي يدرك السر مشعل نفسه، أنه انقطاعه عن المخدر، لكن لماذا كل هذا الإعياء حتىٰ الإغماء؟ هكذا سأل نفسه قبل أن يستلقي ثانية علىٰ فراشه وحوله اثنين من صف الضباط من رؤسائه ويشرفون علىٰ تدريبه، فطن أحدهم أن وراء تلك الإغماءة شيئا غير طبيعيا، سأله من دون موارية هل تتعاطي شيئا؟ تصنع الانزعاج، اعتاد التمثيل كثيرا هذه الأيام ليتخلص من الورطات التي يواجها بعد التهديد باستفحال أمر تعاطيه وخروج الأمر عن السيطرة، بدا أن أحد الأشخاص الذين تواجدوا يومها معه في عيادة المعسكر غير مصدق، خرج يتمتم بكلمات غير مفهومة، اعترىٰ مشعل القلق من إمكانية افتضاح أمره، سيطرت علىٰ رأسه الضخمة فكرة الهرب في تلك الليلة، ليس بسبب نظرات الشك الدائمة التي كان يرمقه بها مساعد الضابط المسئول عن تدريبه، بل بسبب عدم احتماله للحياة الصعبة في معسكر التدريب، هكذا أكد لي بينما كنت أدون المعلومات الخاصة به، الأمر كان فوق احتماله، أيضا لم يعد قادرا علىٰ تحمل تلك الموجات الرهيبة من

الاشتياق واللهفة للمخدر والتي سيطرت عليه تماما في صحوه وفي منامه لدرجة أفقدته تركيزه واهتمامه وانتباهه لأي شيء، لم يكن مساعد الضابط الحاذق الذي تشكك في إغماءته منذ أيامه الأولىٰ في المعسكر بعيدا عن هذا الأمر، بل توقع هروبه وقد حصل بالفعل، استيقظ العساكر فجر اليوم التاسع عشر من التحاقه بمعسكر التدريب من دون مشعل، اختفىٰ مثل السكر عندما يذوب بسرعة في كوب الشاي الساخن» أخبرني بكافة التفاصيل في هدوء، قال

«كان الليل خير ستار لتنفيذ خطتي للتبخر من المعسكر الذي يعج بالعساكر وحرس الخدمات والإضاءة في كل مكان، نجحت في مغافلة الجميع، حتىٰ صديقي الذي يجاورني في الغرفة والفراش لم يعلم شيئا، هاتفت صديقي سليمان المدمن، التليفون خارج نطاق الخدمة، ذهبت مباشرة إلىٰ منزله لعلي أتصيد منه جرعة هيروين، كانت الشمس بازغة توا، طالعت نافذة غرفته من الخارج، لا توجد حياة في المنزل، مؤكد لم يبيت في منزله، تصاعد توتري، ارتفع ضغط الخرمة للمخدر لدي، الارتعاشة ضربت جميع أجزاء جسدي، بدأت أفقد اتزاني، وأفقد قدرتي علىٰ التركيز والسيطرة علىٰ انفعالاتي أيضا، الشمس القوية استقرت في وسط السماء، ليس هناك ملجأ، ولا نقود كافية، المخدرات مطلوبة بإلحاح شديد، والعودة للمنزل ليست خيارا محمودا، لكني مضطر اليه، لست متأكد أني كنت مفتقد أحد هناك، لكن ما ليس مرغوبا نكون مضطرين إليه أحيانا، استوقفت تاكسي من الطريق، انطلقت

قـافلا للبيـت لعلـي أجـد شـيئا مـا يصـلح لطعـام، وأن أحصـل علـىٰ نقـود لشـراء «تريبحـة» إلـىٰ أن يفرجهـا الله، هكـذا قلـت لنفسـي بينما كنت في طريقي لمنزل العائلة التي انهارت.

(3)

العودة والقتل

توقفت سيارة الأجرة أمام المنزل، نـزل مشـعل علـىٰ عجـل، نقـد السـائق الباكسـتاني مبلغـا مـن المـال لـم يتوقعـه الرجـل، أعطـاه مشـعل ظهره بسرعة لا يلوىٰ علىٰ شيء، طفق الرجل من داخل السيارة يتمتم بعبارات غاضبة غير مفهومة، الخادمة ذات الملامح الأسيوية والجسد النحيل فتحت الباب بعـد طرقـات متتابعـة، قويـة ومزعجـة براحـة يـده القوية، اقتحم الباب مندفعا مثل طلقة مسدس، عبر الممر الطويل، لـم يصادفه أحد في البيـت لـم يهـتم بالسـؤال عـن أحـد، كانـت غرفـة نومـه هدفه الرئيسي في البداية، دفع البـاب شـبه المغلـق، ظـل يجـوس ببصـره واضطرابه في أنحاءها، بات من الواضح أنه في حالة من انشـغال البـال، تلك حالة تستحوذ علىٰ المرء أحيانا حين ينشـغل العقـل بفكـرة معينـة تستحوذ علىٰ جل انتباهه واهتمامه، انشـغل بالـه بالتريـيحة التـي يتـوق لها الآن، لا يشغله أي شيء في العالم سواها.

لقـد تخلـص مـن سـائق التاكسـي وكأنـه لا يـراه، أو حتـىٰ سـمع احتجاجاته خلف ظهره حينما نقده أجرة التوصيلة التي لم ترضيه، ولا حتىٰ طالع في ملامـح الخادمـة التـي أزعجهـا بدقاتـه المتواصـلة حتـىٰ فتحت له الباب، لم يهتم بالسؤال عن والدته التي تركها مريضة قبل أن يلتحق بمعسكر التدريب، ولا توقع لقاء أحد من إخوانـه بـالمنزل، لـم ينشغل باله قط سـوىٰ بلهفتـه علـىٰ العثـور علـىٰ ترييحـة صـغيرة، ربمـا

يصادفها مختبئة في إحدىٰ ثنايا الغرفة حيث كان يعيش معظم يومه، أو مندسة في تضاريس فرش السرير، أو منحشرة داخل ثنايا إحدىٰ قطع ملابسه الكثيرة المبعثرة في دولابه بطريقة فوضوية للغاية، فتش في الأحذية المتناثرة بطول وعرض الغرفة، وتحت السرير وداخل خزانة الملابس، زاغ بصره الحاد في الفراغ الضيق جدا بين خزانة الملابس والحائط الخلفي الذي تستند خلفه الخزانة، لم يتمكن من العثور علىٰ شيء، نذر الشرر بدت تتطاير من عينيه الضيقتين المستديرتين، احمرتا بشدة، استدعىٰ الخادمة بعصبية ملفتة، هرولت نحوه مذعورة، متوجسة، اعتادت كثيرا علىٰ اندفاعاته، وعنفه ضدها، خاصة عندما يكون في مثل هذا المزاج السيئ، يحدث عادة أن يطيح فيها سبا ولطما، وفي أحيان أخرىٰ يطرحها علىٰ الفراش ويدفق في ثناياها المرتعشة جام غضبه، سألها وعقيرته تهز أركان الغرفة:

هل دخل أحدهم هذه الغرفة في غيابي؟

يقصد والدته أو أحدا من إخوانه المقيمين في المنزل، خاصة عويد أخوه الكبير الذي يكن له حقدا شديدا، قالت برهبة المترقب لفعل غير عادي من شخص غير عادي:

«أنا ما فاهم بابا»

دفعها بقوة من طريقه وتوجه بعصبية نحو الباب، ثم عاد إليها بعد أن انبجس في ذهنه حلا علىٰ طريقته للمشكلة، لم تختفي من ذهنه صورة سائق التاكسي الأسيوي الذي أمطره منذ قليل بوابل من السباب، وعبارات غير مفهومة لحظة مغادرته التاكسي، أحكمت

قبضته القوية علىٰ كتفها النحيل وهزها بعنف، صرخ بعقيرة زاعقة مضطربة مهاجمة، «أعطيني أي فلوس معك عشان التاكسي»

كانت عيناه تجوسان الصالة جيئة وذهابا مثل كشافات رادار تتحرك في جميع الاتجاهات أثناء إخراج الخادمة لكيس نقودها وعبثها داخله بأناملها الدقيقة للغاية لعلها تتصيد بضع عملات معدنية مع وريقات عملة صغيرة، مدت يدها المرتعشة نحو عيناه الجائعتان للحمق والشر بحصيلة ما تملك، استبقها، خطف كيس النقود من يديها، افرغ كامل محتوياته، كانت عبارة عن أوراق نقدية قديمة صغيرة القيمة، وأرقام هواتف، وورقة عملة بحجم أكبر مدسوسة بالداخل، أخرج كل شيء، حشىٰ جيبه بالمال وكان الشرر ما يزال يتطاير بشراسة وقوة من عينيه، دلف بسرعة إلىٰ غرفة نوم والدته، لم يكن أحد بالداخل لم يسال أين ذهبت؟ قالت الخادمة بصوت مرتعش من خلف ظهره:

«ماما راحت مستشفىٰ، تعبانة»

لم يلتفت نحوها، لم ينبس، فتح ضلفتي الدولاب، عبث في محتوياته الظاهرة والمستترة، لم يعثر علىٰ شيء، توجه نحو السرير المرتب بعناية، فتش في ثناياه، لم يعثر علىٰ بغيته، نبشت أصابعه المرتعشة في أدراج خزانة الأدوية والأشياء الصغيرة جانبي السرير، ارتطمت أصابعه المتوترة المرتعشة بزجاجات دواء وعلب وشرائط حبوب، وحقن، ومسكنات تخصها، استمر نبش الأصابع بشغف محموم وتوتر، في طريقها عثرت تلك الأصابع التي كانت تزحف مثل حشرة ضالة علىٰ ساعة يد أمه الحريمي، وبقايا نقود مدسوسة في أحد

أركان درج الخزانة علىٰ يمين السرير، التقط كل شيء، دسه في جيبه مع النقود التي استلبها من الخادمة، في طريقه للخروج من البيت لم ينس الراديو الثمين الذي اعتادت والدته وضعه جوار أذنيها عند النوم تتسمع لإذاعة القران الكريم، طلب من الخادمة أن تحضر له كيس بسرعة، وضع فيه المتعلقات التي استلبها توا والخاصة بوالدته، تسارعت خطواته المتعجلة، التي أصبحت أكثر طمأنينة وهدوءًا الآن نحو الباب إلىٰ الخارج، اعتقد في اقترابه من تحقيق بغيته والوصول إلىٰ التريحة التي تخلصه من كل هذا التوتر والوجع النفسي.

في الطريق التقاهم، ثلاثة من رفاقه القدامىٰ، كانوا مستلقين سيارة فورد بيضاء قديمة إلىٰ حد ما، وكان موتورها يدور برغم أن السيارة تقف في زاوية الشارع حيث اعتادوا شراء احتياجاتهم من «الهيروين» المخدر، بمجرد أن لمح السيارة، والراقدين داخلها تملكه شعور خفي، مبهج، كأن روحه ردت إليه، اقترب منهم، كانوا في مثل حالته تقريبا من التوتر والعصبية والارتياب، لم يهتم أحدهم بالخروج من السيارة لتحيته، فتح سالم باب السيارة الخلفي ليستلقي مشعل جوارهم دون أن ينبس، لم يكن داخل السيارة سوىٰ دخان كثيف لسجائر محشوة بالتبغ والحشيش وصمت وترقب، وكان هناك أيضا توتر وعصبية بالغين طفحت بهما عيون الرفاق الأربعة بينما كانوا يرقبون الطريق متوجسين ومنتظرين شخص ما يظهر لكي يلقىٰ إليهم بلفافة ويمضي، ثوان قليلة احتاجها مشعل للاندماج مع تلك الحالة التي عليها رفاقه الثلاثة، فهو مثلهم وربما أكثر منهم احتياجا لهذا الشخص المجهول وتلك اللفافة التي سوف تلقىٰ من نافذة السيارة،

الأجواء خارج السيارة كانت غير مريحة، الطقس شديد الحرارة، ورغم أن أعداد المارة المترجلين في الشارع كانت قليلة لكن أمرًا ما كان يثير قلق عبدالله سائق السيارة لدرجة أن يديه كانتا ترتعشان بينما كانت قابضة علىٰ مقود السيارة، شاركه ناصر الجالس جواره مباشرة تلك الحالة من القلق والتوجس والارتياب، الشخص الذي ينتظرون ظهوره ليتسلموا مصلحتهم منه تأخر كثيرا علىٰ غير المعتاد، كما أن هناك ثمة تغيرات وارتيابات في ملامح الأشخاص العابرين جوار سيارتهم الرابضة متوازية مع الإفريز لم تريحهم علىٰ الإطلاق، وجوه تشبه إلىٰ حد بعيد وجوه رجال المباحث الذين اعتادوا مطارداتهم دوما، أيضا كانت هناك تغيرات في ماركات السيارات المصطفة في الطريق في مثل هذا الوقت لم يشاهدوها من قبل، صرخ سالم فجأة طالبا من عبدالله الانطلاق بالسيارة ومغادرة المكان الذي علىٰ ما يبدو يعج بشرطة المكافحة، لكن مشعل طلب منهم الهدوء ورباطة الجأش، أخرج هاتفه النقال، طلب رقما خاصا، ابتهج جدا عندما رد عليه الطرف الآخر هذه المرة، رحب بعودته من جديد، أخبره أنه كانت هناك ثمة متاعب مع الشرطة والآن انتهت، أخبره أيضا أن طلبه ورفاقه في الطريق خلال دقائق، تهللت أسارير مشعل، عادت إليه مشاعر الثقة في نفسه، وفي قوة علاقاته، وبهجة التريبحة القادمة في الطريق، استشعر أيضا مكانته التي خشىٰ من اهتزازها أيام الغياب الماضية، تحقق المراد، توقفت سيارة مازدا صغيرة وقديمة خلف الفورد مباشرة، خرج منها شاب قصير القامة، خمري البشرة، له ملامح أسيوية هادئة، توجه مباشرة نحو عبدالله الذي فتح له بسرعة

زجاج السيارة علىٰ يساره، ودس في يديه نقودا ورقية قبل أن يتسلم منه بسرعة لفافة صغيرة، دفع بها للرفاق خلفه، وفر بالسيارة بسرعة جنونية منتشيا بروح المنتصر الغانم.

الآن لا صوت يعلو علىٰ صوت التربيحة، وإسكات هذه الالآم الجنونية التي تنخر في العظام وتيبس العروق، إنها علامات نقصان آثار «الهيروين» المخدر في أجسادهم، تسمي علميا بالأعراض الانسحابية، ومن علاماتها الإكلينيكية تلك الالآم الشديدة بالعضلات والعظام، إسهال ومغص شديدين، غزارة في العرق، اتساع في حدقتي العينين، إفرازات غزيرة من الأنف والعينين، بالإضافة إلىٰ ارتفاع في ضغط الدم والحرارة وسرعة النبض، وغثيان وقيئ شديدين وشعور عام بالضعف والإنهاك، ومن المتحقق علميا أن تلك الأعراض الانسحابية تظهر بعد نحو ثمانية ساعات من تعاطي آخر جرعة للهيروين، وتبلغ الأعراض شدتها في اليوم الثالث، العلاج الناجع والسريع لهذه الأعراض هو أن يتعاطىٰ الشخص جرعة «الهيروين» ليستعيد بسرعة اتزانه الطبيعي، وهذا ما يفعله المدمنون عادة، وهذا ما حدث لمشعل ورفاقه أيضا، لكن في حالة العلاج من الإدمان يوصف للشخص عقاقير تقترب تأثيراتها إلىٰ حد ما من تأثيرات الافيونات، لكن لا تماثلها في التأثير بالطبع، لذا يظل المريض يعاني (نوعا ما) من آثار سحب المخدر في جسده، وفي بعض مراكز العلاج الخاصة يعتمدون أسلوب تخدير المريض تماما بواسطة عقاقير قوية المفعول يفيق المريض بعدها وقد أعفي تماما من الشعور بأي ألم، وعلىٰ أي حال فان المريض يبرأ من الأعراض الانسحابية الجسدية خلال عشرة

أيام تقريبا، لكن تستمر توابع الأعراض الانسحابية بتأثيراتها النفسية مثل المزاج الاكتئابي والضيق والقلق والتوتر وعدم الاستقرار (جسديا وانفعاليا أيضا) بالإضافة لكثرة الحركة وسهولة الاستثارة والحساسية الزائدة والشعور بالضعف العام لفترات أطول قد تمتد لشهور وأحيانا سنوات.

السيارة الفورد التي يقودها عبدالله وبجواره ناصر ومن خلفهم يجلس سالم ومشعل كانت تطير بسرعة بينما كانوا يجهزون العدة، طفقوا يحرقون، ويعبون السرنجات 1 مم بمحلول «الهيروين» حطت أخيرا في قلب الصحراء بعيدا عن العيون ورجال البوليس وكل الناس، محرك السيارة لم يتوقف لكي يظل مكيفها يعمل، ظلوا ينبشون في أجسادهم بحثا عن عروق يغرزون فيها سن إبرة الحقن، كانت مسالة في غاية الصعوبة، لكنهم حصلوا علىٰ بغيتهم في نهاية المطاف، صادوا تلك التريبحة المنشودة التي ولجت بهم إلىٰ ذلك العالم السرمدي، انتهت المهمة علىٰ خير، حصلوا علىٰ بغيتهم وارتاحوا من وجع الخرمة، عاشوا لحظات قليلة مع نشوة التخدير السحرية، الآن يعود طنين القلق يئز في أدمغتهم بضراوة، انتهت السكرة وجاءت الحسرة... وماذا بعد؟

هكذا سال مشعل رفاقه في السيارة الفورد بعد أن بدأ يشعر بوخز سن الإبرة الذي أدخله توا في وريد من أورده ساقه اليمنىٰ أعلىٰ الفخذ تحت ذكره مباشرة، معكم فلوس يا شباب؟ لم يرد أحد، مازالوا مترنحين في ثمالة ذلك العالم السرمدي الذي يوشكون علىٰ الخروج منه ألان، سالم بجواره نام فعلا وأراح رقبته الصغيرة علىٰ كتف

مشعل، الذي اكتشف ذلك الأمر توا فاعتدل من جلسته وأزاح أدوات التعاطي جانبا، حاول إفاقة سالم قابضا بيديه على كتفيه حتى لا يسقط، تهلل وجه ناصر ومد رقبته للوراء ليشهد ما يجري على المقعد الخلفي، قال في نبرة لا تخلوا من حسد واضح «محظوظ طول عمره، ما أن يشم ريحة «الهيروين» تلقاه يغطس حالا» ابتسم عبدالله وقد اعتدل من جلسة القرفصاء التي اعتادها دوما حتى أثناء قيادته للسيارة وقال:

«أنا توك صايد وريد، خلاص ما بقى عندي أورده، تروح بس الأعراض، ما ابغي شيء تاني»

جاء صوت مشعل من الخلف مختنقا، مازال متعلقا بآثار تلك اللحظات السرمدية التي ولجها منذ قليل، تحدث، وكانت الكلمات تعلق في حلقه قبل أن تخرج متحشرجة في السيارة:

«ها... نعمل... إيه يا شباب... ما فيه فلوس... العجوزة (يقصد أمه) مريضة في المستشفى وما فيه في البيت فلوس»

بسرعة رد عبدالله سائق السيارة وكان أكثرهم انتباها وتركيزا «ما أضفت جديد اخوي مشعل، توك عامل هوشه كبيرة مع أمي وأبوي ومرتي، طالت ايدي عليهم، تركت البيت، هذه نقود سالم اللي راقد جنبك زيي القتيل، ما ادري من وين جابها»

قال ناصر ساخرا وقد استدار استدارة كاملة ليواجه مشعل، ويُريه تلك الابتسامة «ايش رأيك يا مشعل، تبجي نسرق بنك»

أجاب مشعل بسرعة وقد لمعت عيناه لأول مرة، الأمر الذي يشي بإفاقته تماما «لا... إحنا نروح نسرق بقاله الآن وندبر فلوس»

ما يزال سالم مترنحا من تأثير التخدير، وناصر التفت بسرعة البرق نحو جاره عبدالله صاحب السيارة لعله يصيد من بين ثنايا ملامحه ما يشير إلىٰ الاندهاش مما قاله مشعل، لكنه لم يجد سوىٰ علامات توشي بان ما باح به مشعل ألان فكرة عبقرية ليته كان قد سبقه في التوصل إليها، يبدو أن الفعل كان أسبق من التفكير، أدار مفتاح السيارة، أضاء أضوائها أيضا، استدارت السيارة لبحر الرمال الذي احتوىٰ لحظات روعتهم ونزقهم دون أن ينبس، انطلقت قافلة بسرعة مجنونة نحو الأسفلت، كانت صورة دكان البقالة الصغير المختبئ في زاوية الشارع الضيق بالقرب من منزلهم تتراقص أمام عيناه، لا تغيب، كانت ملامح ذلك الشاب الأسيوي الهادئة ذي البنية الضعيفة تداعب غريزته العدوانية المندفعة دائما، ارتفعت عقيرته، كان يترنم بمقطع أغنية للفنان نبيل شعيل، كان يحب أن يقلده في أوقات ابتهاجه ونزقه، انطلقت السيارة الفورد بأقصىٰ سرعتها، ارتفع مع صوت موتورها الهادر صوت عبدالله يترنم، انتابته حالة مميزة من الهوس، كثيرا ما عاينها معه رفاقه، بدا سعيدا للغاية، وفرحا للغاية، ومتهورا للغاية أيضا، وضع لهم خطة السطو، السيارة كانت تجري في الشوارع تلتهم الأسفلت والطرقات، ولوحات الإعلانات الكبيرة المضاءة علىٰ الجانبين، الوقت يمضي، باقي نصف ساعة علىٰ آذان العشاء تقريبا حينما صمتت محركات الفورد بعد أن انزوت في ركن مظلم في ساحة ترابية خلف دكان البقالة القريب من منزل عبدالله مباشرة، وفقا للخطة

التي رسمها لهم بكل دقة أغلقوا أبواب السيارة، نزل أربعتهم يتفقدون المكان ومعاينة الدكان الهدف، دخل عبدالله ومشعل كل على حده، الأول طلب شراء علبة دخان، والثاني طفق يبحث في الأشياء على الطاولة، ويسأل عن نوع معين من العلكة، انتظر سالم وناصر في الخارج ناضورجية، يطالعون حركة الزبائن والناس في الخارج، التقاهم البائع الآسيوي بوجه هادئ وبشوش، طلب منه عبدالله علبة دخان، انشغل البائع معه قليلا، زعق فيه مشعل بصوت مرتفع ومصطنع، طالبا باكو علكة لأنه تأخر عليه، ارتبك الشاب، ابتسامته لعبدا لله وشت بأن وجهه مألوف لديه، وأنه يعرفه من المنطقة، ابتسم له عبدالله ونقده ثمن علبة الدخان، قال له بصوت هامس وإشارة نحو موضع مخه بأصابعه المضمومة المقبوضة كأنه يفتح شيئا «ما عليك ده شخص مجنون» اطمأن البائع الشاب، وضع النقود بطريقة آلية مثلما هو معتاد في الصندوق أمامه، دخل زبائن آخرون، ازدحم المكان فجأة، خرج مشعل وعبدا لله بعد أن أنجزا مهمتهما الاستطلاعية التي استهدفت المنطقة، والدكان، والبائع، ومكان صندوق النقود، التقوا داخل السيارة الفورد مرة أخرى، قرروا التوجه إلى إحدى المقاهي القريبة ليمكثوا فيها ساعتين أو ثلاثة، تكون المنطقة وقتها قد خلت من المارة، وتراجع الزحام وحركة المارة في الشارع والدكان، ويصبح المكان تحت سيطرتهم بالكامل، غادروا المقهى بعد أكثر من ساعتين، صفت السيارة في نفس المكان المظلم، في ساحة مظلمة خلف الدكان، خرج منها الرفاق الأربعة، دخل الدكان هذه المرة سالم وناصر، ظلا يتظاهران بالبحث والتنقيب والسؤال عن شيء معين

حتىٰ خلىٰ الدكان تماما من الزبائن، أصبحا وجها لوجه أمام الشاب، طلب مساعدتهم فيما يبتغونه، أثناء انشغاله معهم اقتحم مشعل الدكان زاعقا بقوة ومتصنعا غضبا هادرا، ظل عبدالله يرقب من الخارج متعمدا ألا يراه البائع، كان مشعل يحمل قطعة من الحديد التقطها من دكان تخصص في لحام إطارات السيارات من نفس المنطقة قبل ذلك بساعتين، تعمد ضرب رأس الشاب الأسيوي البائع بقوة وبقسوة ثلاثة طرقات متواصلة علىٰ رأسه، لم تسعفه قوة الضربات المتتالية من الصراخ أو الانتباه، سقط مضرجا في دمائه التي انسالت بغزارة تحول أرضية الدكان الصغير الناتئ في أحد زوايا الشارع إلىٰ اللون الأحمر المثير، في نفس اللحظة ووفقا لما هو متفق عليه، كان سالم يقفز داخل المحل فوق جسد البائع الذي فقد وعيه تماما، يفتح الصندوق، وأصابعه تنبش داخله في عصبية، وتوتر واضطراب تجمع النقود ورقية كانت أو معدنية يحشوا بها جيبه المتسع، مضىٰ الوقت بسرعة مثلما كان متفقا عليه قبلا، سادتهم حالة من الارتباك، لم يأبهوا أو يهتموا بذلك الشاب الصريع بقدر اهتمامهم ورغبتهم في القفز نحو السيارة الصافتة في الساحة الترابية المظلمة خلف الدكان مسرح الأحداث، كان عبدالله يهرول خلفهم يطمئنهم ويهدئ من روعهم ويطمئنهم أن المنطقة كانت خالية، لم يراهم أحد، وأن الخطة نفذت بنجاح كبير، انطلقت السيارة إلىٰ أبعد نقطة من الحادث، طفق سالم يحصىٰ النقود التي جمعها من الصندوق وكان حريصا رغم حالة الهلع التي تملكته، والاضطراب والارتباك الذين غشيا رأسه ساعتها علىٰ تنظيف الصندوق تماما، لكن الارتباك حال دون تنفيذ هذا الجزء من الخطة

بالدقة المطلوبة، صرخ مشعل فيهم بعد أن انتهوا من الإحصاء، وذكروا كمية النقود المسلوبة

«ما يصير هذا.. نذبح واحد عشان خمسين فقط»

قال سالم بعفوية بعد أن زال عنه الارتباك:

«كان فيه درج آخر مغلق، حاولت اكسره، لكن خشيت ياخد وقت ويبيجي أحد».

صاح عبدالله بحسرة

«هذا اللي فيه نقود اليوم كله.. ما مشكلة نفكر في التربيحة الأول وبعدين نتصرف».

ظلت السيارة تجول طول الليل، يحاول سائقها عبدالله قدر الإمكان الابتعاد عن كمائن الليل والشرطة المترصدة في الشوارع في هذه الساعات المتأخرة من الليل.

(4)

هواجس رهيبة

مغامرة الليل امتد صداها وتفاعلاتها حتىٰ الخيوط الأولىٰ لنهار اليوم التالي، سكت محرك السيارة الفورد أخيرا، صفت بجوار الرصيف قرب منزل عبدا لله، نزلوا يترنحون، يتمايلون من شدة التعب والإنهاك مثل أشجار تترنح بقوة عاصفة شديدة المراس، العيون شبه مغلقة، الثياب رثة، الوجوه جامدة، مطفأة، جزعة، مثل قوم خرجوا للتو من مقبرة، اختلطت رائحة العرق والملابس برطوبة الجو الساخن لدرجة أن من يصادفهم يشعر كأنه أمام كائنات لم تبرح الشارع منذ أمد طويل، السيقان وهنت، تضعضعت، كأنها ترتعش، ما عادت تتحمل أوزانهم النحيلة أصلا، فتح عبدالله لهم باب الديوانية المنزوية في ركن قصي من المنزل، منفصل وبعيدا عن مدخله الرئيسي حيث يمر أفراد العائلة، وحيث يوجد مصفت السيارات أيضا، قرر عبدالله اصطحابهم إلىٰ هذا المكان حيث لم يعد هناك بدائل أخرىٰ لدىٰ معظمهم في الأيام الأخيرة، كان الشرط مجرد الاستلقاء سويعات قليلة، ثم الاختفاء قبل سماع صوت الأقدام تقترب من الديوانية عقب صلاة العصر، حرص عبدالله دوما علىٰ الاستيقاظ مبكرا جدا، وإكراههم علىٰ الإفاقة والتبخر من المكان بسرعة قبل أن ينفضح أمر مبيتهم داخل الديوانية نتيجة لاحتجاجات والديه وإخوانه وموقفهم الغاضب من جراء سلوكياته الإدمانية، ورفضهم الشديد للأصدقاء

الـذين علـىٰ شـاكلته، في ليلـة وضـحاها اكتشـفوا أنهـم أصـبحوا مثـل الجرذان الصغيرة التي تبحـث عـن مـأوىٰ، أو مـلاذ وسـط كائنـات مـن أقاربهم وأصدقائهم يناصبونهم الحقد والعداء، والأكثر من ذلـك تلـك الحالة القاسية من مشاعر الدونيـة والـرفض والاحتقـار المهـين حينمـا يتسمعون همساتهم أو يصادفون إشاراتهم من خلف اقفيتهم التي تشي بالرفض وعدم الترحاب والرغبة القوية في التخلص منهم فـورا، كـانوا أكثر من منبوذين، وكأن هذا العالـم علىٰ اتساعه ضاق بهـم سـوىٰ تلـك البقعة الصغيرة حيث يتسللون إليها خفية ويرمـون أجسـادهم المنهكـة المؤرقـة لسـويعات قليلـة لا يـدرون عـن أنفسـهم شـيئا، قبـل أن يتنبـه عبدالله وينشط ليوقظهم بحدته المعروفة، عبدالله الوحيـد بيـنهم الـذي ما يزال يحتفظ ببعض الروابط مع والده وإخوانه علىٰ الرغم مـن كثـرة التشاجر بسبب سلوكه الادماني، أبوه رجل متسع الأفق والخيال، دائما يحاول حمايته ويتعشم في أن يتحول ويخـرج مـن دائـرة التعـاطي التـي يحـترق فيهـا منـذ سـنوات، لـم يجـد صـعوبة في أن يـبرر لعائلتـه لمـاذا يضطر لاستضافة بعض أصدقائه للمبيت في الديوانية كـل ليلـة، وافقـوا علىٰ مضض وبشرط انصرافهم قبل صلاة العصر.

لكن هذه الليلة ليست مثل كل ليلة منذ مجيئهم لهذا المكان منـذ عشـرة أيـام، كـان سـالم أكثـرهم قلقـا وانشـغالا، هـرع نحـو الريمـوت كونترول، فتح التلفاز، طفق يبحـث بـين المحطـات الفضـائية السـاهرة بدون وعي، أو تركيز، مخيلته لم تتمكن من التخلي عن منظـر الجسـد المسجىٰ للعامل داخل الدكان، والدماء تنـزف بغـزارة، كـان متهـوس، يثرثر كثيرا بانفلات واضح، دائما يردد لنفسه ولزملائه همسـات لعلهـا

تطمئنه عن أن الشاب في الغالب لم يمت، مجرد إصابة في الرأس، سوف يصبح بخير بعد إسعافه، يقول لنفسه ولهم، «مؤكد أن أحد الزبائن دخل الدكان وطلب له الإسعاف فورا»

كان مشعل أكثرهم ثباتا، وبرودا، أول مرة يلتحق بهم في هذا المكان عند عبدالله، ويستلقي جوارهم علىٰ الرغم من أن منزله خالي تقريبا سوىٰ والدته المريضة، أو علىٰ الأقل لم يعد أحد من إخوانه قابلا للسيطرة عليه، كما لم يعد أحد من إخوانه مكترثا به أصلا، لكن هذه المرة فضل الانضمام إليهم لأسباب كثيرة تخصه، أولها أن عبدالله كان عصبيا جدا بعد الحادث وقرر ألا يتركه علىٰ هذه الحالة وينصرف، كما أن عبدالله لم يكن مستعدا للقيام بتوصيل أحد لمنزله في تلك الليلة الصعبة المخيفة، أبلغهم بنبرة صوت زاعقة وحادة للغاية:

«من يريد الذهاب فليذهب بطريقته.. لن أوصل أحدا لمنزله».

لم يستطيع تركه علىٰ هذه الحالة من العصبية والجنون، والسبب الآخر رغبته في الاطمئنان، وضمان أن أحدا لن يتحدث في أمر ذلك الشاب المصروع الذي قتله في الدكان، انشغل باله كثيرا علىٰ ناصر، الوحيد بينهم الذي رفض الانضمام لهم وأصر علىٰ الانصراف، أشار إلىٰ تاكسي، واختفىٰ داخله بسرعة دون أن يلتفت إليهم، الوحيد الذي انصرف إلىٰ منزله في تلك الساعة المتأخرة من الليل، تساؤلات كثيرة ظلت تتصارع في رأسه وتتطاير مع دخان سيجارته الذي طفق ينفسه بقلق واضح «هل يمكن أن يخبر ناصر أحدا من أهله بما حدث الليلة؟

يعلم يقينا أن ناصر ضعيف الشخصية، لا يتحمل الضغوط سواء من أسرته أو غيرهم، لكن هل يمكن أن يورط نفسه؟! ظلت الأنفاس تتابع في الغرفة التي طفحت بالدخان والقلق والتساؤلات، أصابع سالم تدور بسرعة بين محطات التلفاز دون وعي، سكت الجميع، لم يسمع أحد منهم صوت المؤذن القوي الذي ارتفع يشق عنان السماء في هذا الوقت شديد الضوء والوضوح والحر يدعو الناس لصلاة الظهر، الطبعات المتأخرة من صحف الصباح في اليوم التالي طيرت الأخبار بسرعة، تصدرت صورة عامل البقالة بينما كان مسجيا على أرضية الدكان، والدماء الغزيرة النازفة تغطي رأسه، الثلث الأول من صفحات الحوادث الداخلية في جميع الصحف المحلية، كتبوا في سياق الخبر أن الشاب الأسيوي تم نقله لغرفة الرعاية الفائقة بالمستشفى، حالته الطبية حرجة للغاية، لم ينشغل بال مشعل في ذلك الوقت سوى بتدبير كمية كبيرة من المال لتغطية نفقات تعاطيه، عبدالله لم يوافقه على فكرة الاتصال بطلال زميلهم، ويعمل «ديلر» لحساب أحد تجار المخدرات لكي يوفر لهم كمية من المخدرات بأثمان معقولة، اقترح مشعل على عبدالله أن يتصل على طلال لكي يدبر لهم كمية من «الهيروين» يقومون بتصريفها لأصحابهم المتعاطين مقابل مبالغ من المال تكفي لتغطية نفقات معيشتهم وتعاطيهم، أخبره عبدالله بحسم «افعل أنت ما تشاء، عن نفسي لا أريد التورط في المزيد من المشاكل»

كانت أضواء الإنارة الباهتة تغطي الساحة التي جعلوها امتدادا للمقهى، وكانت أحجار الفحم تتوهج نارا واحمرارا في النراجيل

المنتشرة كالسرطان أمام مجالس الزبائن في ساحة المقهىٰ التي بدت مكتظة هذا المساء بالزبائن والدخان، وشاشات التليفزيون والعاب الفيديو المتوسطة والصغيرة علىٰ غير المعتاد في مثل ذلك الجو الحار الخانق برطوبته العالية، لم يكن مشعل مكترثا بشي قدر انشغاله بفكرة إقناع عبدالله بترويج المخدرات معه لتأمين الأموال اللازمة، عبدالله أصبح هدف حيوي بالنسبة لمشعل هذه الأيام، مازالت علاقة عبدالله مع أهله لم تتفسخ بعد، مازالت هناك ثمة روابط ورعاية من جانب أهله، وما يزال يستمتع بذلك الدفء العائلي الذي افتقده مشعل في وقت مبكر من حياته، بالإضافة إلىٰ أن عبدالله شخصية قوية مؤثرة، وصاحب سجل نظيف عند الشرطة وتجار الصنف، مشعل يريد شخص يحتمي فيه أو داخله، كما أن ثمة رغبة داخلية دفينة تدفعه لرؤية عبدالله في نفس موقفه الشخصي، وظروفه الحالية من التشرد والتشرذم وفقدان كل صله بالأهل والأقارب، ناهيك عن أن سمعته لم تعد بعد نظيفة عند رجال مباحث المخدرات الذين تنبهوا لمراقبة تحركاته في كثير من الأحيان، تم إيقافه والتحقيق معه عدة مرات، لكنه تمكن من النجاة بفضل فزع والدته إليه في الوقت المناسب، انضم إليهم ناصر في الجلسة، بدا شاحب الوجه، لون جلده يميل إلىٰ الاصفرار، اختلطت عباراته بالقلق والهلع، أخبرهم بما طالعه في صحف الصباح اليوم، وصورة الأسيوي المنشورة في جميع الصحف، صوته كان هامسا جدا، كأنما يختبئ داخل دخان النارجيلة الذي ينفسه عبدالله وقد نفذ صبره للتو هو الآخر من جراء إلحاح مشعل عليه بعرض ترويج المخدرات، التقطت أذن عبدالله بصعوبة ما قصده

ناصر، أخبره أنه يعلم كل شيء، الدكان قريب من المنزل وأحيط علما بكافة التفاصيل، أخبره أيضا أن الشرطة لن تعثر علىٰ دليل في مسرح الجريمة يدينهم، بذل مجهودا وافرا من أجل تهدئته، وتهدئة نفسه أيضا التي استشعر إنها ذاهبة إلىٰ مجهول غامض لن يطيقه، لم يتراجع هلع ناصر، كما لم ينس أيضا سؤالهم عن سهرة الليلة.

كانت أجواء الطقس في هذا المكان المفتوح تزداد سخونة واختناقا للدرجة التي لم يعد تنفع معها تلك الزخات التي تطلقها ريش المراوح الكهربائية الكبيرة المصوبة بإتقان نحو مواسير المياه ذات الثقوب الرفيعة؛ حيث يتسرسب الماء من فتحاتها الصغيرة ليضرب وجوه الزبائن بشيء من البرودة، لم يكن مشعل في مزاج انفعالي متزن علىٰ أي حال، خاصة عندما سمع للتو خبر نشر الحادثة في الصحف، انتفض فجأة واقفا وانصرف حتىٰ دون أن يستأذن من أحد، وكان عبدالله يقبض بعصبية واضحة بشفتيه وأسنانه نهاية خرطوم النارجيلة وقد توقف عن كشح الدخان تماما، عقب هذه الليلة لم يظهر مشعل مع الشلة ولا في ساحة المقهىٰ خلال الأيام الخمسة التالية.

أغلق تليفونه، لم يعد يذهب للمنزل أو يتصل علىٰ والدته المريضة أو يتواصل مع أحد من إخوانه وأخواته، ذهب عبدالله بعد يومين من نشر خبر الحادث في الصحف إلىٰ دكان البقالة يتحسس الأخبار، كان يقف شاب آخر بدين، اسمر، ملامحه أسيوية أيضا، كان يرتدي قميصا أزرقا غير نظيف ممزق من الأكتاف، يظهر رداء داخلي من خلفه متسخ للغاية، طلب منه عبدالله علبة سجائر وولاعة، امتدت

أصابعه وسحبت علبتين من العلكة المفضلة لديه، قال له وهو يمد له يده بالنقود «ايش لون الحادث اللي قرينا عنه في الجريدة»

جاهد الشاب في استخراج ألفاظا عربية صحيحة، الأمر الذي يوشي بحداثة عهده بالوصول إلىٰ البلاد، كان متأثرا للغاية قال «ما هو زين، صديق مات أمس بالمستشفىٰ، بوليس لسه ما فيه خبر»

كلماته صعقت عبدالله بشدة، سحب باقي النقود من يد الشاب، لم ينس أن يترك له ورقة نقود إضافية، أخبره بينما كان يقلب قفاه خارجا من الدكان أن هذه النقود الأخيرة تخصه، صورة الشاب الأسيوي القتيل، وأحداث تلك الليلة المشئومة التي انتهت بجريمة القتل لم تبرح ذهن عبدالله طوال الأيام التالية، أصبحت رأسه الضخمة التي اعتاد علىٰ تغطيتها بالغترة نهبا للأفكار والهواجس، بعدما كان يحرص دائما علىٰ التفنن في عمل أشكال مستحدثة في مظهر لبسه للغترة لزوم الكشخة والوجاهة، تدفعه وسامته الملحوظة علىٰ الاهتمام بمظهره وأناقته واختيار ثيابه بعناية كبيرة، كما أن شدة ولعه بالنساء، وعلاقاته المتشعبة معهن لدرجة الشغف بالولوج في إنجاز رقم قياسي في علاقاته النسائية يثير لديه دائما حالة من التباهي والفخر بهذه الإنجازات والتحدث عنها في مجالسه مع أصدقائه، كان عبدالله رغم انشغاله بأمور الإدمان لا يتردد أو ينشغل أبدا عن اهتمامه بمظهره وهندامه، أصبحت رأس عبدالله مؤخرا بعد حادث مقتل عامل البقالة مرتعا لأفكار متلاحقة، وهواجس مفزعة، أصبح شديد الحساسية لرجال البوليس والمباحث، يشعر معظم الوقت أنه مطارد، وفي أحيان كثيرة يرىٰ نفسه في أحلامه وخيالاته كأنه في السجن

المركـزي، يرتـدي أسـمال المسـاجين، ويتعـرض لإهانـات وشـتائم كثيـرة، ظـل علـىٰ هـذه الحالـة مـن الشـكوك والاضـطرابات ومشـاعر الترقب والتوجس والخوف مدة طويلة حتىٰ جاء اليوم الذي اضـطرب فيه أمر تعاطيه، واضطرب أمر انشغاله بالشلة، لم يعد يلتقيهم كثيرا، لم يعد يهتم بالتعاطي كثيرا، رغم إلحاح وجع الخرمة الشديد، والمثير للاستغراب والدهشة اتفاقه مع ناصر في أحد الأيام علىٰ الذهاب سويا إلىٰ مصحة علاج الإدمان، هذا الأمر حدث بالفعل، وأما سـالم فقـد اختفىٰ تماما وانقطعت أخباره عن الجميع.

(5)

في المقبرة

تدحرجت الأيام بسرعة أكثر مما ينبغي، استولت دواماتها على مشعل، تلاعبت به أمواجها وأنوائها شديدة المراس، تقطعت سبله وأخباره واتصالاته برفاقه منذ ظهر بينهم للمرة الأخيرة منذ عدة شهور فائتة، لم يعد مكترثا بالسؤال عن أحد، ولا حتى دفعه الفضول ذات مرة لتحسس آخر الأنباء بخصوص قضية مصرع عامل البقالة، انشغل بنفسه أصبح محتما عليه تدبير أمر شئون معيشته وتعاطيه بعيدا عن الاعتماد على آخرين، شعر كأن الدنيا بدأت تضيق الخناق عليه، كأنه محاصر حصارا لا فكاك منه، خنقة صدره لا تختلف كثيرا عن خنقة الدنيا حواليه وشعوره بالمرارة والوحدة وقسوة الاحتياج، تباعدت ساعات حاجته للطعام مثلما تباعدت ساعات حاجته للاختلاء بنفسه ومعرفة ما لذي يريده أو يبحث عنه بالتحديد، يمضي يومه مثل عقرب الساعة بلا توقف ولا هوادة، لا يتوقف إلا إذا عطب أحد التروس الداخلية، عندها يشعر بشدة الضعف والهوان، الآن يستلقي وحيدا مهملا في مكمنه بإحدى الحدائق العامة، وكان قد انتقى ركنا منزويا في مكان قصي داخل الحديقة العامة ملاذه ومأواه، تخطئه في الغالب عيون الفضوليين، كل مرة يفكر في حل مشكلة ما من مشاكله الكثيرة، ويقرر شيء، يجد نفسه مُسيّرٌ بطريقة آلية نحو قدر غامض لا يدرك كنهه، لم يعد يملك قرارًا، أو اختيارًا، لا يستطيع أن يتذكر منذ متى لم

يعد يتمتع برفاهية الاختيار، وأن يشارك في تحديد قدره ومصيره، يندفع بقوة غامضة مثل ثور معصوب العينين في ساقية المجهول، ونحو شيء مجهول، وبقوة دفع مجهولة أيضا، لا يستطيع التحكم في شيء، أدرك ذلك بوضوح في نفس اللحظة التي فر فيها من معسكر التدريب واختار الولوج إلىٰ المجهول، الآن لا يستطيع التوقف، مثل القطار الذي عطبت مكابحة فجأة، لم يعد قادر علىٰ السيطرة والتوقف قبل الاصطدام الكبير، انفلت كل شيء، شعوره بالعجز الكامل عن تصريف أموره جلب له القهر ومرارة الهزيمة والاكتئاب، من داخل مخبئة بالركن القصي داخل الحديقة تتواتر أنفاس السيجارة، يرسل دخانها للهواء المحبوس بفعل رطوبة الجو المرتفعة، كانت الأرض من تحته منخفضة بنحو ربع متر، مجرد حفرة من مخلفات مياه المطر الغزيرة أيام الشتاء، كانت مختبئة بين أشجار، وعشب طاله إهمال العمال وعدم اكتراثهم، ارتاح فيها واطمئن، أحاطته بخصوصية مميزة، يلجأ إليها آخر الليل محملا بأثقال اليوم ومغامراته، يتذكر أنه في أعقاب لقائه الأخير مع عبدالله وناصر ونتيجة لرفض عبدالله موافقته علىٰ ترويج المخدرات أنه اصبح بلا نقود، مفلسا تماما، اتخذ قرار جنوني بالذهاب إلىٰ المنزل، علم من الخادمة أن والدته مازالت بالمستشفىٰ، قرر حمل شاشة التليفزيون الجديد ال LD الذي ابتاعه أخوه الصغير عارف منذ أسبوعين اثنين فقط بينما كان في معسكر التدريب، تمكن من تفكيكه من أسلاكه، حمله إلىٰ سيارته، والخادمة تتابعه باحتجاجات متتالية عكسها صوتها الواهن الذي اختلط فيه أصوات العربية والإنجليزية وغيرها من لغات العالم، باعه بثمن

بخس؛ بضعة دنانير لا أكثر، لم يتسرب إليه أدنىٰ شعور بالندم، لم يهتم بتقديم تفسير أو تبرير لفعلته بعد أن لاحقه أخوه صاحب التليفزيون بمطاردته علىٰ هاتفه المحمول، في آخر اتصال طلب منه بإلحاح شديد أن يدله علىٰ الشخص الذي أخذ منه الشاشة وسوف ينقده الثمن الذي أخذه مشعل وزيادة، لم يكترث مشعل ولم يهتم بتوسلات أخوه، أصبح هدفه المحدد والواضح النقود وكيفية تدبيرها من أجل تعاطيه ومعيشته، نبش في ذاكرته، وفي الأزقة التي اعتاد التجوال فيها للحصول علىٰ جرعاته، لم يتوقف عن اللف والحملقة والسؤال، أخيرا التقاه، شخص ذو ملامح آسيوية يعرفه جيدا، قضىٰ منه كثيرا في السابق، وعلاقته طيبة معه، أخبره برغبته في توريد كمية من المخدرات يروجها بين الزملاء، وافق الشاب علىٰ ضمانته مع تحذير صريح وشديد اللهجة في حالة التلاعب، يعلم مشعل جيدا العواقب الوخيمة في حالة التلاعب مع هؤلاء، أقل شيء بتر الذراعين، أو القتل، دار بين رفاقه القدامىٰ، يبيع، وفي آخر اليوم يتبقىٰ له مبلغ يكفي تعاطيه وطعامه، أصبح يسير بسرعة علىٰ شفير خيط رفيع للغاية، ونار جهنم تستعر تحته، ولسوف يهبط مقذوفا مثل صخرة انشقت من فوق جبل كبير تهوي من أعلىٰ قمته لو اختل اتزانه أو انزلقت قدميه، دار مع الأيام، لم يلتق أو يتواصل من أي من رفاقه في جريمة القتل، لكن ظل دائما يرىٰ ملامح ذلك الشاب الأسيوي الذي صرعه في كل شخص غريب يتصل عليه يطلب تموينا، كان يموت في اليوم الواحد مائة مرة وهو يتنقل من شخص لآخر، وكان في كل مرة يرتجف قلبه حينما ينغزه شك مؤلم؛ ربما باع اليوم المخدرات لأحد رجال المباحث، قلبه المسكين انخلع

من سرعة الضربات المتواصلة، ومن القلق المزمن الذي أصبح صديقه اللدود، عيناه عجزتا عن الإغفاءة، أصبحتا بمثابة كشافات كهربائية مضاءة علىٰ الدوام ومستعصية علىٰ الانغلاق، يجد ملاذه قرب الفجر في تلك الحفرة بالحديقة العامة حاملا معه هيروينه وأدواته، ودخانه، ولا ينسىٰ وجبة العشاء، تكاد تكون وجبته الوحيدة علىٰ مدار اليوم، يشعر الآن بالتخدير، لكن ليس المزاج العالي المطلوب، وليس النشوة، ولا ذلك الشيء السحري الذي قاتل الدنيا من أجله وما يزال، تحول الأمر إلىٰ مجرد (سد خانة) كما اعتاد أن يقول لنفسه دائما في الآونة الأخيرة.

تذكر عودته المبكرة ذات يوم، ومثل المعتاد لجأ إلىٰ حفرته للمبيت، طفق يمارس طقوسه في تجهيز الجرعة وتعاطيها، كانت الأجواء في ذلك اليوم متميزة، الحديقة كانت مزدحمة بالأطفال، والعائلات، بدت متألقة مع الأطفال والزحام، وهرولة البائعين مثل أيام الأعياد، لم يستطيع أن يحدد المناسبة التي خرج لها الناس، كل ما أدركه وقتها أن الحديقة كانت فرحة للغاية بانفراجه نسمات الهواء الباردة أخيرا، تطايرت أوراق الشجر فرحة، تزهزه العشب الأخضر بجمال ألقه حين يبسط الخضار في كل مكان، ويكسو الأرض بروعة الجمال والحياة، كان هناك أطفال يركضون خلف كرة، وفوق بساط الحياة الأخضر، وبين الأشجار الباسقة المزهوة بالحياة والجمال، تابعت عيون مشعل المخدرة الأطفال الصغار الذين يركضون خلف الكرة، طفقت تحملق فيهم من بعيد، لكنها كانت عيون ميتة، عجز النسيم البارد عن إنعاشها، لم يدر في مخيلته علىٰ الإطلاق أن تكون له

أقدام مثل أقدام أولئك الأطفال، ولا صحة وحيوية حركة مثل صحتهم وحيويتهم وخفة حركتهم، شعر وهو يطالعهم بعيونه الجامدة المخدرة أنه شخص عاجز، ميت، يرقد في مقبرة منذ آلاف السنين، يطالع الأحياء الذين يركضون، ويندفعون، ويطمحون، ويستمتعون بخلاياهم التي تتدفق بالحياة، تمتم بعبارات سمعها العشب الذي يحتويه «أتمنىٰ أن أركض مثلهم، ألعب مثلهم، أفرح مثلهم»

لا يدري لماذا اقتحم ذاكرته في تلك اللحظة بالذات موقفا من طفولته لم تتمكن الحوادث والأيام والمرارات من إلغائه أو مسحه أو حجبه من ذاكرته علىٰ الإطلاق، ربما بسبب هول المفاجأة، وشدة الألم، وربما من شدة تأثيره المحبط علىٰ كيانه الذي تزلزل يومها، كان يركض مثل هؤلاء الأطفال بالكرة في المنزل، حضر أبوه من الخارج في هذا اليوم، كان غاضبا علىٰ ما يبدو، طفق يطيح بكل شيء يعترض طريقه، كان مشعل سعيدا، لا يلوي علىٰ شيء، يقذف الكرة بعيدا، وبقوة، لكن والده لم يكن كذلك، أمسك بالكرة البلاستيك التي مست ثوبه، هرع إلىٰ المطبخ مصحوبا بثورة غضب وانفعال غير مسبوقة، استل سكينا كبيرة، أعملها بقوة في الكرة البلاستيك حتىٰ تمزقت تماما، ثورة الغضب تتصاعد مع دهشة الطفل مشعل وبكائه محتجا، طفق والده يضربه بقسوة، بكل شيء تطوله يداه، مشعل الطفل يجري، ينزلق تحت السرير، يلوذ به من بطش أبوه غير المفهوم، أبوه ورائه يلاحقه، يحاول توصيل ضرباته المؤلمة، حتىٰ هذه اللحظة ما يزال سر هذه العلقة الساخنة مجهولا وغامضا، علىٰ الرغم من أثرها العميق، وذلك الجرح الدامي الذي خلفته داخله ولا يمكن أن يندمل

أبدا، ما تزال عيناه الميتتان ترقبان الأطفال الذين يركضون، والأمهات اللائي يجلسن في حلقة، تتناثر أمامهم عدة الشاي، وأطباق من البلاستيك مملؤة بالفاكهة والمكسرات، وعلب العصائر، كن يتحدثن ويستمتعن بالنميمة والهواء الرائع، بينما عينا مشعل ميتتين، ترقبان كل ذلك من بعيد، ولا تتذكر أي شيء سوىٰ تلك العلقة الساخنة ووالده الغاضب، بدأ مفعول الحقنة يعمل، التخدير يسري في أوصاله، والإغفاءة (قدره اللذيذ) خرجت تطارد تلك النسمة التي أضفت عليها الأشجار والعشب غير المهندم برودة رائعة تلك الليلة حتىٰ راح في نوبة نوم سحيقة داخل مقبرته، لكن دوام الحال من المحال، لا يعقل أن يظل مشعل في ضيافة تلك الحفرة المختبئة داخل الحديقة العامة إلىٰ الأبد، الإدمان عبارة عن كائن متوحش يعيش داخله، يتغلغل في خلاياه، يسري في دمه وكافة أوصاله كأنه يمده بإكسير الحياة كما أنه كائن متمرد، لا يشبع، لا يرتوي، في حالة نهم مستمر، مشعل يدرك جيدا أنه اصبح مضطرا لفعل أي شيء وكل شيء؛ من أجل ترويض ذلك الوحش داخله، ورغم ذلك فالوحش غير قابل للترويض، كذبوا عليه عندما أفهموه أنه قابل للترويض، وأن بإمكانه السيطرة عليه، بمعنىٰ السيطرة علىٰ سلوك تعاطيه، والتحكم في مقدار الجرعة التي تدخل جسده، وكذلك متىٰ يأخذها، سواء وقت هذه الجرعة أو توقيت حصوله عليها، هكذا أخبره نواف صديقه القديم الذي كان يجاوره في دكة الدرس في المدرسة المتوسطة، وشبا معا، نواف سبقه إلىٰ عالم التعاطي والادمان، ذات يوم طلب من زميل الدراسة مشعل أن يجرب هذا الشيء الذي سوف يدخله إلىٰ عالم السحر والجنون

المثير، ويخلصه من كافة متاعبه الشخصية التي كان نواف يخبرها عنه جيدا، لكن قلق مشعل من احتمالية تورطه في إدمان هذا الشيء وعدم قدرته علىٰ الاستغناء عنه لاحقا دفع نواف لأن يخبره، ويؤكد له أنه يمكنه التوقف في أي وقت عن تعاطيه من دون مشاكل، بل ويستطيع أيضا أن يحصل علىٰ جرعاته في الأوقات التي تناسبه، وبالكميات التي تناسبه أيضا، ولا مبرر من الهلع بخصوص أمر الإدمان، لم تمض شهور قليلة بعد حادثة تعاطي مشعل لأُولىٰ جرعاته من «الهيروين» حتىٰ سقط نواف صريعا نتيجة جرعة زائدة من «الهيروين» المخدر، كان مشعل بجواره، عاينه وقد دخل غيبوبة كاملة، كل خلايا جسده انطفأت فجأة، تخشب هيكله، كان معهم مجموعة من شلة التعاطي يتناوبون الحقن في إحدىٰ الخرائب المجاورة لمنطقة صناعية خارج المدينة، تركوه مسجيا في العراء، سن الابرة منغرس في باطن فخذه الأيمن، سالت دماء كثيرة قبل أن يقرروا ترك كل شيء علىٰ حاله والهرب من المسئولية ومن الموت ومن أنفسهم أيضا، استفاق علىٰ حقيقة موجعة جدا، وهي فقدان السيطرة علىٰ كل شيء، أصبح عبدا ذليلا لتلك الذرات من البودرة البنية أو البيضاء، اكتشف أن بإمكانه أن يستريح ويسترخىٰ بمجرد سماع اسمها يتردد بين رفاقه، اعتاد أن ينغم حروفها بموسيقىٰ تخلب وجدانه وتستثير شهوته وراحته، اكتشف أيضا أنه يستعيد اتزانه وراحته الجسدية والنفسية، يلمح بريق النشوة يومض أمام عينيه بمجرد رؤيته لظرف بودرة يتداوله رفاقه بينما يفرغون محتوياته ويقسمونها بينهم، أصبحت حياته كلها معلقة بالبودرة، يرىٰ كل شيء يتعلق بهذا الكيس الصغير وسياقه وإجراءات

التعاطي، كل شيء حوله أصبح مثيرا للهفة، ولذلك الوحش المتربص داخله، وباعثا حيويا علىٰ طلب الراحة والسكينة والنشوة، أيقن أخيرا أنه اختار طريقه المقدر له، ولن يستطيع تغيير هذا الطريق، لذلك لم يهتم بأخبار أصدقائه القدامىٰ، ولم يكن مستعدا للاستماع إلىٰ الأخبار التي وصلته بخصوص دخول عبدالله وناصر مصحة العلاج، كانت له دوما نظرة ساخرة في هذا الموضوع، كان يؤكد لجميع الأشخاص الذين علىٰ صلة بصديقيه والابتسامة العريضة المميزة تفوح من كافة جنباته ويظهر علىٰ إثرها ضخامة شفتيه وفمه المتسع، «سيقلبون قفاهم غدا، وين هايروحوا ويتركون المتعة والسحر»

يضحك كثيرا، ويضحك جميع من معه، ذات يوم كان يدور بين زبائنه، وكان الوقت في المساء وسيارته الكابريس الحمراء التي اشتراها مؤخرا بعد تيسر حاله نوعا ما تقطع الطريق بهدوء علىٰ غير المعتاد، توقف عند انحنائة الدوار الكبير، طفقت أنوار إشارات السيارة الخلفية تومض ومضات متقطعة تقطع الصمت وتعلن الوصول، ظهر من بعيد شبح شخص يترجل لا تظهر ملامحه بسهولة بسبب شدة الظلام، اتجه هذا الشخص نحو السيارة الكابريس الحمراء المنتظرة داخل منحنىٰ الدوار الخالي، فتح باب السيارة، دخل جوار مشعل، دقيقة واحدة مرت، فُتِح باب السيارة نصف فتحة، بمجرد أن هم الشخص بالخروج بعد أن تسلم شيئا كان عالقا في كف يده الأيسر اندفعت ثلاثة سيارات مدنية ظهرت في الميدان فجأة، كأن الأرض انشقت عنها لكي تحاصر سيارة مشعل، بنفس سرعة البرق اندفع ستة رجال لفظتهم تلك السيارات بطريقة مدهشة ومفاجأة نحو

مشعل، سحبوه بسرعة خارج السيارة، قيدوا حركته ويديه، استغرق تفتيش السيارة، وتصوير الواقعة بالكامل مجرد ثواني قبل أن يتم سحبها وتوقيف مشعل.

غادرت جميع السيارات المكان بنفس السرعة التي ظهرت بها، كان مشعل مشدوها، لم يفق بعد من دهشة الصدمة، كان جالسا في الكرسي الخلفي، شُلّتْ حركته تماما من فرط صدمة المفاجأة، وذلك القيد الحديدي الذي لم يتبين متىٰ حبسوا رسغيه داخله، ولا كيف وضعوه هكذا محشورا بين شخصين مفتولين، كتما أنفاسه، عصبا عيناه فلم يعد يرىٰ أو يسمع أو حتىٰ يتنفس، حدث المحظور الذي كان يتحسبه دائما، وكان يراه كثيرا في أحلامه، وحتىٰ يقظته، باع المخدرات لرجل مكافحة المخدرات، تم تسجيل الواقعة بالكامل صوت وصورة، سجلت أرقام النقود التي باع بها المخدرات لرجل المكافحة، كل شيء صار في اتجاه إدانته والزج به في غياهب السجن المركزي.

أخيراً... والسيارة تسير في اتجاه مبنىٰ مكافحة المخدرات لإنجاز إجراءات تسجيل محضر الضبط، وتسجيل القضية، انبجست أمامه بوضوح صورة أمه المريضة كأنها تطالعه، أو كأنه يناديها، ذرف دموعا غزيرة علىٰ حين غرة، طفق ينتحب بشدة، لم ينبس بشيء، والرجلين الذين يطبقان علىٰ صدره يتابعان الطريق غير مكترثين.

(6)

القاتل

بين ليلة وضحاها تبدل كل شيء، دهسته رحىٰ الأيام بين شقيها دون رحمة، واجه رجال أشداء شديدي القسوة، كانوا يبحثون عن أي شيء، وفي كل شيء، مضىٰ أياما ثقيلة في (النظارة) يتقلب علىٰ جميع الجوانب، لم يعد في جسده مكانا لم تزره قدم حديدية، أو كف ثقيل، أو شخابيط دقيقة دامية موشومة علىٰ صدره وظهره، واجه لأول مرة في حياته الهول الذي كان يتحدث عنه رفاقه الذين سبقوه إلىٰ زيارة النظارة، في لحظات الهدوء كان يتذكر مقولة (ليس من رأي مثل من سمع) أن تعيش الهول وتعايشه تجربة فريدة تتحفز لها كل خلاياك وأعضاءك الداخلية والخارجية، تظل رأسك تدور من فرط قوة النشاط والتحفز، وتضطر إلىٰ اغتراف كل معين المخ من الذكاء والألمعية والمناورة في تلك اللحظات من الهول حتىٰ تتمكن من الخروج الآمن من الفخاخ التي ينصبها لك أولئك الرجال القساة، وهؤلاء الدهاة الذين لا تفوتهم شاردة أو وارده، يتصيدون الخلجات، والتلميحات وإشارات الأطراف، وتوترات رموش العين، فتشوا في خلاياه، نبشوا تحت جلده، وبين ثنايا شعيرات رأسه القليلة التي أصابها الشيب في تلك الأيام العصيبة التي يعايشها للمرة الأولىٰ في حياته، نبشوا في دمه، استخرجوا الماء المرتعش في قاع خصيتيه يأبىٰ النزول السلس في «كونتينر» المختبر، وهن جسده، لم يعد قادرا علىٰ الصراخ، فقد قدرته

وطاقته علىٰ مجرد التنفيس عن ألمه أو غضبه، أو حتىٰ خوفه وهلعه عند سماع وقع أقدام ذلك الشخص القادم الذي سوف يسحبه إلىٰ غرفة التحقيقات والأسئلة، أدرك أنه بلغ مداه، استنفذ كل طاقات جسده وعقله ولم يعد يتحمل المزيد، توالت الأسئلة، تحرر اللسان أخيرا من أساطير وخرافات كانت تداعب رأسه طوال أيام وليال التحقيق والعذاب، أبطالها هم أصحابه الذين سبق لهم زيارة هذا المكان، عن مبلغ قوتهم وصمودهم، وحيلهم ومناوراتهم التي زعموا أنها كانت تنطلي علىٰ المحققين، هكذا كانوا يزعمون، ويحلفون أمامه دائما في جلسات الوناسة والمزاج، وهكذا رأىٰ نفسه، مجرد شخص ساذج وغبي، دخل في نسيج أوهامهم، وتلحف بها هكذا من دون تفكير، يعرفهم عن ظهر قلب، يعرف خباياهم، ويعرف أسرارهم، ويعرف نذالتهم أيضا، حتىٰ تفاصيل أجسادهم الضعيفة الواهنة، وكذلك أعضائهم الداخلية، يعرفها تماما، تيقن الآن تمام اليقين من عدم استطاعة أحدهم الصمود ولو لمدة ساعة واحدة، وليس لأيام وليال طويلة مثلما فعل هوه نفسه في تلك المحنة، وإذا كان هناك ثمة أساطير وحكايا فليكن هو بطلها وفارسها الهمام، صارح المحققين أخيرا بكل ما يعرفه، وبما لا يعرفه أيضا، لكن سمع عنه من أصدقائه، عاد إلىٰ محبسه ذليلا، منهارا، فاقدا القدرة علىٰ النطق أو حتىٰ الإشارة، استلقىٰ في مرقده، تمكن من النوم أخيرا، سبح في عالم غائم، لم يعد يدرك أو يشعر بشيء، أخيرا يستطيع اصطياد لحظات من الهدوء الذي كان محروما منه بسبب تلك الآلام التي كانت تعوي في كل جزء من جسده، وتنهشه بشدة، كان يطالع بعينيه الجاحظتين سقف

المحبس، لكن لا يرىٰ شيئا رغم اتساع الحدقات، وفنجلة العيون، كانت العيون ميتة، لم يتمكن من تمييز الأصوات الصاخبة من حوله لزملاء غرفته في المحبس، لأنه ببساطة لم يعد موجودا في واقعهم المضطرب، استشعر قشعريرة مفاجأة تمكنت من جنبات أحشائه، ومض في داخله علىٰ حين غرة فلاش فائق الوهج، رأي من داخل عينيه اللتين مازالتا تبرقان من غير حياة شبح الأسيوي عامل البقالة، كأنه يبتسم بينما كان يتلقىٰ الضربات المتواصلة علىٰ رأسه حتىٰ تفجر الدم، وانهار علىٰ أرضية الدكان، راح في شبه إغماءة، أو إغفاءه، فقط نسمات قليلة للغاية كانت تتصيدها أنفاسه الواهنة من هواء غرفة المحبس الضيقة، المكتظة بالمساجين، العبقة برائحة التبغ والعرق، ورائحة الملابس المتسخة، وتدخل صدره الواهن أيضا، لم يدرِ علىٰ وجه اليقين كم مضىٰ عليه من الوقت وهو علىٰ ذاك الحال، حتىٰ المساجين الآخرين في غرفة المحبس لا يستطيع أحدهم الجزم بالمدة التي بقىٰ عليها مشعل هكذا، إنهم يتغيرون بسرعة، رجال يذهبون، وآخرون جدد يحلون محلهم، عمليات تباديل وتوافيق مستمرة تحدث في تلك الغرفة الضيقة علىٰ مدار الساعة، كل ما تذكره أن يدا ثقيلة استفاقته من رقدته التي لم يعلم مداها، سحبته وكان شبه مغيب إلىٰ غرفة حجز أخرىٰ أقل ازدحاما، وأكثر نظافة وتنظيما، مكث فيها يوما كاملا، استمتع بوجبات من الطعام دسمة علىٰ غير المعتاد، كما استمتع أيضا بحمام دافئ أزاح عنه غبار الأيام الثقيلة التي قضاها في غرفة المحبس الأولىٰ وحتىٰ الأيام التي قبلها أيضا حيث كان يمضىٰ حياته في الحدائق العامة، أو مختبئا داخل سيارته التي كان يجوب بها

الشوارع خاصة الجانبية المظلمة، في اليوم التالي وقف أمام وكيل النائب العام، كان المكان هادئ، وكان المحقق الشاب يطالع في وجهه والأوراق أمامه علىٰ المكتب، سأله في الاتهامات والاعترافات التي أدلىٰ بها في المباحث، بذل جهدا كبيرا في إنكار كل شيء في البداية، واجهه الرجل بالمخدرات التي عثروا عليها في مخبأته، واجهه المحقق أنه يبيع المخدرات للشباب وفقا لما ورد في محاضر الضبط وتقارير المباحث واعترافاته هناك، تراجع عن كل ما قاله في المباحث، أبلغ وكيل النيابة أن تلك المخدرات يتعاطاها للاستخدام الشخصي فقط لا أكثر، إنه ليس سوىٰ شخص مريض وضعيف، يعاني من مرض الإدمان ويسعىٰ للخروج من هذا المرض، وأضاف أنه كان ينتوي دخول المستشفىٰ للعلاج قبل القاء القبض عليه بساعات، نظر المحقق إلىٰ عينيه الجاحظتين من تحت زجاج نظارته الطبية، طفق يتفحص ويستكشف عما وراء تلك الروح المستكينة التي بدا عليها مشعل، والتي ظهرت جلية منذ لحظة دخوله غرفة التحقيق، ونظرته المستكينة إلىٰ الأرض معظم الوقت، والتي كانت تتجادل بوهن مع نسيج موكيت أرضية غرفة وكيل النائب العام ذي اللون البني القاتم المطفأ، ومع أعماق الرجل ووجدانه، أملا في استفزاز مشاعره والسيطرة عليها، بدا حزينا، منكسرا، تصنع أو تقمص ثنايا شخص استغرق عمره وشبابه في التيه، ضائع في متاهات الدنيا، ظروفه العائلية دمرته، ليس بمقدوره السيطرة والتحكم في أمور حياته، بكىٰ بشدة علىٰ مستقبله الذي يتهاوىٰ ويضيع، التقت لأول مرة عيناه الدامعة بعيني المحقق الجامدة بعد رفعها من علىٰ سجاد موكيت الأرضية، في

محاولة أخيرة لاستلاب مشاعر الرجل والاستحواذ على قرار الإفراج والتخلص من هذه المشكلة، أخبره بصوت مختنق وعبارات تلفظ أنفاسها ودموع ساخنة غطت كل وجهه أن ما تبقى من مستقبله سوف ينهار بسبب هذه القضية التي لا دخل له فيها.

كان الرجل يطالع خلجاته من وراء زجاج نظارته الطبية السميك، واجهه حينا بالتحريات، وحينا آخر بالمخدرات المضبوطة داخل سيارته، وحينا بشهادة الضابط الذي حاول شراء المخدرات منه، كما عرض عليه تقارير تحريات المباحث حول نشاطه في الترويج للمخدرات والتربح منها باليوم وبالساعة، كذلك أبلغه وكيل النائب العام أن كمية الهروين التي تم ضبطه فيها كبيرة، أكثر من مجرد الاستعمال الشخصي كما يدعي، تصنع الانهيار، شعر بضيق الحلقة حول رقبته، دخل في نوبة بكاء شديدة على حين غره، وقع على الأرض فاقدا الوعي، قفز نحوه كاتب النيابة، واستدعوا آخرين من الخارج للمساعدة، أفاقوه برائحة سبراي نفاذة من العبوات المألوف وجودها في حقائب النساء والفتيات، أصر وكيل النيابة على استكمال التحقيق بعد أن هدأ من روعه، وواجهه كذلك بتقارير معمل الأدلة الجنائية، تحاليل فحص عينات البول والدم، كان دمائه وبوله ملبدين بالأفيونات على شاكلة الهروين، والحشيش، وكذلك حبوب من فصيلة المنومات، تشنج بعصبية، أدرك أنه سائر إلى قدره ومصيره في تلك اللحظة، وأنه اقترب كثيرا من بوابات السجن الذي طالما زاره في أحلامه، خاصة بعد قتله لعامل البقالة الباكستاني، امتدت أيام الحبس أسابيع طويلة، وكذلك تحقيقات النيابة، اصطحبت والدته محام

مشهور، وكان معها اثنين من أخواه، الكبير عويد والأصغر عارف المقرب جدا من مشعل والذي كان قد فاجأه منذ شهور قليلة ببيع شاشة تلفزيونه الجديدة لشراء المخدرات، ولم يستجيب لتوسلاته باستردادها بأي ثمن، لم يتركوه في محنته، ركضوا خلفه كثيرا في ردهات النيابة، وفي محبسه الاحتياطي، كانت والدته رغم المرض تلاحقه في كل مكان يذهب اليه، كانت تمضي بطولها الفارع وجسدها الممتلئ مصطحبة أشقائه رغم تبرمهم إلىٰ المحامي وقسم الشرطة والنيابة وكل مكان يتواجد فيه، بدت واهنة، شاحبة الوجه علىٰ الرغم من بياض لون البشرة الواضح، لكن تجاعيد الزمن ضربت وجهها الطيب، المرهق، وتعلن انتصار الزمن وضراوته، بل وقسوته الشديدة علىٰ هذه السيدة الجميلة، التي تركض الآن خلف ولدها العاق الذي أذاقها كافة صنوف المرارة وصور العقوق والجموح، خاصة بعد انهيار شكل الأسرة ومغادرة الزوج المنزل، طافت حوله في المخافر، وساحات النيابة، غير مبالية بصرخات قلبها الواهن الذي يئن داخل صدرها، وكانت قد اضطرت إلىٰ قطع مسيرة علاجها بمجرد ورود أخبار حبسه علىٰ ذمة قضية المخدرات، انتفضت حينها، مضت مهرولة في الطرقات، لا تغيب عيناها الذابلتان عن ظهر وقفا ولدها الذي يسحبونه من غرفة لغرفة، ومن طابق لآخر في عجالة ملحوظة، كانت ترىٰ فيه طفلها الصغير الجميل الضعيف، كأنه يلهوا مع أقرانه، أو دهمته نوبة بكاء بعد معركة غير متكافئة مع أقرانه في الشارع، فينخلع قلبها، تهرع إليه، تهدهده، وتسب هؤلاء الأطفال العفاريت الذي يضربونه، كانت تمضىٰ خلفه وعيناها تريان فيه مشعل الذي

ينفطر قلبها كلما رأته أمامها، وقد استطالت أنامله، أصبح يجذبها بقوة من إذنيها، لا تستطيع أن تتنبه لصرخات قلبها الآن، ولا إلىٰ أنفاسها التي تتحشرج حينا، وتتسارع حينا آخر تذكرها بخروجها المبكر من المستشفىٰ لمداواة قلبها العليل وإصرارها علىٰ ذلك، حتىٰ يأس طبيبها المعالج واستكتبها تعهدا وقعت عليه، إنها مسئولة عن حياتها، وإنها قررت الخروج بإرادتها الشخصية من المستشفىٰ رغما عن نصائح الأطباء وطلباتهم باستبقائها لتكمل علاجها، حاول إخوانه ممارسة كل أشكال الضغوط لاستبقائها علىٰ سرير المرض داخل المستشفىٰ، وإنهم سوف يدبرون أمر إخراجه من أزمته والقضية، وكان لديها إصرار لا يتزعزع، غريب وغريزي أيضا، تحدت قلبها الواهن، لم تقدر علىٰ تحمل فكرة أن تتمدد علىٰ سرير أبيض وولدها الشقي يواجه محنة شديدة البأس، كأنها كانت تعيش تلك المحنة بكل تفاصيلها، لا حظ مشعل تفاصيل كل ذلك وأكثر من خلال خبرته العميقة في قراءة عينيها الذابلتين بفعل المرض وشقاءها عليه، استمرأ هلعها ولهفتها، شعر بكثير من الطمأنينة وشعر أيضا بكثير من الراحة والإتناس، لم يهتم بطلبات إخوانه أن يقنع أمهم بالذهاب إلىٰ المستشفىٰ لاستكمال علاجها حفاظا علىٰ حياتها، علىٰ أن يتولوا بأنفسهم رعايته والاهتمام به حتىٰ يخرج من القضية، أكدوا عليه مرارا أن حالتها خطيرة، والأطباء غير متفائلين، الشيطان داخله كان حاضرا بقوة، تصنع ابتسامة خبيثة وشىٰ بها للجميع، سحب شقيقه الأكبر من يده مبتعدا به عن دائرة اللقاء العائلي في مبنىٰ النيابة، همس في أذنه:

«تريدون إبعاد أمي حتىٰ ترفع يدها عني، وتتخلصون مني في السجن»

امتعض شقيقة من الفكرة، نظر إليه بسخرية وغضب، أخبره أنه يتحمل مسئولية والدتهم، ولن يسلم منهم لو حدث لها مكروه، هكذا انفلت منهم، وهكذا رأي في إخوانه الذين لم يتركونه أبدا مجرد عصابة من المتآمرين، شياطين يتآمرون عليه، وينويان التخلص منه والفكاك من مشاكله والاستيلاء علىٰ ميراثه، تصنع الجزع علىٰ أمه، وتصنع القلق عليها أيضا، طفرت عيونه الجاحظة بدموع خبيثة مثل التي اعتاد ذرفها وقت الأزمات والمواقف الصعبة، أعلن بمنتهىٰ الخبث في مواجهة إخوانه وأمه أنه قلقا علىٰ صحتها ويتمنىٰ ألا تضغط علىٰ نفسها وتتكلف بالحضور مرة أخرىٰ، وتعود إلىٰ المستشفىٰ لمتابعة العلاج، لكن الذي حدث لاحقا أنه لم يتوقف علىٰ الشكوىٰ وسكب الدموع والانتحاب كلما عاودته، كما لم يتوقف عن طلب الاستغاثة منها كلما اقتربت منه، ولا مس كتفيها، يندفع بتهور مصطنع نحو كف يدها يلثمه في مشهد هستيري بالغ الحبكة، لوعة المرأة العجوز تزداد، تنهار عواطفها، يفيض دمع كثير، وتفيض مشاعر أكثر، يقترب القلب الواهن في داخلها من الانهيار والسكوت، يضرب أشقائه كفا بكف، تتصاعد شقة الهلع، والخوف علىٰ الأم المسكينة ضحية الولد الذي يصر أن يكون عاقا حتىٰ الثمالة، تتصاعد أيضا شقة الحقد، والغل علىٰ أخوهم الذي يقتل والدتهم أمام أعينهم بدم بارد.

إجراءات المحاكمة بدأت، القاعة صاخبة، والأيام صاخبة، الجميع يترقب، مشعل داخل القفص، يتسمع بانتباه شديد لمداخلات

ممثل الادعاء، والمحامين، والشهود، القاضي حاول التعاطف مع توسلاته بشأن مستقبله المهدد بالانهيار، وفي نهاية المطاف لم يكن بمقدور القاضي الاقتناع بما قرره المحامي المشهور، ولا بتلك النظرة الاستجدائية التي ارتسمت علىٰ وجه مشعل، مع قطرات من الدموع انهالت بغير براءة علىٰ وجنتيه المنتفختين، أدانته المحكمة استنادا إلىٰ كمية المخدرات الكبيرة المضبوطة بحوزته، وإلىٰ أقوال الشهود من رجال المباحث الذين باع لهم المخدرات، حكمت عليه بالسجن خمس سنوات مع غرامة مالية كبيرة، لم تتحمل العجوز الصدمة، كانت تجلس في آخر القاعة تتابع جلسة النطق بالحكم، كان يجلس جوارها شقيقاه وعلامات القلق لم تغادرهما، استندت علىٰ ذراع أحدهما، خرجوا بتباطؤ شديد من باب المحكمة إلىٰ المستشفىٰ رأسا، أخبرهم المحامي في الطريق، مازال هناك استئناف للحكم والأمل كبير في إلغائه وإصدار حكم جديد بإيداع مشعل مصحة الطب النفسي للعلاج من الإدمان وفقا لتقرير المعمل الجنائي، والدته لم تكن في حالة من الوعي أو التركيز لتستمع لهذا الحكي، أو يصلها شيء منه، كانت فاقدة الوعي تقريبا، أنفاسها مضطربة، متباطئة تكاد تختنق.

فرت السيارة بأقصىٰ سرعة يقودها شقيق مشعل الكبير عويد، يجلس في الخلف محمد الشقيق الثاني، كان يحتضن والدته بقوة، يستحثها علىٰ الصمود، صرخ بأعلىٰ صوته:

«أرجوك أمي اتركي الغيبوبة، احك معي»

ظل يردد آيات من المصحف الشريف، لم يتوقف عن الدعاء طوال رحلة السيارة حتىٰ حطت أمام المستشفىٰ، عاد مشعل إلىٰ محبسه مشغول البال، كأنه صدم بأحداث اليوم ومن قسوة الحكم، كان تفكيره مشوشا جدا، مطلوب منه الآن ترتيب شئونه الخاصة وفقا للواقع الجديد الذي هو السجن، ووفقا لحياة السجن الجديدة، علىٰ الرغم من بصيص الأمل الذي رماه به رفيقه في المحبس من إمكانية نجاته في جلسة الاستئناف علىٰ الحكم، والاكتفاء بإيداعه مستشفىٰ الطب النفسي للعلاج مدة ستة شهور، محاميه المشهور أخبره بذلك أيضا في قاعة المحاكمة وطمأنه قبل أن ينصرف إلىٰ حال سبيله، وهذا يبرر هبوب رياح الانفراج في أساريره، والابتسامة التي ارتسمت علىٰ شفتيه بعد عودته للمحبس، بعد نحو ساعتين كانت جلبة شديدة وضوضاء، ظهر أحد العساكر المكلفين بالحراسة يقترب من مشعل، أبلغه بحلول موعد رحيله إلىٰ مقره الدائم في السجن المركزي، طلب منه ترتيب أموره، موعد الرحيل خلال ساعة واحدة فقط.

(7)

الخروج

لـم يمكنـه تمـدد الأفـق واتسـاعه علىٰ حـوض بحـر الخلـيج مـن السيطرة علىٰ أعصابه المضطربة، استكانت الأمواج في هذه الزاوية من «الجون» وباتت مثل حيوان أليف تم ترويضه والسيطرة عليه بالكامل، بيد أنه عجز عن وقف تلك الأمواج المتـواترة المتشنجة التـي تثـور في داخلـه مشـبعة بـدفعات متدفقـة متتابعـة مـن النبضـات والومضـات الكهربائيـة المزعجـة، كانـت أضـواء المصـابيح البعيـدة المنتشرة علىٰ حواف الجزر المتداخلة مع مياه البحر تبدو مثل عناقيـد ذهبيـة متلألئـة بـالألوان التـي تخلـب الأبصـار، كانـت متراصـة بإتقـان تسكب ألـوان أضوائها الذهبية في تلك المياه الساكنة، السـاكتة، فتبـدو مـن بعيـد مثـل ثريات ينبعث منها ضوء باهت مثير، يفترش مياه الخلـيج التـي سـلبت منها الحياة، وبين أفق ساكت، ميت، وعيون ذابلة ملهوفة، تشتهي إبـرة مـن «الهيـروين» الآن حتـىٰ تـتمكن مـن الصـمود أمـام تلـك الأمـواج العاتية التي تضرب رأسه وأطرافه، شـرد عبـد الله في أفـق آخـر لا يحـده زمان أو مكان، تحجرت مقلتاه الواسعتان اللاتين اتضحا أنهما من غير حيـاة، وكانتـا مصـوبتان بحـدة مريبـة في اتجـاه الجـون، كأنهمـا ترقبـان الثريـات الذهبيـة البعيـدة الغارقـة في ميـاه البحـر، لكـن الأمـر لـم يكـن كذلك، فقد كانتا منشغلتان برغبـة محمومـة تكـاد تطـيح بمـا تبقـىٰ مـن رأسه في بلوغ آثار التخـديرة المريحـة اللذيـذة، خـرج عبـدالله لتـوه مـن

مصحة العلاج بعد أن قضىٰ المدة العلاجية المطلوبة «أربعة أسابيع» تضمنت سحب المخدر من جسده، وتأهيل نفسي جزئي يتمكن بمقتضاه من الصمود حتىٰ يلتحق ببرنامج تعافي في العيادات الخارجية بنفس المصحة، أو برنامجا آخرا من برامج الدعم الذاتي للجماعات المساندة خارج سياق مصحة العلاج، ويشرف عليها مدمنون سابقون ملتزمون ببرامج تعافي تخصصهم، يمدون يد المساعدة لآخرين علىٰ شاكلته ممن هم حديثي العهد بالتوقف عن التعاطي ولديهم الرغبة في التعافي، كان اليوم الأخير له في المصحة مميزا للغاية، كان مبتهجا وشغوفا، كما كان مرتبكا جدا أيضا، استغرق في التأمل داخله طويلا، كأنه يواجه الآن تلك المعضلة التي تواجه كل مدمن قرر أن يهب نفسه لآخرين مختلفين يعتقد في قدرتهم وإخلاصهم في مساعدته والخروج من مأزق الإدمان، أو هذا النوع من الاعتمادية المفرطة علىٰ مادة مخدرة، حيث يسوقه قدره إلىٰ اختزال رهيب لحياته الاجتماعية، والنفسية والروحية، تضيق الدائرة عليه مع مرور الوقت، يفقد كينونته تماما في نهاية المطاف، يرىٰ نفسه في حاجة إلىٰ كسر دائرة إدمانه واعتماده، وتوسيع رقعة حياته التي ضاقت واختنقت بفعل الانغماس في حياة التعاطي والإدمان، أيضا يرىٰ نفسه في حاجة إلىٰ الاستمرار في تلك الدائرة التي تسمىٰ «حياة الإدمان» حيث تفوح روائح النشوة المذهلة، والمغامرة التي تلهب الحماس والمشاعر، وتدفع المرء دوما إلىٰ حالة من اليقظة والانتباه، وترفع من مستوىٰ «الاستثارة» إلىٰ نقطة الذروة في زخم رائع يُشعِر المدمن بالحياة والوجود والتفرد وذلك مطلوب بشدة داخل ثنايا تركيبة شخصيته التي بلغت درجة من

الهشاشة والضعف ما جعلها تنسحب من الواقع، وتعتمد علىٰ مواد نفسية تدفع بها دفعا، أو تحشرها حشرا، داخل هذا الواقع المؤلم القاسي، أيضا يتجنب عن طريق تلك الدائرة الإدمانية الضيقة الشعور بالمسئولية وتبعاتها المؤلمة، حيث يصبح حرا طليقا، لا قيود تكبل يديه، أو سلاسل حديدية تغل رقبته وربما تكسرها، الشعور بالمسئولية لديه شر بغيض يسعىٰ دائما للفكاك منه بكل السبل، كما أن حياة الإدمان علىٰ وجه العموم تمنحه هذه الرفاهية بشدة، يواجه الآن معضلة كبيرة، أو صراع هائل بين قوىٰ متعارضة، لا يمكن الجزم أنها متكافئة، القوة الأعظم هي تلك القوة التي يكون عبدالله منحها وقت أكبر، داعما لها، ومتمتعا بكل ما منحته له من جراء اعتماديته المطلقة علىٰ «الهيروين» المخدر من مشاعر الانتشاء والتخدير، والمغامرات والمفاجآت، ومستويات الاستثارة النفسية المدهشة الباعثة علىٰ الحياة، والمنشطة لطاقاته كلها، وكذلك التحرر من مشاعر المسئولية البغيضة، وتبعاتها الثقيلة، أما القوة الأقل شأننا فدائما تكون قوة الرغبة في الخروج من الإدمان، وتكسير تلك الدائرة الإدمانية، وتشيُّد نمط حياتي جديد، مختلف في شكله ومضمونه، يهدف في الأساس إلىٰ إنهاء الاعتمادية تماما علىٰ المخدرات، وانجاز التمتع بالحياة الواقعية كما هي، بحلوها ومرها كما يتمتع بها غير المدمنين، وبما تتضمنه كذلك من تحمل مسئوليات الواقع، وعواقب هذه المسئوليات، واستعادة المدمن لكينونته وحياته الاجتماعية والنفسية، والروحية التي سُلِبت منه في زمن الإدمان وحياة التعاطي، هذه القوة دائما تلقىٰ دعما أقل ووقتا أقل، ورغبة أقل أيضا حينما يأتي وقت التصارع،

يتذكر أنه تردد عشرات المرات في السابق على مصحات للعلاج من دون نتيجة، ولم يتثنى له استكمال برنامج علاجي في واحدة من تلك المصحات العديدة التي مكث فيها بعض الوقت لإزالة السموم من جسده، كانت كل هذه المرات رضوخا لرغبات الأهل واسترضاءً لهم، يدرك أن هذا الصراع الكبير سوف يظل يعتمل داخله طيلة حياته، وبقدر انحيازه ودعمه وتأكيده على قوة قرار الخروج من الدائرة الإدمانية، وقوة الرغبة في التمتع بحياة الواقع الطبيعية، والتمتع بالإنجاز فيها، بقدر ما يظل ماضيا في طريقه، مستلهما الروح الجديدة، والميلاد الجديد في واقعه الجديد، وفي الإيمان، وإدراك أن تلك المفردات الواقعية التي يعايشها الآن، وتلك العلاقات الإنسانية الدافئة والحميمية، تمنحه مستويات من النشوة والاستثارة النفسية، والثقة الهائلة في نفسه وفي قدراته أضعاف ما كان يجنيه من جراء ولوجه في دائرة الإدمان المعطِلة، المعوِقة، لكنه يدرك أيضا أنه ما يزال بعيدا عن تحقيق هذه الأمنية التي أزعجه بها صفاء الجو، وهدوء المياه الجميل، خرج قبل ظهر اليوم من مصحة العلاج، اصطحبه شقيقه الأصغر في سيارته ومضى مباشرة نحو المنزل، كان مبتهجا جدا، ومتشوقا جدا، ومرتبكا جدا أيضا.

لاحظ محمد هذا الارتباك الذي وشى به وجهه بعد السلام والتقبيل وفرحة الخروج وركوب السيارة للعودة للمنزل، حاول الاستفهام، عبد الله لم يهتم بسؤال شقيقه محمد، ثبتت عيناه، تكاد تخترق زجاج السيارة الأمامي تطالع الشوارع والسيارات والناس، عبثت أصابعه بعفوية في مفاتيح

مذياع السيارة تغير الأغنية التي يستمع لها محمد، يبدو أن تلك الحركة كانت آخر عهد له بما يجرىٰ في السيارة، هاجمته نوبة شرود هائلة، حادة، أنهت علاقته بمحمد، والسيارة والشوارع، وواجهات المحال التي تفر بسرعة خلال زجاج السيارة، وكذلك صوت الموسيقىٰ الصاخبة التي غير لها المحطة حالا، ظل الأمر كذلك حتىٰ صفت السيارة أمام المنزل، لم يتمهل حتىٰ يخرج محمد من السيارة ويدخلا المنزل سويا، بمجرد أن لامست قديمة الأرض حتىٰ شعر أنه يريد أن يقفز، يريد أن يحتضن كل شيء غاب عنه طيلة الفترة الماضية، بداية من بوابة البيت الحديدية الكبيرة ذات الطلاء الأسود الباهت التي لم تكن موصدة مثل العادة في هذا الوقت من النهار كأنها تهيأت لاستقباله، باب الدخول المصنوع من الخشب الزان ذي اللون الأحمر الكالح ما يزال بعافيته ويبتسم له، وما تزال رسوم الأشكال الأرابيسكية المتداخلة، والمتشابكة التي تمنح الباب قدرا عظيما من المهابة والرزانة والمتانة تلقىٰ له بالتحية الرقيقة، وكذلك الحال بالنسبة لأسوار المنزل، وجدرانه ذات الطلاء السيموني الباهت، وهواء الدار، كل ذلك اشتاق لنسماته، ورائحته المميزة التي تمر عبر أنفه الأفطس الذي يزعجه مظهره كثيرا، بكلوة يده اليمنىٰ تتابعت ضرباته مزعجة علىٰ الباب، لم يتوقف حتىٰ بعد أن انفتح عن وجه الخادمة الأسيوية الشابة النحيلة، القصيرة، ذات الملامح الجذابة المميزة، أفسحت له الطريق بسرعة، اكتسىٰ وجهها الصغير

بابتسامة عريضة، وفرحة غشت جل أنامل وجهها بملامحه الدقيقة، كان محمد يمضىٰ ورائه غير مكترث، توجه مباشرة إلىٰ غرفته بعد أن أدىٰ المهمة التي كلفته بها أمه علىٰ أتم وجه، لم يكن اللقاء مع الوالدة مشوبا بالعواطف والانفعالات الجياشة فحسب، بل امتلأت الغرفة بسحب العتاب الكثيفة، واللوم الشديد علىٰ سلوكه الذي انحرف عن تقاليد وأعراف العائلة الكبيرة المحافظة، ذكرته بمدىٰ شذوذه عن الدائرة التي يحلق فيها إخوانه الخمسة، وحتىٰ أخواته البنات الثلاثة، لم يتمكن من قمع دموع كثيرة انهمرت، كما لم يتمكن من عدم الإفصاح عن مشاعر الندم التي تقتله حيال أيامه الماضية، زعم لها ولنفسه أن ما يعتمل داخله الآن سوف يكون وقوده للتوبة والعودة للطريق القويم، توجهت العجوز ببصرها نحو سقف الغرفة، لم تتصيد عيناها زخارف الجبس التي يزدان بها السقف المرتفع، ولا النجفة الكبيرة التي تتوسطه، بل تجلت أمامها السماوات المفتوحة الممتدة تخطف بصرها، وترسل همسها الذي لم يسمعه عبدالله إلىٰ ما وراء ذلك الأفق الذي ينتهي عنده بصرها المحدود، فهي تشتاق، بل وتتلهف بشغف لا حدود له إلىٰ أن يأتي ذلك اليوم الذي يشفىٰ فيه عبدا الله من إدمانه ويعود إلىٰ سابق عهده قويا، جميلا ومسئولا، لم يستوعب عبدالله نظرتها الزائغة لسقف الغرفة، كما لم تتمكن مخيلته المحدودة من استيعاب الإشارات التي وشت بها تلك القطرات من الدمع التي انثالت علىٰ جبينها فجأة، ولا هذه

النظرة الطويلة الزائغة لسقف الغرفة، وكذلك تلك الهمهمات غير المفهومة التي نطق بها صدرها المتهدج الذي أرهقته تلك الأورام الدقيقة المختبئة داخل تلافيف الرئة اليسرىٰ تنغص عليها أيامها الباقية، وتحشر الهواء الرباني في صدرها، تحاول منعه من المرور قدر المستطاع، كل ما تذكره بعد أن قرر مغادرة غرفة والدته والذهاب للراحة في غرفته وزوجته، أنه لم يتمالك نفسه من الانخراط في نوبة قوية من البكاء الشديد، والتمسك بقوة بكف يدها المعروق، يلثمه بشغف منفلت، ووجنتاه مغمورتان بدموع سخية تنهمر بغزارة، ولم يتبين كيف حدث ذلك، لم تكن أم عبد الله مجرد شخصية قوية متحكمة ومسيطرة علىٰ مقاليد شئون منزلها وأولادها فحسب، بل كانت مثل الشمس، يشع نورها ودفئها في كل ركن من أركان وتفاصيل المنزل، كانت تملك ذكاء لامعا، ووعيا لافتا علىٰ الرغم من بساطة تعليمها النظامي الذي توقف عند المرحلة الابتدائية، لكنها اهتمت بحفظ القرآن الكريم ودراسة معانيه في أماكن الدرس الخاصة بالنساء، ثم كان لديها ولعا مميزا بالشئون العامة في السياسة والاقتصاد ومتابعة نشرات الأخبار علىٰ مختلف القنوات الفضائية، الأمر الذي جعل ظهورها في أي مجلس أو محفل مثيرا للانتباه والتحفز والتشوق لسماع أفكارها في القضايا العامة والخاصة، لم يكن زوجها فواز والد عبد الله بالشخصية الضعيفة الخانعة، علىٰ العكس كان قوي الشكيمة، عنيد جدا، لا يقبل الخلاف في الرأي، لكن انشغالاته

الكثيرة بسبب طبيعة أعماله التجارية لم تتيح له الوقت الكافي للاندماج مع أولاده، أو تفهم اهتماماتهم وانشغالاتهم، ترك كل شيء إلىٰ شمس البيت الساطعة، التي تلقفت الكرة ودارت كالنحلة تسعىٰ إلىٰ مدارسهم ودروسهم، تلبي كافة مطالبهم واحتياجاتهم، وتتابع أصدقائهم، أنفها الكبير المميز كان مغروسا في تفاصيل كراساتهم، وأقلامهم وغرفهم، وحتىٰ شرائط الكاسيت التي يديرونها في كاسيتاتهم داخل غرفهم، فواز يتابع من بعيد، ينسحب بالتدريج، رويدا رويدا، حتىٰ ضبط نفسه ذات يوم وقد أصبح مجرد حاضنا، وحضنا دافئا لأولاده، يقيهم عواقب غضب زوجته المستطير وشراستها أحيانا.

(8)

فيحاء الجميلة

إنها تلك الموجة العاتية من الاشتياق واللهفة للتعاطي التي دهمته فور خروجه من مصحة العلاج، في البداية لم تكن بتلك الحدة من الضغط والقهر، شعر عبدالله بها بمجرد أن أخبره الممرض المسئول بالجناح أن عليه أن يجهز أغراضه فقد حان وقت خروجه، بدأ يشعر بعدم الراحة، والقلق، والرغبة في هرش جلد ذراعيه، أيضا انتابته حالة غير متوقعة من الانبساط والفرحة علىٰ الرغم من مشاعر عدم الراحة التي داهمته، وأخيرا ضبط نفسه متلبسا بمحاولات الاقتراب من زملائه الذين تعمد الابتعاد عنهم طيلة فترة وجوده في المصحة، وكذلك يطلب أرقام هواتفهم، وهواتف أصدقاء لهم في الخارج، شعر بالمسافة القصيرة التي قطعها بصحبة الممرض المسئول عن تسليمه لأقاربه، وفقا لإجراءات الخروج والتي سارها علىٰ قدميه من غرفته الذي كان محتجزا فيها بالطابق الثالث وحتىٰ مكتب العلاقات العامة لإنهاء إجراءات الخروج، شعر بها طويلة للغاية وممطوطة، خلالها التهبت درجة حرارة رأسه إلىٰ حدها الأقصىٰ بفعل تلك الأفكار التي تقافزت وتصارعت فجأة في رأسه، تكاد تبوح برغبتها العارمة في طلب الراحة والهدوء والسكينة، وأن مجرد «إبرة» واحدة فقط تدفع به إلىٰ الترييحة المنشودة.

لم يكن وقتها في حالة انفعالية أو عقليه تسمح له بإدراك كيفية فتح القفص لتلك الأفكار المتوحشة في رأسه كي تفترسه في تلك اللحظة، كما لم يستطيع أن يمهل نفسه الفرصة للتفكير في الربط بين انفتاح بوابة الخروج من المصحة في وجهه، وبين انفتاح باب القفص الذي كان يمنع عنه تلك الوحوش الضارية من الأفكار في رأسه، وضغوط اللهفة الرهيبة للتعاطي والعودة للمخدرات من جديد، لكن الذي حدث لاحقا أن كل شيء هدأ عندما لمح من بعيد شبح شقيقه محمد من ظهره، كان يجلس في قاعة الانتظار مع موظف العلاقات العامة، يدخن سيجارته، شعر عبدالله ساعتها كأنما ردت إليه سكينته وراحته، واطمأن أكثر حينما دخل في حضنه وأطبق عليه بذراعيه القويين لأول مرة منذ سنوات بعيدة خلت، هكذا ظهرت العلامات، لم يتنبه لها في البداية على الرغم من تعرفه عليها بواسطة المعالج النفسي في المحاضرات النفس التثقيفية التي كان يتلقاها في المصحة مع زملائه، بمجرد أن انفتح أمامه باب الخروج من المستشفى تبدل كل شيء داخله وخارجه، كأنه أصبح شخص آخر لا علاقة له بالشخص الذي ظل يعاني مدة أربعة أسابيع داخل الجناح، يتلمس طريقا للشفاء، والخروج من تلك الدائرة التي أرهقته وأضاعت سنين عمره، انتابته حالة فريدة من المرح والنزق عكست غليانا هوسويا داخله، مزيج من الفرحة المنفلتة، والنشوة التي استعر أجيجها شوقا بينما كان يسير بصحبة الممرض المسئول عن تسليمه لأخيه في مكتب العلاقات العامة، خلال تلك المسافة بين الجناح حيث كان محتجزا، ومكتب العلاقات العامة حيث كان أخوه في انتظاره، عنت له أشياء

كثيرة هربت من رأسه إلىٰ رأس الممرض فارع الطول صاحب القوام الممشوق الذي لم يعتد علىٰ سماع تلك النوعية من النكات الجريئة تصدر عن عبدالله قبلا، كما خرجت ضحكات وصيحات خافتة نزقة علىٰ مواقف حدثت مع زملائه بالجناح لم يتصور الممرض أن عبدالله سوف يطرحها في هذا الوقت وهذا المكان بتلك الأريحية والسهولة، ولا بتلك النظرة الزائغة المشتهية، الأمر الذي أعلنه له الممرض المحترف مستغربا بينما كانا يقتربان من مكتب العلاقات العامة لإنهاء إجراءات خروجه من المستشفىٰ قائلا «يبدو أن الكبت اللي كنت عايش فيه أنشال من عليك».

لم يخطر ببال عبد الله وهو في تلك الحالة أن يتنبه أن تلك الأفكار والتداعيات التي تهاجمه الآن مجرد نذر إشارية محذرة من الانتكاس والعودة بشوق للتعاطي من جديد، كان مع تلك الحالة من المرح والنشوة والانفلات الشعوري زائغ البصر، مشوش الفكر، داهمته حالة غريبة غير محددة من الخوف والقلق، تقلبت داخله مشاعر غامضة غير محددة الوظيفة والهدف، تارة يشعر بنشوة الفرح والحرية والانطلاق، وتارة أخرىٰ يدخل في دوامة مبهمة من الحزن الغامض، تنكمش مشاعر داخله المضطربة، ولا يتمكن من الإفاقة منها، ظهرت أمامه خيالات «التربيحة» والرغبة في الاستلقاء والاسترخاء «وعمل الدماغ» هذا الأمر ربما كان يستمر طويلا لو ابتعدت المسافة بينه وبين شقيقه الجالس في انتظاره لكي يتسلمه ويُسلِمه لوالدتهم القوية الشكيمة، لكن الذي حدث أن كل تلك الأفكار والمشاعر تبخرت بسرعة فجأة، حينما وجد نفسه يحتضن

شقيقه الأصغر، الذي ظهر لكي يخلصه من هذا الاحتباس غير المريح، كان حضنا طويلا، وبقوة لا يتذكر أنه فعلها مع شقيقه منذ سنوات طويلة خلت، استمتعا معا بالصحبة لدقائق قبل أن يختفيا داخل سيارة شقيقه ويذهبان إلىٰ البيت بأقصىٰ سرعة.

عادت حالة المرح والنزق تجثم علىٰ صدره ثانية، بينما كانت المباني والسيارات وإسفلت الشارع الأسود تفر بسرعة أمام عيناه اللتان زاغتا من جديد، راحتا تتفحصان أعماقا خبيئة علىٰ شقيقه الذي أخذته نشوة دهس كباس البنزين، وانطلاق السيارة بسرعة جنونية، ونكهة نيكوتين السجائر الذي ملأ كابينة السيارة وصدر الرجلين، وقد اتسعت مسافة أو شقة الأفكار والمشاعر والتوقعات بينهما في تلك اللحظة الفريدة، تحركت أنامل عبدالله نحو كاسيت السيارة تسكت الصوت المنبعث، طفقت تبحث عن صوت آخر أكثر حرارة وحيوية ومرحا، عثر علىٰ ضالته، ارتفع الصوت يناطح السماء، والشوارع التي تفر، امتعض شقيقه قليلا لكنه لم ينبس، مع صوت الموسيقىٰ الصاخب والمغنىٰ الحالم، وجد عبدالله نفسه يسبح في فضاء زاهي، متورد بالحيوية، سخي بالنشوة واستعادة أحلىٰ الذكريات والوجوه والمواقف المريحة، محمد صاحب السيارة يدور بمقودها، وعيناه تمسحان الشوارع، لا يدري أنه خرج تماما من دائرة وعي شقيقه عبدالله الرابض جواره ينفث سيجارته باشتهاء غير اعتيادي، وقد زاغت نظراته في عالم حالم غير محدد، لا علاقة له بالسيارة التي تفر، ولا بالناس الذين يمرون في الشوارع يبحثون عن ملاذ، وعن لقمة عيش بسيطة تسد الرمق علىٰ شاكلة عامل البقالة الذي اشترك مع

زملائه في قتله منذ شهور، حاول قدر جهده تنفيذ تعليمات المعالج النفسي المتعلقة بكيفية التعامل مع أعراض اللهفة للتعاطي وعلاماتها المنذرة بالانتكاس والعودة للتعاطي من جديد، لكن تواتر موجات الاشتياق وشدة شكيمتها كانت فوق مستوىٰ احتماله، لم يكن يتصور أن الأمر سوف يكون صعبا وشاقا إلىٰ هذه الدرجة، ظن طوال فترة تعاطيه أن بإمكانه التوقف في أي لحظة يبتغيها، كان يردد مع نفسه دائما تلك العبارة «في اللحظة التي أقرر فيها التوقف سوف يكون كل شيء علىٰ ما يرام» لكن مع مرور الأيام والشهور والسنين تبين له أنه غرق في مستنقع بعيد الغور، وأن خروجه منه يتطلب معجزة حقيقية علىٰ غرار تلك المعجزات التي منحها الله للأنبياء وحدهم.

بعد لقائه بوالدته وخروجه من غرفتها غارقا في دموعه شعر بحاله، كأنه مثل جبل شامخ تتفتت أوصاله، وتضرب الشقوق الطولية والعرضية أحشائه من دون رحمة، تخرج احشائه من داخل أعماقه السحيقة مفتتة أو مطحونة، تنفلت من أعلىٰ، منحدرة بأقصىٰ قوة للجاذبية لتستقر كومة عظيمة من التراب الناعم، مشاعره ممزقة، شريط أفكاره المضطرب يرجع بسرعة للخلف، حيث الترييحة، واستعادة الاتزان المختل الآن، هرع إلىٰ غرفته، دفع بابها بقوة، تحول، كأنه أصبح شخص آخر غير الشخص الذي عاد من المستشفىٰ توا، ملهوف علىٰ شيء ما، ربما يكون مندسا بين ثنايا فراشه الذي رتبته الخادمة الأسيوية بعناية بالغة أو عالقا في أحد أركان خزانة الملابس المتخمة بالأركان والثنايا، أو مختبئا داخل فردة حذاء قديمة ألقيت بإهمال تحت السرير أو مدسوسا في جيب إحدىٰ الجلاليب

المعلقة داخل الخزانة، نبش في كل ركن من أركان الغرفة التي حرصت والدته باهتمام علىٰ أن تكون نظيفة ومرتبة في استقباله يوم خروجه من المصحة، كان كلما فشل في العثور علىٰ هيروين في ثنية من الثنايا التي نبشها بلهفة يشتاط غضبا وانفعالا وارتباكا أيضا، ظل علىٰ هذه الحالة من الانشغال بالعثور علىٰ شيء يريحه حتىٰ دخلت عليه الخادمة بخفتها المعهودة تخبره أن الجميع بانتظاره علىٰ مائدة الغداء وعليه أن يكون بينهم الآن، هبط الدرج خلفها، ارتسمت علىٰ وجهه ملامح الوجوم والغضب، فات علىٰ المائدة، تطلع للمعقد الفارغ بجوار والدته حيث أشارت إليه بكفها العريض، لم يكن أبوه موجودا بحكم المعتاد، اقتصرت الجلسة عليه ووالدته ومحمد الذي انشغل بالتهام الأزر أكثر من أي شيء آخر، اضطر للجلوس، لم تلمح عيناه ثمة صحون، ومياه وفواكه، بل فراغ كئيب متسع ينخر في أحشائه ويستحثه علىٰ المضي في فضائه، قفز فجأة، لم تتعامل يداه مع صحون المائدة، تبعثرت مفردات غير مفهومة من فمه وتطايرت في فضاء المائدة، متكررة، محشوة بالغمغمة والغموض، أشبه بكلام ببغاء حبيس، عينا والدته التي تعلقت بخلجاته توجست قلقا وخوفا وانشغالا، استفسرت بلهفة وعلىٰ استحياء «مالك عبدا لله، فيك شيء؟» لم يعبأ، لم تتوقف أسطوانة لسانه المشروخة التي عملت بمجرد استلقائه علىٰ مقعد المائدة «أكلت في المستشفىٰ مع الشباب، ما بدي الآن» كان من الواضح أنه قد هيأ نفسه للخروج، غير ثوبه بآخر يلمع من فرط نصوع البياض والنظافة، والغترة منسوجة من قماش مخملي خاص، ملفوفة بطريقة مميزة مبهرة، تلك الطريقة التي تلفت

أنظار الفتيات، وتخز أعينهن دائما في المجمعات التجارية الكبرى، خاصة حينما يتصدر الجلسة في المقهى، ومبسم الشيشة يقترب من فمه، وعيناه الزائغتان تطالعان من قريب ومن بعيد أيضا الحسناوات وهن يتخطفن النظرات والابتسامات، وتلقى أرقام هواتف على أرضية المول التجاري الرخامية شديدة النظافة، بادرها وهو ينتصب واقفا غير مكترث بالطعام ولا بذلك الوجدان الملهوف المتشكك الذي تملك عيون والدته الخبيرة بخلجاته، كأنها تطالع تفاصيل لحظة تصدعه وانهياره، عاجزة في نفس الوقت عن منع ذلك التصدع من أن يصل إلى مداه، ولا بقطرات العرق الرفيعة التي سالت على جبينه دون أن يلاحظها هو نفسه، وطفق يغمغم وهو في طريقه نحو الباب

«ذاهب إلى الحلاق أسوي وها تمشى شوية بالسيارة على الخليج» قال ذلك بوجدان مسطح لا يشي بأي انفعال أو عاطفة، تسلل تاركهم خلفه دون أن يقوى على التراجع، كان دكان الحلاق صاخبا بالأضواء المبهرة المنعكسة من المرايا اللامعة المتراصة، والتي تبتلع جنبات المحل المحكوم بمساحته الضيقة في زاوية الشارع وعلى مسافة خطوات من دكان البقالة الذي شهد لحظة تهوره وزملائه وقتلهم عامله الأسيوي وسرقة النقود، كما كان صاخبا أيضا بالصوت المنبعث من شاشة التلفاز المسطحة (إل سي دي) المعلقة في الواجهة المقابلة لمقعد الحلاقة في منتصف المسافة تقريبا بين حافة المرايا والسقف بحيث يتمكن الجالس للحلاقة من رؤية صورة التلفاز مباشرة أمامه أو منعكسة على صفحة المرآة أمامه أيضا، لكنه لم يكن مهتما بكل ذلك، بل ربما لم يعايش ذلك الصخب الذي

افتعله عامل الحلاقة الذي تشي ملامحه بالثقة في مهارته وحرفيته، واقترابه الواضح من عبدالله زبونه القديم الدائم، لم يكترث بشكل كاف بعبارات وابتسامات الترحيب التي تدفقت باللهجة اللبنانية المميزة من فم عامل الحلاقة فور دخوله المحل، بمثل عدم اكتراثه بكل هذا الصخب المفتعل داخل الدكان سواء بالصوت أو بالضوء، كان الصخب داخل نفسه أشد ضراوة، أخرج تليفونه عدة مرات بعد أن حبسه الحلاق داخل المريلة البيضاء، طفق يقص في شعر رأسه الذي استطال وأصبح مثل نجيله مهملة طال عليها الزمن دون عناية أو تشذيب، كان يمنىٰ نفسه باتصال عابر يأتيه من أحد الرفاق القدامىٰ، فكر كثيرا في مشعل، رآه في خيالاته التي تراقصت أمامه، خاصة بعد أن دلف إلىٰ غرفته وظل ينبش فيها لعله يصيد شيئا من آثار الماضي، لكن خاب رجائه، كانت أخبار القبض علىٰ مشعل قد بلغته من أصدقاء مشتركين قدموا للعلاج بينما كان بالمصحة، لكن هناك أرقام لهواتف دونها في ليلته الأخيرة مع زملائه بالجناح، مع زحف حواف المقص اللامعة المسنونة تنهش في شعره طولا وعرضا، ونكات العامل اللبناني التي لم يكترث لها.

دخل المحل شاب أسيوي نحيل اقترب من أذنه كثيرا، أبلغه أن ثمة سيدة داخل سيارة خارج المحل تريده الآن، انتفض بسرعة، استفاق من أفكاره وصراعاته وهمومه، كأنه تلمس طوق النجاة، من فوق كرسي الحلاق اندفع وراء الشاب الأسيوي الضئيل في لحظة إفاقة عجيبة، كأنه عثر علىٰ ضالته أخيرا، ما يزال متسربلا بمريلة الحلاقة الخانقة، لمح سيارتها البرادو الكبيرة صافتة جوار الدكان

بالفعل، تراقصت أحشائه، شعر بموجه خفية من الارتياح والهدوء، وشىٰ وجهه بفرحة لم يعاينها علىٰ مدىٰ أسابيع طويلة خلت، كلماتها كانت مقتضبة وسريعة وحاسمة ومبهجة أيضا، بمثل بهجة عيناها المتسعتان المستديرتان السوداويتان الجميلتان، حيث قفزت الفرحة منهما علىٰ الرغم من النقاب الذي يغطي باقي تفاصيل وجهها «حمدا لله علىٰ سلامتك، شاهدتك تركب سيارتك أمام البيت، مر عليا حينما تنتهي، عندي لك شيء مريح» لم تنتظر إجابة أو تتوقع رأيا آخر، بسرعة أدارت سويتش السيارة وفرت، عبدالله ما يزال واقفا بمريلة الحلاقة أمام المحل، لم ينبس ببنت شفة، عاد لمكانه علىٰ كرسي الحلاق بوجه آخر ومزاج مختلف تماما، كأنه تحرر من كرب رهيب جثم علىٰ صدره ولم يتوقع منه فكاكا، كانت المغنية الشابة نانسي عجرم تتباهىٰ برشاقتها وحيويتها ودلالها في مواجهته علىٰ شاشة تلفاز الحلاق، تتراقص وتتبختر، كأنها ملكت العالم بدلالها وسحرها، انفعل معها للمرة الأولي، ردد وراءها، «اخاصمك آه، أسيبك لا، وجوه الروح هاتفضل حبيبي اللي انا بهواه» استغرقت الفرحة جميع أحشائه في الداخل، وكذلك وجدانه الذي تحول بقدرة قادر، استدار الوجه، لمع، امتلأ بالحيوية والراحة، لاحظ الحلاق ذلك، انفعل معه، انطلقت نكاته متسارعة، وكذلك أحاديثه التافهة التي وجدت هذه المرة من عبدالله آذانا صغيت لكل حرف منها، وابتسامة لكل كلمة ينطق بها، وقهقهة علىٰ كل نكتة خارجة أو قبيحة حتىٰ لو كانت قديمة وسمعها آلاف المرات، تحول مثل زمان، ورجع لأيام زمان، أدرك الحلاق أنه يريد إنهاء كل شيء بسرعة، تسارعت إيقاعات أنامله

بالمقص تجز في شعر رأسه، ووجنتيه حيث يرتع الموسىٰ ماسحا ذقنه التي بدت شديدة النصع واللمعان والجاذبية، تركه الحلاق في حالة فريدة من الفوقان والنهم للحياة، أجزل له العطاء وهرع نحو سيارته، أدار محركها، كانت فيحاء الجميلة تتراقص أمامه، وتثير شهوته التي اتسعت الآن لكل شيء، لم تكن مجرد جسد أنثوي ألقته الأقدار في طريقه، بل كانت عالما بأكمله من السحر والجمال والدلال والعشق والمزاج العالي أيضا، وبينما كان محرك السيارة يدور، وينطلق شعر كأنه سائر نحو قدر آخر، وأن الذي يتحكم في مقود السيارة لم يكن عبدالله بذاته، بل تلك الرائحة التي ملأت خياشيمه ووجدانه في تلك اللحظة، إنها رائحة بحر الخليج الذي يعشقه وتعشقه جميع خلاياه، كانت السيارة تفر بسرعة داخل شارع الخليج دون أدنىٰ إرادة منه علىٰ السيطرة علىٰ تلك الانفعالات الجياشة، ولا علىٰ تلك الرائحة التي ملكته في تلك اللحظة، وكانت وقفته هناك أمام الجون الساكت يطالع بشغف ولهفة في تلك المياه التي تهمس من دون صخب، وبهدوء كامل، وكان عنفوان اللهفة للمخدر داخله قد بلغ مداه، لم يعد يمتلك ترف القدرة علىٰ التفكير، أو ترف القدرة علىٰ الصبر والهدوء، خاصة مع تواتر انبعاث خيالات فيحاء أمامه، تتراقص بين يديه منتشيه بالحب والهيروين، قال لنفسه وهو يدير محرك السيارة قافلا إلىٰ بيت فيحاء: «كم أنت مدهشة ورائعة دائما أيتها الحياة، ومن يملك فيحاء فقد امتلكك أيتهاَ الحياة البائسة «كان لابد أن يصفت السيارة في مكان قصىٰ بعيدا عن منزله، ومنزلها المقابل لمنزله مباشرة حتىٰ لا يلحظ أحدهم وجوده».

(9)

أمير المنكوبات

فيحاء منية القلب، باعثة البهجة والفرح في الأبدان الميتة التي استغرقها الإدمان علىٰ بودرة «الهيروين» قبل أن تتحول هي نفسها إلىٰ مدمنة صعبة المراس، كانت مثل زهرة يانعة، تتدفق حيوية ونشاطا وإبهارا بجمالها اللافت الذي استغرقها فأضحت تختال به طولا وعرضا، لم تكن مسألة استدارة وجه، أو بياض أنثوي أخاذ ومدهش لبشرة رقيقة ناعمة، أو مجرد عيون عسلية مستديرة، متسعة تحتوىٰ من يأوي إليها ولا ترده أبدا، أو صاحبة طول فارع، وجسد ممشوق مذهل، وخصر مرسوم بدقة متناهية، ورشاقة أكثر مما ينبغي، وتعرجات انثوية تستطيع أن تميزها بقوة من الخلف، دائما لا تترك ورائها للناظرين حينما تمر في الشارع سوىٰ نظرات اللهفة والحسرة علىٰ عدم امتلاك مثل هذا الكائن المدهش، دائما تبدو في منتهىٰ الحيوية والحرارة والحماس، روحها الرقيقة الشفافة تبثها دائما في أي مكان تهبط عليه، دائما ابتسامتها جميلة، مشرقة، تبعث الحرارة والدفء وتحتوي المكان وجميع من فيه، لم تروقها المدرسة، كانت تذهب إليها مضطرة، تعثرت قليلا في البداية، لكن ذكاءها اللافت ساعدها علىٰ المرور دائما من الباب الضيق بأقل قدر من الجهد، مع أواخر المرحلة المتوسطة بدأت تطفوا علىٰ السطح مشاكلها مع جسدها، بدأت تدرك مبلغ انوثتها في عيون من حولها، تطالع

انتفاخات صدرها بقلق وتوجس وحيرة، كانت البنت الوحيدة ضمن عائلة مشبعة بالذكور، جاءت في منتصف الطريق، سبقها ثلاثة ذكور، ولحقها ثلاثة آخرون، استشعرت مبكرا مبلغ جمالها ولهفة الآخرون عليها، كما استشعرت أيضا قوة مركزها داخل الأسرة التي تعج بالذكور، لم تكن صحة والدتها على ما يرام في معظم الاحيان، ضرب السقم رئتيها بعد ولادتها الأخيرة، ومن يومها لا يشغلها شيء سوى زيارات الاطباء والمستشفيات، تزداد الحالة تدهورا يوما بعد يوم، لم تكن المرأة قد ابتعدت عن الخمسين كثيرا حينما اخبروها في نهاية مطاف طويل مع الفحوصات والتحاليل المرهقة أن الوحش الخبيث في احشائها استولى على الرئتين تماما وأن وجودها على الأرض وبين أحبائها مسألة وقت وينبغي أن تتحلى بالصبر والأيمان، عاشت فيحاء لحظات التوجس والخوف، كما عاشت لحظات الدلال والزهو في نفس الوقت، ربما لم تتدثر بحضن امها بدرجة كافية، لكنها تدثرت بعلاقاتها الكثيرة سواء زميلاتها في المدرسة التي هجرتها بعد اتمام الشهادة المتوسطة، أو صويحبات تعرفت عليهن بحكم الجيرة، أو التقتهم مصادفة في المناسبات العائلية أو المجمعات التجارية الكبيرة، كانت تعشق المرح ومهووسة بالانطلاق، تعشق الضحك، واقتلاع عيون الشباب، خاصة حينما يسعون خلفها في المولات الكبيرة، ويقذفون بقطع الاوراق الصغيرة التي كتبوا عليها ارقام هواتفهم المحمولة، ارتبطت بالكثير من العلاقات العاطفية العابرة، انسكبت حولها وخلفها مشاعر الوله والرغبة حتى أصبحت ملهمة للحب والعشق، لم يجزع قلبها أو ينتفض لأحدهم ولو لمرة واحدة، عشقت

مغامرات الظلام، والسيارات الصافتة تحت الأشجار وقد ارتفعت درجة الحرارة في الداخل، عشقت في ذروة مراهقتها سرقة القبلات والاحضان، ولكن لم تعشق أحدهم علىٰ الاطلاق، خبراتها الأنثوية الأولية استمدتها من زميلاتها في المدرسة، ومن أفلام الفيديو التي كانت تتسرب إلىٰ يدها من صديقاتها وأصدقائها خلسة في أوقات المرح والانفلات، لم تعتد أن يسألها أحد عن أحوالها، عن مشكلاتها، انحصرت علاقتها بأمها في السابق قبل اكتشاف مرضها في مجرد البحث عن أحدث موديلات الثياب، والبارفانات والأحذية، عرفت الطريق إلىٰ صالونات تجميل النساء في وقت مبكر جدا، اعتادت أن تظهر دائما بين صويحباتها متأنقة، لامعة، وكانت كذلك فعلا، مثل الشمس عندما لا تتمكن كل أشكال النجوم والكواكب من إخفاء طلعتها وطلتها، إنها فيحاء التي اعتادت أن تعيش حياتها متلألئة مثل الجوهرة، عاشقة للحياة، ولفيحاء نفسها، بعد انكشاف مرض والدتها وانزوائها، كانت فيحاء عندما تختلي بها، وتنظر إلىٰ صدرها الذي نهشه المرض، يعلو ويهبط ببطء شديد، تنتابها حسرة كبيرة وغصة عميقة للغاية، تلك السيدة التي تتصارع مع الموت الآن هي أنيس وحدتها الوحيد، وروضتها الهادئة التي تأوي إليها حينما يعصف بها هم الوحدة، والخواء، وانكسار النفس، وخيانات الأصدقاء، وغضب الإخوان المستمر احتجاجا علىٰ تصرفاتها، التي يرونها جانحة وجالبة للعار، ومع ذلك لم تتمتع بهذه الروضة كثيرا، سقطت الأم صريعة للمرض، أصبحت مجرد ضيف ثقيل في منزل صاخب، مزدحم بالخلافات، والمشاكل وعدم الاكتراث، لم تلق في حضن ابوها كبير

مهندسي شركة النفط الدفء المطلوب الذي يكفي لاجتذبتها نحوه، الرجل وقته مزدحم دوما إما بالعمل، وإما خارج البيت حيث إعتاد المرور علىٰ دواوين الأصدقاء، ومخادع عشيقاته اللائي لم يكن يتحرج في الحديث عنهن، وكذلك مغامراته معهن أمام الجميع، ومنهم ابنائه، في هذا الغلاف الأسري الغامض، المشع بالاضطراب والارتباك قررت فيحاء الهروب إلىٰ ذاتها، إلىٰ شقاوتها والاستمتاع بتفاصيل جسدها الجميل، وأيامها الثقيلة التي تدهسها بالاكتئاب والوحدة كل يوم، لم تكترث أو تتحسب لأية معايير يمكن أن تقيد حريتها ورغبتها في أن تفعل ما تريد أن تفعله، كما لم تتقيد بأي شيء يمكن أن ينفي عنها اعتزازها بأنوثتها التي تفيض في الطرقات، وتضرب قلوب وعيون الرجال بسهام قوية التأثير، جاء زواجها مفاجئًا ومتعجلا، تحمس الاب والاخوان ليقطعوا الطريق علىٰ السنة الأقارب والمعارف التي بدأت تلوك في سيرتها، كما تحمست له أيضا بشدة لتنتزع نفسها من حصار نظرات اللوم والغضب التي تفوح يهما إلىٰ فيحاء نفسها، كثيرا ما تملكتها الدهشة من كل هذا الزخم الذي تتملكه من الحرية والانطلاق والمواجهة والثورة، والتبجح أيضا، كانت تعتقد انها سوف تمتلك زوجا تدخل به ذلك المجتمع الفضولي المتطفل، الفاضي، الذي لا يكف عن الثرثرة والنميمة بالإشارة إلىٰ الآخرين من دون مبرر سوىٰ مجرد التسلية وتمضية أوقات فراغه الدائم، كانت تعتقد أن حريتها منذ أول يوم في الزواج سوف تكون مؤمنة، سواء من فيحاء أو الآخرين، لكنها اكتشفت شيء آخر لم يكن يخطر علىٰ بالها بينما كانت تتسكع بين المقاهي مع صديقاتها وتتسمع

لأغرب القصص عن الحب وعن الزواج، وعن الحياة اللاحقة بين الشريكين التي تحولت إلىٰ مجزرة بشعة لقتل الروح والمشاعر، وكانت تتعجب وهي تتسمع لأعنف انواع الانتهاك الجسدي من قبل بعض الازواج الشاذين ضد الزوجات المساكين، ومع ذلك تمسكت بذلك الحبل الرفيع من الأمل في امكانية أن تحظىٰ بواقع مغاير تنشأ خلاله مملكتها، وتتحكم في مقاديرها ومصيرها من دون ازعاج، أو تسلط من أحد، هذا الواقع المغاير كثيرا ما حلمت به وتحدثت فيه مع صويحباتها عبر الهاتف وفي المقهىٰ، كانت تعتقد في خيانات والدها المتكررة والمستفزة لامها المريضة إهانة ذكورية للمرأة، وأن المرأة لابد أن تكون قوية وحرة وتستخدم أسلحتها الأنثوية في الدفاع عن نفسها ضد قهر الرجل، كانت تفكر بصوت مسموع بينما تنفث من فمها الدقيق الجذاب دخان النارجيلة برائحة التفاح المميزة وهي جالسة بين صديقاتها تختلس نظرات ذات مغزىٰ لجمع من الشباب كانوا يترقبون الصيد الثمين في الجهة المقابلة لهم، تعمدت اجتذابهم إلىٰ دائرتها، وعندما يلج الشاب ويحاول اقتحام أسوارها تفاجئه بسيل عارم من الألفاظ النابية، والشرر المستطير الذي يفوح من عينيها الجميلتين حيث تتحولان سريعا إلىٰ مقذوفات نارية مدمرة، فيتبخر الشاب في لمح البصر، بل وربما يعلن توبته عن ملاحقة الفتيات بعد ذلك، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وجدت نفسها بين ليلة وضحاها في أحضان طيار، شاب وسيم، وعلىٰ درجة عالية من الذكاء والتلقائية، اجتذبها بوسامته وقدرته غير المحدودة علىٰ إضحاكها، رأته شيء مختلف عن كل الشباب الذين مروا بحياتها منذ استشعرت

انجذابها الطبيعي نحو الذكور في بدايات مراهقتها المزعجة، كان زميل دراسة لأخيها الأكبر، ودائم الانشغال بالسفر بحسب طبيعة عمله في الشركة الوطنية للطيران، لم يستطيع مقاومة جمالها ورشاقتها، كما إنها كانت في حالة لا تمكنها من رفض هذا العريس الطيار الوسيم، كانت في حاجة ماسة إلىٰ جدار يحميها من حماقات مجتمع لا يشغله شيء سوىٰ تصرفات البنات، كما كانت في حاجة إلىٰ تجربة حب آمنة ومستقرة، والولوج في سحر العسل الذي سمعت عنه كثيرا ولم تتذوق باستمتاع بعد، فقط مجرد شذرات من ذلك العسل من دون طعم كانت تتحصل عليها في لحظات ارتباك وخوف داخل السيارات الصافتة المختبئة في الظلام بصحبة أصدقاء، كانت تفعل ذلك لمجرد التجربة، والتعرف علىٰ هذا العالم السحري الذي يحكي لها عنه صديقاتها المتزوجات، أو من لديهن أصحاب يضاجعوهن، مرت الشهور الأولىٰ من الزواج صعبة ومزعجة، اكتشفت تباينا كبيرا بين عالمها وعالمه، طموحاتها وتوقعاتها في الاستئثار به وتطويعه وفق مشيئتها ذهبت أدراج الرياح، الرجل كشر عن أنيابه بعد ليلتين فقط من الزواج، اكتشفت أنه كان يشرب الخمور بدرجة مدمن، وتمكن في الفترة السابقة علىٰ زواجهما من التخفيف نوعا ما من احتسائها حفاظا علىٰ عمله بعد افتضاح أمره في الشركة، وأملا في تغيير مجرىٰ حياته واستقامته، طفق يحتسيها في المناسبات الاجتماعية، وغالبا في أيام العطلات ونهاية الأسبوع، بعد الزواج، طلب منها مشاركته، رفضت في البداية، علىٰ الرغم من إنها كانت قد عرفت الطريق إلىٰ تدخين السيجارة والشيشة مبكرا قبل بلوغها الثامنة عشر بشهور قليلة، يومها

كانت تسهر مع ثلاثة من صديقاتها في أحد المقاهي المتناثرة على الخليج، قررن بإجماع غير مرتب سلفا طلب «شيشة» كن منشغلات بمجموعة من الشباب جالسين في الجهة المقابلة يدخنون الشيشة أيضا، يومها طلب منهم الشباب الانضمام اليهم، تسرب القلق والاضطراب اليهن، انصرفن فورا قبل أن يأتي العامل بالمطلوب، انتقلوا لمقهى آخر، طلبوا نفس الطلب، اكتشفوا شيئا هاما وتحديدا فيحاء وهانوف، اكتشفن انهن اصبحن ناضجات، رؤوسهن تناطح السحاب، ارتفعت هامتهن كثيرا، اتسعت لديهن مدارات الخيال والعظمة، وجدن انفسهن يرتفعن فوق هامات الرجال المنتشرين حواليهم مسترخين على مقاعد المقهى المختبئ في إحدى المنحنيات الجانبية البعيدة عن زاوية رؤية بحر الخليج الهادئ الطباع، هذا الأمر يحدث كلما تسرسب خيط دخان الشيشة بطعمه التفاحي هاربا من انوفهن الدقيقة الجميلة إلى الفضاء، الذي يضج بالضوضاء وصراخ الأطفال وروائح التبغ، واما مريم الصاحبة الثالثة فلم تتمكن خياشيمها أو رئتيها من تحدي تلك الرائحة، توقفت بسرعة، ظلت تطالعهم بدهشة مع كل نفس يخرج إلى الفضاء الملوث، وكل تعليق يرن صداه في محيط جلستهن المثيرة، وكل ضحكة تهتك تلك الحُجب الوهمية التي صنعوها في خيالاتهم لكي تخفيهم عن العيون الفضولية، وأرادوها منيعة وقوية، لاحقا أصبحت السيجارة صديقتها الحميمة التي لا تفارقها لحظة، ولا سيما أن السجائر متاحة في كل الأزمنة والأمكنة، بعكس الشيشة التي يستلزم الوصول إليها طقوسا خاصة قبل أن تصل إليها، مثل مواعدة صديقاتها على الخروج

والبحث عن مقهىٰ هادئ يستوعب وجود ثلاثة فتيات أنيقات جميلات يدخنون النارجيلة باسترخاء في ركن من أركانه، قاومت فيحاء في البداية شرب الخمر مع زوجها ليس كراهية في الخمر ورائحته، أو ما تسمع عنه من أنه محرم في الدين، ويتعرض شاربه للإدمان والكثير من الإهانات والمهانات، بل لغضبها الشديد من زوجها بسبب إخفائه عنها مسالة معاقرته للخمور قبل زواجهما، لكن الرجل طفق يلح عليها بإصرار، ويزين لها مدىٰ أهمية هذا المشروب، وبصفة خاصة مع تلك اللحظات الحميمة حيث سيتمكنان معا من التحليق في أعالي السماوات، وينعمان بأسعد اللحظات، وافقت فيحاء أخيرا بعد أن هدأ غضبها، وبعد أن استثار جسدها التواق دوما للمغامرة من دون تردد، والانغماس في تلك المتعة الجسدية التي وعدها بها زوجها بينما كانت رأسه قد بدأت تدور وتنفصل عن الواقع وبدأ يجذب فيحاء بقوة إلي صدره المتأجج، وجدت فيحاء نفسها بعد تلك الليلة وكأنها وضعت يدها علىٰ كنز ثمين من السعادة لا ينبغي التفريط فيه، كأنها كانت تبحث عن الخمر منذ ولدت، مشاعر غريبة سارة استولت علىٰ كامل جسدها، وعلىٰ كل قطعة في جسدها النحيل، صارت في حالة استثارة مبهرة، وفوقان سحري، تحولت إلي شخصية أخرىٰ أكثر تهورا واندفاعا، وأكثر نعومة وحنانا، شعرت بالكون يبتهج بها ومعها، لم تفكر في زمن ولا مشاعر تلك المعاشرة الجسدية مع زوجها والتي كانت قد بدأت تنفر منها مؤخرا بعد كثرة الخلافات بينهما، وخياناته لها، العكس هو الذي حدث، استولىٰ عليها شعور سار بالقوة، وطغيان الأنوثة، والحرية، هذا الشعور تجاوز كل

الحدود، أخبرته في تلك الليلة وهي في حضنة ولم يكن فرغ منها بعد، إنها تكرهه جدا، وإنها لم تعد تحبه أو تطيقه، ويجب أن يطلقها علىٰ الفور، وكان هو علىٰ الجانب الآخر يبلغها عن حبه لها الذي تملكه تماما، وإنه لا يمكنه الاستغناء عنها، انتهت ليلتهم بسلام شعرت بسعادة كبيرة لا توصف بعد أن باحت بكل ما تريده، أصبحت منذ ذلك اليوم تترقب لحظة وصوله بزجاجة الويسكي ليندمجا معا في تلك اللحظات المجنونة حتىٰ وإن انتهت بغير معاشرة، وذلك ما كان يحدث لهما في اغلب الأحيان، حيث كانت ترفض وبإصرار اقترابه الشديد من جسدها، وإذا حدث في لحظات السكر تنفلت بسرعة إلىٰ الحمام تفرغ كل ما في جوفها وتستلقي علىٰ السرير لا تبالي بشيء، تسربت الأيام من بين اناملها كما يترسب كل شيء، انتفخت بطنها مرتين وأفرغت صبيتان جميلتان تحملان ملامحها ورائحتها، قررت بعدها التوقف عن الانجاب مهما كان الثمن، ومهما مارس زوجها من ضغوط كي تنجب طفلا آخر، لم تعد تكترث باي شيء بعد أن تيقنت إنها لم تعد ذاتها، فقدت الكثير من حيويتها وبراءتها وأيضا عفويتها، اعتكفت تقريبا في بيتها ترقب الأطفال وهم يستطيلون وتتغير ملاحهم وأجسادهم وأصواتهم، وتتجلىٰ اهتماماتهم في أمور بدأت تتصادم مع رغبتها في العزوف عن الواقع والبقاء علىٰ الهامش تستمتع باستنشاق خطوط «الهيروين» المخدر الذي أخذته عن زوجها لاحقا بعد تخليه عن معاقرة الخمر، وتطير في الفراغ بلا أجنحة، وبصدمة مبهجة في النافوخ تصل بها إلىٰ ما فوق السحاب، أثناء حملها الأول عانت كثيرا، انشغلت بمشكلات الحمل ومتاعبه، ربطت بين تلك المتاعب

وجلسات شرب الويسكي مع زوجها في الأمسيات، قررت الامتناع عن الشراب، نجحت في الصمود ساعدها في ذلك متاعبها الصحية المستمرة نتيجة الحمل، وانشغالها الدائم بتلك الالآم والمنغصات، اكتشفت في الأيام الأخيرة قبل توقفها إنها لم تعد تجني من وراء الشراب شيئا له قيمة، من شانه أن يغير من مزاجها أو انفعالاتها، بل يحدث العكس تحصد غثيانا، واضطرابات معوية متواصلة تدفع بها في رحلات مكوكية منهكة إلىٰ الحمام تستثير الشفقة والتقزز، عقب الولادة عادت لكآبتها ووحدتها، لم تعد تطيق زوجها ولا رضيعتها، كانت تدخل في نوبات متداخلة من الكآبة والمرح، وتخرج بمزاج مركب يتباين بين الحنين بشدة لوالدها وإخوانها وأخواتها، والصراخ طلبا لرؤيتهم والنفور بقوة من وزجها وعدم قدرتها علىٰ التعامل معه، قطعت كل صلاتها بصديقاتها القدامىٰ، دخلت في عزلة تامة، كانت تنفرد بنفسها معظم الوقت وتجهش بالبكاء، ذهبوا بها إلىٰ إحدىٰ العيادات النفسية الخاصة، حاول الطبيب تهدئتها عن طريق وصفة طبية محترمة تشتمل علىٰ كمية كبيرة من المهدئات والمنومات ومضادات الاكتئاب، لم يكترث الطبيب المحترف بالبحث داخل فيحاء نفسها، والتحليق في جنبات مشاعرها وانفعالاتها ومنابع تفكيرها، بل كان متعجلا جدا، أراد السيطرة علىٰ الأعراض الخارجية بسرعة، نجح الدواء في السيطرة علىٰ انفعالات وعواطف فيحاء، تغير مزاجها، أصبحت أكثر إقبالا ونهما علىٰ واقعها، التصقت بزوجها التصاقا كبيرا، قرر الرجل في هذه الأثناء أن يتباعد عن معاقرة الخمر، والتفرغ لزوجته الجميلة وابنته، دخلت في حملها الثاني، وكانت هذه

المرة اكثر انضباطا وحيوية ورغبة في حياة مختلفة، لكن داخلها كان يقشعر جدا من الخوف غير الواضح، في هذه الأثناء تحول زوجها من وناسه الويسكي إلىٰ «الهيروين» مباشرة، نصحه زميل له في المهنة بالابتعاد عن مشكلات الكحول إلىٰ ذاك الشيء السحري الذي يحلق به في الفضاء، أخبره أن شعيرات دقيقة يستنشقها بأنفه تسافر به إلىٰ عالم من الذهول والروعة، انها بودرة «الهيروين» انزعج جدا، في البداية وقرر غلق المناقشة في هذا الأمر، لكن زميله اقنعه أن معاقرة الخمر سوف تتسبب له في مشاكل مع الناس، ومع اهل بيته، وسوف تصبح سمعته سيئة جدا، لكن مع ذرات البودرة لن يستغرق الأمر لحظات، ولن يشعر به أحد، وسوف يستمتع بالسفر في عالم الاحلام والتخدير اللذيذ، رسم خطـًا أمامه من ذرات البودرة، استنشق هذه الذرات البيضاء بأنفه بقوة وسرعة المجرب المحترف، ترك نفسه يسبح في عالمه، أدرك بحسه الإدماني أن ذلك شيء مدهش، وخبرة لابد أن يستكشفها ويلجها، وإلا سيكون قد حرم نفسه من شيء قد يكون لذيذا ورائعا، طلب منه أن يُفرِد له خط بودرة امامه، فعلها واستنشق بقوة علىٰ طريقته تلك الذرات البيضاء، اكتشف أنه يدخل في عالم مذهل، أنه السحر، تأكد من دخوله في عالم تخديري لذيذ للغاية بعد عدة دقائق، كل شيء حوله وداخله أصبح هادئا تماما وساكنا تماما، لا يوجد ألم، لا يوجد اكتئاب، لا يوجد تفكير، لا توجد ذكريات أيضا، فقط يوجد هو نفسه، طائرا، محلقا في آفاقا بعيدة، وداخل تلافيف سحب بيضاء جميلة من دون حدود ولا سقف، يمضىٰ الزمن متلألئ حواليه، منزوع من الصراع، والكروب والهم،

وكافة هموم الدنيا، ودع زميله في العمل بعد أن استفاق وحصل منه علىٰ جرعة مجانية يجربها مرة ثانية، كانت فيحاء تنظر للتلفاز في شرود، وكانت الصبيتان تلهوان بجوارها وتلحان في طلب قنوات الاطفال الفضائية، اعطت الكبرىٰ جهاز الريموت كونترول ودخلت تستلقىٰ علىٰ السرير، شعر بسعادة غير مفهومة عندما دخل عليها الغرفة واستلقىٰ بجوارها علىٰ السرير، كان مزاجها اكتئابي واضح، لم تكن تريد الحديث، جذبها نحوه بقوة إلىٰ حضنه، أخرج الظرف البلاستيك من جيبه، نثر ذرات قليلة علىٰ ظهر كف يدها، طلب منها أن تستنشق هذه البودرة حالا، فهمت، المدهش إنها لم ترفض أو تبدىٰ امتعاضا، كانت يدها رخوة جدا، وكانت في مزاج استسلامي يثير الدهشة والاستغراب، كأنها كانت في انتظار هذا الشيء القادم إليها من رحم الغيب، فعلتها واستنشقت بمنخارها ذرات الدقيق الجميلة، ذرات «الهيروين» انتظرت قليلا حتىٰ غابت عن الوجود، لم تعد تشعر بوجوده، اغلق الباب بسرعة، استنشق خطا آخر، سبح في عالمه مثلها، مرت لحظات خالية من الحركة والكلام، وربما خالية من الصمت ايضا، أخذها في حضنه، هاما سويا في فضاء المتعة، حيث بدىٰ لهما انهما يستكشفانه للمرة الاولىٰ في حياتهما، عالم رائع بلا شك، ولحظة مجنونة هي الاولىٰ لهما بامتياز منذ أن تزوجا ورقدا معا فوق سرير واحد، كأنما وضعت يدها علىٰ مبتغاها، تغيرت دنياها حواليها فجأة، ذابت الكآبة، انفض الكرب، شعرت بخفة وراحة رائعتين، كأنما كان اندفاعها الحميم نحو زوجها في ذلك اليوم تعبيرا عن امتنانها وعرفانها بجميل له في عنقها حينما نثر علىٰ ظهر كف يدها

الأيمن تلك الذرات من بودرة «الهيروين» المخدر، ضبطت نفسها سعيدة، ملهوفة علىٰ أرقام هواتف صديقاتها التي اعتزلتهن في الشهور الأخيرة، عبثت بالهاتف عدة مرات، صادت أخيرا صوت مريم، هاتفتها بفرح، صوتها بدا ملهوفا علىٰ جلسة المقهىٰ والشيشة والنميمة، كانت منفعلة جدا، ومرتاحة جدا، تساقطت دمعات خفيفة علىٰ خديها، كانت بمثابة اعلان رسمي بعودتها إلىٰ نفسها وإلىٰ صديقاتها أيضا، وعلىٰ الجانب الآخر تجاوزت مريم دهشتها وارتباكها سريعا، عاشت مع فرحة استعادة فيحاء والإصرار علىٰ استعادة الصديقات الأخريات، كان الموعد في مساء مثل هذا اليوم من الأسبوع التالي، نفس الطاولة التي اعتادوا الجلوس حولها، لحسن الحظ كانت خالية، كأنما كانت في انتظارهم كل هذه المسافة الزمنية منذ آخر مرة اجتمعوا حولها، اختارت مريم التي حضرت مبكرا بحكم العادة أن تجلس علىٰ الكرسي المواجه لمياه الخليج مباشرة، كانت في غاية التأنق والجمال، متدثرة في عباءة سوداء منسوجة من خيوط الحرير، موشوم عليها بخيوط يدوية دقيقة الصنعة اشكالا ورسومات هندسية ملونة ومتداخلة، يزيد من بهائها وجاذبيتها انها مطرزة بخيوط متداخلة الالوان، بين الذهبي والأحمر والوردي والأخضر، كان جسدها اليانع الفارع مثل فرسة قوية تتمتع برشاقة استثنائية، يتلألأ داخل العباءة كأنه يتباهىٰ بنفسه، أو يتباهىٰ بمريم الجميلة التي كانت قد خرجت للتو من صالون التجميل وقد أضفت لمسات جمالية بسيطة علىٰ وجهها الخمري الفاتن الأخاذ فبدا بهيًّا لامعا وكاشفا عن تفاصيل دقيقة لأنثىٰ جميلة للغاية، شارف عامها الخامس والعشرين

أن يهل عليها، لم تستسيغ مريم حتىٰ الآن طعم ورائحة التبغ، كما انها فزعت بشدة عندما تحسس صديقها ذات يوم بيده تحتها بينما كانا سويا داخل السيارة الصافتة في الظلام، تتذكر يومها أن جسدها انتفض فجأة، هلعت، امرته بحسم أن يتوقف، ويعود بها إلىٰ مكان سيارتها الالتيما حيث كانت صافته، جاء النادل سريعا، صرفته بإشارة من سبابتها اليسرىٰ مشيرة قبل أن يهم بالاعتدال في وقفته أمامها «بعدين »، كانت راحة كفها الايمن تسند ذقنها الصغير، عيناها الضيقتان مصوبتان نحو مياه الخليج الهادئة وقد ابتعدت بذهنها وحواسها تماما عن صخب المقهىٰ وزبائنه، جاءت هانوف بعد دقائق من وصول مريم، قامتها القصيرة، وجسمها الضئيل، ووسامة وجهها المخروطي الجذاب وعيونها الخضراء اللامعة الماكرة وخبطة كعبها الواثقة المتأنية في الأرض ونظرة عينيها المجترأة علىٰ كل شيء حولها وحركة يدها الضئيلة القوية بينما كانت تسحب الكرسي لتضبط جلستها في مواجهة صديقتها، كل ذلك يشي إننا أمام كائن يعلم ما الذي يريده، وما الذي يدور حوله، كان تأنقها بسيطا، هادئا وجميلا، ترتدي جيب أحمر قاني يقترب من الركبة، وبلوز أحمر موشىٰ بخيوط زرقاء وبرتقالية مميزة، وشعرها الأسود الفاحم القصير كان طليقا، يداعب تلك النسمة التي هبت فجأة علىٰ المقهىٰ، اخيرا ظهرت فيحاء نجمة الحفل وصاحبة الدعوة تتهادىٰ من بعيد، حضرت أخيرا بعد طول انتظار غير متوقع، اجتهدت في أن ترسم ابتسامة عريضة تلقىٰ بها رفيقتيها عقب هذا الغياب الذي خلف زواجا دراماتيكيا، وابنتين جميلتين، بدا وجهها شاحبا مطفئ، كأنها مضت ليلة طويلة تصارع

أرقا ثقيلا، وكوابيس مزعجة تدهمها لحظة أن تتمكن من اصطياد أو سرقة اغفاءة قصيرة من فرط التعب والارهاق، لم تصدق مريم ما يشي به وجه فيحاء وصوتها الذي كاد يزغرد من الفرحة عبر الهاتف أمس، جلست قبالتهم، كان ظهرها لبحر الخليج الذي تعشقه، بدأت حديثها بالجأر بالشكوىٰ من هذا الصداع المرير الذي امتلك رأسها من دون رحمة منذ الأمس، أخبرت النادل صاحب الملامح الآسيوية الذي صادت عيناه الضيقتان حركتها البطيئة بينما كانت تسحب الكرسي للخلف قليلا قبل أن تستقر في تجويفه، عن حاجتها لفنجان من القهوة التركي «دبل »، وشيشة تفاح، طلبت مريم كوب عصير برتقال فريش، بيد أن هانوف التي كانت قد اخرجت سيجارة من حقيبة يدها صاحت في النادل أن يجهز لها شيشة تفاح أيضا، وفنجان من القهوة التركية تعاطفا مع فيحاء، ومشاركة لها، هكذا حاولت هانوف كسر ذلك الحاجز السخيف من المفاجآت والصمت غير المتوقع لصديقات يلتقين للمرة الأولىٰ بعد فترة غياب طويلة للغاية، انصرف النادل النحيل في هدوء لكن فيحاء لم تكن كذلك، اخبرتهم من دون مقدمات إنها تعاني من ضربات صداع رهيبة منذ الأمس، والآم اكتئابيه جسيمة ذبحتها، ما عادت تطيق أحد، حتىٰ اطفالها أصبحوا كالغرباء عنها، زوجها لم يهتم بمعاناتها، خرج لعمله مبكرا وأغلق هاتفه النقال اللعين، بدا صوتها يختنق ويتمازج بالحزن والاستكانة، لم تتسمع لأسئلة مريم المندهشة، ولا إلىٰ إلحاح هانوف في معرفة سبب هذه الأزمة، كان صوتها يزداد وهنا واختناقا حتىٰ سالت دموعها، تقطع الصوت حتىٰ توقف مع حركات النادل في تجهيز الشيشة، وتوزيع

جمر الفحم بالماشة المعدنية فوق فوهة الأحجار الفخارية التي تشبه فتحة البركان المستعر، جذبت بسرعة المبسم البلاستيكي من يد النادل، ثبتته بأناملها في فتحة الخرطوم، طفقت تشد أنفاسا سريعة متتابعة أرهقتها بوضوح، اختلطت رائحة الدخان المنفوس من ثغرها المطلي باللون الأحمر القاني مع تلك الدمعات التي تنثال علىٰ ذلك الجبين الذي استحوذ عليه الضعف والهوان والحزن الشديد في تلك اللحظة الفارقة من الزمن، هكذا بدا الأمر في فضاء المقهىٰ، كأن غمامة من المشاعر غير السارة زارت الصديقات الثلاثة، هؤلاء الشابات الجميلات الذين يلتقين للمرة الأولىٰ بعد طول غياب، واحدة منهن اصطلت بكرب جلل، وهُم لا يمكن احتماله، ويبدو الأمر أن لا طاقة لإحداهن بدفعه أو ازاحته عنها، طفقت فيحاء تغمغم باستجداء عن حاجتها لترييحة من «الهيروين» الذي اعتادت عليه، زوجها الذي يجلبه لها عادة ذهب لعمله منذ يومين وأغلق هاتفه، لا تستطيع احتمال كل هذه الألآم، لم تعد قادرة، فجأة زأرت السماء، سُمِع علىٰ غير توقع أصوات فرقعات آتية من بعيد كأنها طلقات نارية، التمعت علىٰ أثرها السماء التي كانت رائقة، متباهية بتلك النسمات الباردة التي وهبتها للمخلوقات المتناثرة بجوار الخليج، التمعت السماء فجأة بأضواء تتداخل، وتتشكل وتتلون، وتتسع دوائرها في تماثل، وتزامن، عكس أجواء احتفالية مجهولة المصدر والمناسبة سرقت أنظار الفتيات الثلاثة ودفعت عنهن تلك الغمامة من الشجن والنكد التي سربلتهم مع قدوم فيحاء، ظلت أصوات الفرقعات تتواتر، والسماء تضوي بزخم الفرقعات والأضواء الملونة أو الألوان المضيئة في كوة

السماء تخطف لحظات الشجن من فوق طاولة الفتيات، وقد ارتدت عليهن بنفحة من نور أشرقت فجأة في نفس الوقت الذي ابتسمت فيه فيحاء التي كانت تتابع الدوائر الضوئية التي يتمدد اتساعها في السماء قبل أن تنطفئ، صاحت هانوف وقد أخذها هذا التواتر اللوني المدهش «كأنهم يحتفلون بنا» أكدت مريم بضحكة طفولية التمعت علىٰ إثرها أسنانها الدقيقة البيضاء «وأنا صاحبة الفرح »، عبثت هانوف في هاتفها المحمول «الآي فون» انسحب صوتها للحظات قبل أن تعود إلىٰ فيحاء التي بدا إنها غادرت تلك الحالة المزاجية العسيرة التي حضرت معها منذ بداية اللقاء، طفقت تسترخي مع كل نفس يخرج من خشمها الدقيق المرسوم بدقة متناهية في منتصف وجهها المستدير الرائع، مالت هانوف علىٰ أذن فيحاء وكانت مندمجة بشدة مع تلك الأنفاس، أخبرتها إنها استدعت صديق قديم يتعاطىٰ «الهيروين» لكي يجلب لها تريبحة حتىٰ يعود زوجها، اندهشت، سكتت، استمرت في اجتذاب الأنفاس بلا مبالاة، ظلت مريم تلح وتستفهم، ويتصاعد نهمها الفضولي حتىٰ علمت كل شيء، قبل أن تزول الدهشة من عيني مريم هبت فيحاء من مقعدها بسرعة في اتجاهها، دفنت وجه مريم في صدرها بقوة ناعمة، وكانت هناك همسات ضعيفة مختنقة تعكس حالة نادرة من الضعف أدركتها مريم في حينها، بعد نصف ساعة كان يقف أمام الفتيات شاب فارع الطول، ضخم البنيان، مفتول العضلات، حجب خفوت الضوء في المقهىٰ ملامحه في البداية، توجه سريعا نحو هانوف التي أشرق وجهها واتسعت ابتسامتها بمجرد أن ظهر أمامهم بهذه الحالة من الهندمة والمباغتة، اتخذ مقعده بجوار

هانوف التي ناوشته بسرعة بديهتها عن اختفائه في الفترة الماضية، كانت المرة الأولىٰ التي يتعرف فيها عبد الله علىٰ فيحاء، وكان لقائهم الأول بالطبع، أخبرته هانوف أن يهتم فيها، فهي اعز صديقاتها، صادت عينا عبد الله عيون فيحاء المرتبكة والتي تتمزق من الألم الغامض الذي حل بها دون أن تدري له سببا، مال عبد الله علىٰ فيحاء، اقترب منها بدرجة لافته كأنه يعرفها منذ سنوات، دار بينهما حديثا هامسا جدا، بدا كأنه حميمي، مريم تنظر للطرفين بارتياب وقلق، بعد دقائق أخرج عبد الله لفافة بلاستيكية صغيرة، دسها في كف فيحاء، خط رقم هاتفه النقال بالقلم علىٰ ظهر كفها وهو يطبقه ليخفي اللفافة، مريم تكاد تختنق من الدهشة والغيظ، ظلت صامتة ولم تعلق حتىٰ بعد أن غادر عبد الله طاولة الفتيات وانصرف إلىٰ حال سبيله، هانوف أشارت بسخرية لاذعة إلىٰ ذلك الانسجام الذي تم بسرعة بين فيحاء وعبدا لله، كأنهم أصدقاء قدامىٰ، فيحاء كانت منتشية بشدة من مجرد استحواذها علىٰ كيس البودرة، قاومت بشدة رغبة قهرية قوية للغاية بان تفرد علىٰ ظهر كف يدها خطاٌ وتستنشق في عمق أثناء جلستهم، لكنها نجحت في كبح جماح تلك الرغبة السوداء، كان لهانوف فضل كبير في هذا الأمر أيضا حيث رمتها بالجنون وجلابة الفضائح، أخبرتها بحسم وصرامة إنها لو فعلت ذلك فسوف تجلب لهم فضيحة كبيرة في المقهىٰ، لم تتمالك فيحاء الانتظار أكثر من ذلك، انتفضت واقفة، أصرت علىٰ الرحيل، لم يعجب مريم تصرف هانوف ولا جنون فيحاء، تركت الجميع وقفلت عائدة إلىٰ بيتها في غضب من دون وداعهم، لم تترك هانوف فيحاء تمضىٰ وحدها إلىٰ سيارتها،

اصطحبتها، طول الطريق لم تتوقف عن سرد تفاصيل قصة تعارفها علىٰ عبد الله، وعلاقتها ببودرة «الهيروين» المخدر، كان الكلام يتطاير في الفراغ، يأخذ مكان تلك النسمات الباردة التي اختفت وبدت مؤشرات الرطوبة الخانقة تبسط ردائها السميك اللزج علىٰ المكان، وعلىٰ الجالسين الذين ظهرت عليهم علامات التململ والتعرق، مضت هانوف تشرح كيف التقت مع عبد الله ضمن مجموعة أصدقاء، جذبها بنيانه وطيبته، واستدارة عيناه المتسعتان، جربت معه «الكوكايين» الذي جلبه معه مع عودته من بعثته الدراسية الفاشلة إلىٰ امريكا، استهواها الاثنين، الكوك وعبد الله، خرجت معه عدة مرات، ارتبطت به عاطفيا لبعض الوقت مع أجواء الكوكايين والنشاط العالي، حتىٰ اختفىٰ من حياتها فجأة، بحثت عنه في كل مكان، لا أثر، ولا اتصال، علمت لا حقا أنه تزوج واستقرت أموره، وأما هي فقد حاولت، جاهدت بكل عنفوانها وقوتها للتخلص من الإدمان ومن عبدالله داخلها، نجحت بشجاعة نادرة في التخلص من التأثيرات الإدمانية للكوكايين، لم تحاول المغامرة مرة أخرىٰ، ظهر عبد الله ثانية في حياتها، كان منهارا وضائعا، مطرودا من المنزل، وفاقدا لوظيفته، كان يبحث عن هيروين مخدر هذه المرة، اخبرها أنه يتعاطىٰ «الهيروين» عندما لا يستطيع توفير الكوكايين، حاول استمالتها والعودة اليها، لم تتمكن وقتها من مساعدته، أخبرته بصرامة إنها انقطعت عن جميع أشكال التعاطي، كما إنها لا تستطيع أن تستمر حبيبته مثل السابق، لكن يمكن أن يكونا اصدقاء وفقط، طفقت هانوف تتحدث عن تلك الأيام، وعن الذكريات التي انتعشت اليوم

لحظة ظهور عبدالله واستجابته السريعة لمكالمتها، مؤكد ما يزال مكانها في قبله شاغرا، فيحاء كانت شارده في التريبحة أو الشمة القادمة، فقدت كل ملكات التركيز والتواصل مع الآخرين، كانت هناك في غرفة نومها ترىٰ نفسها تستنشق خط «الهيروين» الذي أعطاه لها عبد الله وارتاحت، ولجت في عالم من الهدوء والسكينة، لم تنبس، دخلت سيارتها، أدارت السويتش وانطلقت بسرعة دون كلمة وداع تلقيها في وجه صديقتها المضطربة بحنين الذكريات، وصديقتها المدمنة التي علىٰ وشك سرقة حبيبها القديم، لم تهدأ هانوف بعد، اتجهت بغضب نحو سيارتها، طفقت تنبش في شعر رأسها طوال طريقها إلىٰ المنزل باحثة عن معنىٰ لكل هذا الاضطراب الذي زلزل كيانها بمجرد لقاءها مع عبدالله هذا المساء، وبعد كل هذه الشهور التي مضت، هل في هذا الأمر اشتياق إلىٰ الكوكايين الذي ادمنته فترة من عمرها، كانت وقتئذ مفعمة بالطاقة والحيوية وقوة الإثارة والبهجة وجموح الخيال، كانت تجد نفسها مندفعة إلىٰ افاق لم تكن تتخيلها أو تحلم بها حينما تكون بين صديقاتها يدخن الشيشة، أو حينما تعبث مع شباب في مثل عمرها داخل إحدىٰ السيارات الصافتة في الظلام، أو داخل إحدىٰ غرف الفنادق الصغيرة المنزوية علىٰ الطرق الجانبية تستكشف أبعاد جسدها الممشوق، وجاذبيته لدىٰ هؤلاء الشبان المتسكعين في المولات لعلها تتعرف وتستكشف وتتذوق طعم ذلك النوع من الاحتكاك وسحره بالشكل الذي نسجته تلك الأساطير التي تتحلق في أخيلة المراهقين المحبوسين داخل سياجات حديدية محكمة الإغلاق، والانغلاق، حيث تهيمن أوامر التحريم والمنع والعيب علىٰ

حساب السماح، وسعة الأفق، وتقبل التغيرات في إيقاع الواقع ومحتواه، نظرت في مرآة السيارة الداخلية، كأنما لمحت صورة عبد الله يشير اليها، لم تتمالك نفسها، ضغطت مكبس البنزين بقوة متهورة، اكتشفت وهي تدفع السيارة بأقصىٰ سرعة كأنه الشوق لعبد الله ينقر قلبها بقوة من جديد، ولا يمنع جسدها المتلهف من الارتجاف، كما اكتشفت أيضا أن استدعاؤه اليوم بهذه السرعة والتلقائية لم يكن من اجل مساعدة صاحبتها فيحاء، بل كان استدعاء داخلي من أجل نفسها، أيضا ضبطت نفسها متلبسة بحالة خاصة من الشغف واللهفة للحنان، والانزواء بين ذراعيه القويين، والنوم متوسدة صدره العريض العاري ومستدفئة بتلك الأعشاب الغزيرة المدهشة من الشعر الأسود الكثيف المزروع في كافة أرجاء صدره وبطنه بدرجة فاتنة ومثيرة للشهوة مثلما كان يحدث في الماضي أيام كانا معا يتعاطين الكوكايين والحب، لكنها الآن تحررت، نفضت يدها من كل ذلك، لم تعد راغبة ولا قادرة علىٰ الولوج في مغامرات أخرىٰ خاصة بعد تجربة حملها من عبدالله المثيرة التي أفقدتها صوابها وقت اكتشافها، كان ذلك في أعقاب اختفائه من حياتها وعلمها خبر زواجه، كادت تجن من أن ينكشف أمر هذا الحمل لدىٰ أسرتها، كتمت الأمر علىٰ الجميع، ظلت تمضىٰ مع أيامها مثل المجنونة، تبحث عن وسيلة للخلاص من هذا الحمل وتجنيب أهلها فضيحة مدوية في هذا البلد الصغير، من فرط انشغالها بهذا الأمر اكتشفت إنها لم تعد بحاجة إلىٰ الكوك، نسيت الكوك تماما، كما إنها لم تعد بحاجة إلىٰ المخدرات، كأن أحدهم أشعل فتيلا موصلا بقنبلة داخل رأسها، انفجرت ونُسِف كل شيء داخل

رأسها بداية من الأفكار القديمة ونهاية بالتصرفات المارقة، تحولت بين ليلة وضحاها إلىٰ شخص آخر مختلف، أكثر انضباطا، والتزاما مع روتين أسرتها التقليدي، أصبحت تستيقظ مبكرا مثلهم، وتظهر في المناسبات الاجتماعية والعائلية الأسبوعية وكذلك أماكن الشراء، وجاء اليوم الذي زارت فيه أحد الأطباء في عيادته الخاصة بتوصية من صديقة مقربة كانت قد أخبرتها بمشكلتها مع حملها الطائش ورغبتها في التخلص منه، ساعدها ذلك الطبيب، ونجحت في التخلص من تلك الشوكة التي نغصت عليها حياتها طيلة أيامها الثقيلة الماضية، نجحت أيضا في التخلص من عمق تأثير عبد الله، لم تعد بحاجة إليه أو إلىٰ أي شخص من أمثاله، بيد أن طيفه زارها اليوم وعاد يضرب دماغها بقوة حينما عاينت فيحاء علىٰ تلك الحالة من التردي والانهيار، أدركت إنها ولجت في نفس ذات الطريق الذي سبق أن دلفت إليه في السابق، تساءلت في اهتمام من خلال خاطر عَنَّ لها فجأة، لماذا؟ هل أصبح عبد الله أميرا للمنكوبات؟ هكذا قالت لنفسها، وقالت أيضا «كم أنت سخيفة وحقيرة أيتها الدناوة حينما تتملكين المرؤ، ويظل يعمل في خدمتك مجانا طيلة حياته، وهو الشخص الغبي المغرور» بدأ الارتياح يسري في أوصالها مع هدوء سرعة السيارة، وابتعادها كثيرا عن الكافية، واكتشافها إنها ربما ليست غبية أو حقيرة، صفت السيارة جوار المنزل، نزلت دون أن تدري متىٰ وأين تلبستها تلك الحالة من الثقة والإصرار علىٰ طي صفحة عبد الله وفيحاء من حياتها وإلىٰ الأبد، ارتسمت علىٰ شفاهها ابتسامة النصر،

بمجـرد أن فتحـت فيحـاء بـاب الشـقة اصـطدمت بوجهـه العـابس الـذابل، كـان مـن الواضـح أنـه سـبقها إلـىٰ الـدخول بلحظات بعـد قضـاء أكثـر مـن ليلتـين بالخـارج، توقـع منهـا أسـئلة، وهـي كـذلك، لكنهـا دلفـت بسـرعة إلىٰ غرفـة نومهـا لتتخفـف مـن عبـاءة الخـروج التـي تشـبعت برطوبـة بحـر الخلـيج، ورائحـة دخـان الشيشـة والسـجائر، والأهـم مـن ذلـك تلـك الالآم الغامضـة، والمنغصـات التـي كـدرت مزاجهـا إلـىٰ هـذه الدرجـة ولـم تـتمكن مـن ايقافهـا أو علـىٰ الأقـل التخفيـف مـن حـدتها، فتحـت حقيبـة يـدها علـىٰ وجـه السـرعة، اخرجـت المغلـف البلاسـتيكي الصـغير الـذي ناولـه لهـا عبـد الله في المقهـىٰ، افرغـت جـزء منـه علـىٰ شـكل خـط رفيـع مـن بـودرة «الهيـروين» طفقـت تـدفق ذرات البـودرة بشـدة إلـىٰ داخـل انفهـا الـدقيق، استكانت منتظـرة لحظـة الولـوج إلـىٰ عـالم السـكينة والراحـة، دخـل عليهـا الغرفـة، كانـت جالسـة علـىٰ كرسـي التسـريحة وقـد مالـت بجـذعها علـىٰ زجاجهـا، احاطـت وجههـا بـذراعيها مستسـلمة فـوق زجـاج التسـريحة، غطـىٰ شـعرها الطويـل الغزيـر النـاعم الـذي صـبغته بـاللون الأحمـر الجـذاب ظهرهـا وزجـاج التسـريحة، بـدا شـعرها مـع انسـكاب الضـوء الأبـيض الشـديد عليـه اضـافة إلـىٰ رقـدتها علـىٰ تلـك الصـورة الهادئـة المريحـة مثيـرا وفاتنـا جـدا، لـم يتمالـك نفسـه، كـأن عبوسـه ونظرتـه الحـائرة واسـئلته المعلقـة تبخـرت مـع هدهدتـه براحـة يـده علـىٰ كتفيهـا، حينمـا حـاول رفـع وجههـا براحتيـه بحنـو بـدت أمـام عينيـه مـع جمـال وجههـا وتلـك الراحـة التـي تكسـوه

اضافة إلىٰ تلك الحالة من السكينة والاسترخاء التي تملكتها في غاية الإثارة، رفعها من علىٰ الكرسي، كانت مستسلمة تماما، ثبتها بين ذراعيه القويين وأرقدها فوق السرير في هدوء، امضيا ليلة مفعمة بالإثارة والرغبة المجنونة في أن يستنزف كل منهم الآخر ويحصل منه علىٰ آخره تحسبا لان ذلك ربما لن يتكرر مرة اخرىٰ، بدا الزوجان في تلك اللحظة الحميمة الفائقة مثل عدوين لدودين يتربصان لبعضهما، وينتقمان كل من الآخر علىٰ طريقته، وقد تمكنا من سرقة لحظة تبدو رائعة للغاية تسامت فوق جل معاني الرومانسية في قواميس الحب ولوعته، والمدهش كان في حرص الزوجين علىٰ أن تتمدد هذه اللحظة ولا تنتهي، ليس عشقا في الحالة واللحظة، بل قوة الرغبة في تصفية الآخر حتىٰ القطرة الأخيرة وإهلاكه، استدارا كل منهما للآخر بعد أن فرغا من بعضهما، سألها عن مصدر «الهيروين» الذي استنشقت، وسألته بعصبية عن سبب تركه لها وتجاهله طيلة اليومين الماضيين وغلقه لهاتفه المحمول، انقشعت غشاوة النصر لدىٰ كلاهما من فوق سرير غرفة النوم، تبارزت الأسئلة وظهر بجلاء صوت اصطكاكها العنيف من خلف الباب، لم يتجشم أي منهما عناء الإجابة عن سؤال واحد لغريمه، ارتفعت حده النقاش والعصبية، أخبرها قبل أن يصفق وراؤه باب غرفة النوم ويذهب أنه قرر التوقف عن التعاطي، ومن الأفضل لها ولأبنائها التوقف أيضا، نظرت إليه بتنمر وغضب لمجرد أنه نجح في إخراجها بحماقته من الدماغ التي

كانت عليها منذ ساعة، مضت أيامها بطيئة ومملة، كأن عطب ما عجيب أصاب آلة دورانها، لم يوقفها تماما، بل تركها تدور ببطء ورتابة شديدين، هكذا كان مزاج فيحاء وإدراكها للزمن الذي أصبح عبئا ثقيلا وكربا لا تستطيع احتماله لدرجة دفعتها للتفكير في الانتحار عدة مرات، لكن شيء ما كان يبعدها عن الاستغراق في الفكرة وانجاز المحاولة، لم تكن متأكدة من طبيعة هذا الشيء الغامض، ولكن الذي تأكدت منه علىٰ وجه اليقين أنه في كل مرة كانت تخرج من وطيس معركة كبيرة مع زوجها لأي سبب من الأسباب سواء كانا في جنبات الصالة، أو داخل إحدىٰ الغرف، أو حتىٰ فوق سرير العشق الذي أصبح ساحة للانتقام والحقد، حيث يسعىٰ كل طرف أن يسحق الآخر ويذله، كانت تشعر بعد كل معركة إنها أكثر إقبالا علىٰ أيامها البطيئة المملة، كما أن تلك الجرعات التي تستنشقها من «الهيروين» المخدر أصبحت تدعمها علىٰ تحمل الملل وتلك الرتابة المزعجة، كما أعانتها أيضا علىٰ احتمال الم حالات الانقباض والعزوف التي تواترت عليها بين الحين والآخر بدرجة كبيرة، تمكن زوجها بالفعل من التوقف عن تعاطي «الهيروين» المخدر، لكنه استبدله بمعاقرة الكحول، اكتشفت أن عودته للكحول هذه المرة ليست مثل السابق، لم يكن الشراب بالنسبة له هذه المرة مجرد كأس أو كأسين يحتسيهما من أجل الترفيه عن نفسه، أو في المناسبات الاجتماعية والعطلات، أو مجرد زجاجات يدسها في المنزل للتسخين

وتهيئة نفسه لقضاء ليلة ساخنة وساحرة مع زوجته الجميلة، بل تحول الأمر هذه المرة إلىٰ إدمان نموذجي، فقد السيطرة علىٰ سلوك تعاطيه إلىٰ المدىٰ الذي ارتبط فيه شريان حياته بتلك القنينة التي لا يمكن أن تغيب عن عينيه لحظة، بل وتستقر نائمة في حضنه في معظم الأحيان، وعندما يفيق من النوم يتجرع منها ما يجعله يتمكن من مغادرة الفراش ودخول الحمام، تدهورت أموره في العمل بصورة دراماتيكية مفاجأة، صدر قرار فصله من وظيفته بسبب عدم انتظامه في العمل وإهماله الجسيم، كذلك تعمقت الفجوة بينه وبين فيحاء، لم يعد بحاجة إليها أو إلىٰ أي شخص آخر، نسج لنفسه عالما خاصا جدا لا ينازعه فيه أحد، أصبحت قنينة الويسكي كل عالمه، ومصدر سعادته وأمل حياته الوحيد علىٰ الأرض، في نفس التزامن تصاعدت مطالب فيحاء لجرعات للهيروين سواء من عبد الله أو من غيره، لكن مع عبد الله اتخذت الأمور مسارا عاطفيا ملتهبا، تعلمت علىٰ يديه تعاطي «الهيروين» عن طريق الحقن بعد أن أقنعها أن تلك الطريقة تصل للمزاج العالي بسرعة أكبر من الاستنشاق، أيضا علمها طريقة «التفليش» وأخبرها إنها ترفع المزاج إلىٰ فوق أعالي السماوات، وكان يتصيد وريدا من أحد ذراعيها أو فخذيها أو أي مكان متاح، ويغرز فيه سن إبرة الحقن، ثم يدفع داخله محلول بودرة «الهيروين» المخدر المطبوخ، وبعد أن ينتهي من دفع المحلول داخل الوريد يبدأ في سحب بعض الدماء من الوريد ذاته، ثم يعيدها ببطء إلىٰ داخل الوريد،

ويستمر الأمر هكذا بنفس الطريقة عدة مرات، وفيحاء أمامه تكاد تجن من قوة ما تشعر به من تخدير وإثارة، تعلمت فيحاء من عبد الله كيف تحقن نفسها بنفسها، دون الحاجة لشخص ثاني يقوم بهذه المهمة، وتعلمت أيضا كيف تفلش لنفسها لتدخل في غياهب جب التخدير والمتعة والإثارة، كانا بعد أن يفرغا من الحقن والتفليش والتحليق في فراغ المتعة الخيالية الساحرة يستفيقان ليكتشفا إنهما في حاجة متهورة للوناسة الفعلية الحقيقة، وإلىٰ حنان حقيقي واقعي، تأكدا من أهمية حاجة كل منهم لكائن بشري ملموس، تجتذبه أو يجتذبها، يشبعها وتشبعه، وكانا في كل مرة يلتقيان في منزلها في غياب زوجها يلجان بعد الحقن والتمتع بلحظات التخدير إلىٰ داخل عالم المتعة الحقيقية المدهشة، كان يهيم بها وكانت تهيم به علىٰ وقع أنين وصرخات بشرية حقيقية تدفع بالجنس البشري للبقاء والاستمرار، لأنها وبكل بساطة متعة تخدير ولكن بين طرفين يتخدران ويستمتعان ثم ينجبون أطفالا في نهاية الأمر، تلك هي المتعة الحقيقية الايجابية البديلة عن لذة التخدير ب«الهيروين» التي تغلب عليها الروح الذاتوية حيث لا يجنىٰ المرؤ منها سوىٰ العزلة والنفور والانحراف، وقد يلقىٰ حتفه قتيلا بجرعة زائدة في نهاية رحلته، عشقت فيحاء عبد الله وعشقها عبد الله بشدة، تبادلا معا متعة المخدر والجنس، وشم صورتها علىٰ ذراعه العريض، وهي أصبحت لا تطيق فراقه، وعلىٰ الرغم من عودة عبد الله إلىٰ زوجته التي كانت قد

هجرت منزل الزوجية في أعقاب خلافات ومشاكل معه، ظلت فيحاء تلاحقه، وظل يلتقيها ويستمتع معها بأيامه، وبمجرد أن علمت بخروجه من المستشفىٰ بعد أن شاهدت سيارته وقد تحركت من مكانها أمام المنزل لاحقته بسرعة، استوقفته عند الحلاق وطلبت منه زيارتها اليوم، بدا أن عبد الله قد تصدع ولم يعد نفس الشخص الذي كان في المستشفىٰ قبل ساعات، لم يعد لديه طاقة لاحتمال تلك الموجات المتتابعة القاسية من الاشتياق واللهفة للتعاطي من جديد، كما لم يعد لديه قدرة علىٰ احتمال الهرب من فيحاء الجميلة، وما تخفيه بين ثنايا ملابسها من بودرة «الهيروين» انفجرت اللهفة لكل شيء، اللهفة للحياة، اللهفة للحب، اللهفة للسفر والحرية، واللهفة الأساسية للهيروين المخدر، كان الحلاق ينهىٰ عمله بالتأكيد علىٰ التخلص من الشعر الزائد، وكان عبد الله يشعر بتقلصات معوية وقشعريرة، وكان الهواء البارد الذي يميز تلك الليلة قد ضرب عظامه توا، قال لنفسه «يا الهي إنها الآم الأعراض الانسحابية، كأنني متوقف عن التعاطي توا «، ومضىٰ من دون تردد يدق باب فيحاء الجميلة.

(10)

لحظات من العشق والانتكاس

في الليالي الضبابية يبدو كل شيء مباح حتىٰ أحقر الأشياء وأحطها، هكذا صاح عبد الله في فيحاء زاعقا فرحا وهو يفرد ذراعيه لكي تستكين كعصفور جميل داخل صدره الواسع، تستدفئ بشعيراته السوداء التي افتقدتها طيلة الليالي السابقة، هذا الزمن الأحمق لا حدود لقدراته، ولا لسحره، أنه قادر علىٰ احتواء كل شيء، حتىٰ تلك الأحلام المجهضة، أو الأماني التي وأدت في التراب، كل شيء يفنىٰ وتظل ساعاته تدور، لا تتوقف عن الازعاج ولا عن اغواء البشر حتىٰ يتدافعون نحو الهلاك، ومع ذلك تظل الساعات تدور من دون توقف، كان المنزل خاليا تماما سواهما، اخذته من يده ومشت به نحو غرفتها، كانت فرحة ومتألقة مثل طيور الصبح حينما تفرد جناحيها وتتراقص كأنها مبتهجة بنسمة اليوم الجديد والحب الجديد، استلم منها عدة الشغل، بحركة سريعة مألوفة جيدا لديه طبخ مسحوق بودرة «الهيروين» وسحبه إلىٰ داخل السرنجة، وبحركة تلقائية أيضا كشف عن ذراعه، طفق يتفحصه بعين الصقر، ثم وجه سن الابرة مباشرة في موضع الوريد الذي صاده بعين الصقر أيضا، لم يتمكن من أن يكون الرجل الجنتلمان الذي يقدم رفيقته علىٰ نفسه اولا، خاصة انهما يلتقيان للمرة الأولىٰ بعد طول غياب، وأحداث كبيرة هزت كيان كل منهم بقوة، إلحاح الخرمة واللهفة لديه كان أكبر واعمق من أن يتيح له

فرصة أن يكون رجلا مهذبا يساير الحكمة الانجليزية بان للنساء الأولوية دائما حتىٰ وهن يتعاطين «الهيروين» المخدر، فيحاء لم تعبأ بذلك بل سعدت لسعادته وحصوله علىٰ مبتغاه أخيرا، فردت ذراعها الحليبي البض، طبخت لنفسها ثم سحبت ثم دفقت، طفقت تفلش وتعبث بالحقنة في وريدها الأزرق اللون، نظفت نفسها من آثار دماء الحقن، دلفت مسرعة علىٰ سريرها واستلقت علىٰ ظهرها، كأنها ولجت إلىٰ داخل العالم الآخر، بينما جلس عبد الله علىٰ حرف السرير يستمتع بما يعتمل داخل رأسه، عاش لحظات هي الأهم في حياته علىٰ الاطلاق، ولج داخل غلاف من السحر المذهل لم يعاينه منذ تعاطىٰ «الهيروين» قبل ذلك المساء وتلك الليلة، شعر بنفسه يتخفف من كل شيء، يطير في عالم من السحر والجمال والأحلام، عالم لذيذ أكثر مما ينبغي، كانت فيحاء جواره علىٰ السرير تهمس في خفوت، كأنها تائهة داخل فراغ سحيق تناجي نفسها، تمدد إلىٰ جوارها، ترك رأسه تذهب إلىٰ أي مكان يمكن أن تذهب اليه بإرادتها ومشيئتها، كان يمكن للأمر أن ينتهي عند هذا الحد لو امتلك عبد الله مفاتيح الجنة التي ولجها منذ أسابيع قليلة داخل مصحة العلاج وإرادة الإقلاع والتغيير، لكنه لم يعد يمتلك أي شيء الآن، خرج خالي الوفاض من معركة وهمية استسلم فيها بسهولة لمصيره وقدره، ورغبته المؤكدة في الهزيمة، غريب أمر المدمن، مخلوق في منتهىٰ الحمق، يسعىٰ بشغف في اتجاه الهزيمة، وربما الموت بأريحية ورغبة مدهشة في الاستغراق في الانعزالية والانزواء، ربما يكون المدمن هو المخلوق الوحيد الذي يسعىٰ إلىٰ تدمير ذاته وهو سعيد وملهوف،

وفي كامل لياقته وصحته ووعيه أيضا، وقع عبدالله في محظور الانتكاسة التي حذروه منها كثيرا أثناء وجوده في مركز العلاج، وعلموه كيفية تلافيها وعدم السقوط داخل براثنها، لكنه سقط في نهاية الأمر، لم يعد هناك متسع من الوقت للتفكير والتراجع، احتوته فيحاء بكامل خلجاتها، كانت مذهلة في مؤانسته أثناء التعاطي وأثناء ولوجهما معا في الأفق الرحيب من الاستغراق الإنساني الهائل، والمتحرر من كافة القيود البشرية وغير البشرية، والذي يعطي لهم وحدهم الحق في بلوغ ذروته إلىٰ منتهاها، وعلىٰ الرغم من اتساع السماوات، وبزوغ القمر كاملا في السماء الزرقاء الرائقة في تلك الليلة، وتوهجه مثل مصباح ضوء هائل في ملكوت مزدحم بأولئك الناس الزاهدين في الوقت والسعي، والتحرر من ربقة غمامة مرمرية منسوجة من ذرات بودرة «الهيروين» المخدر البنية أو البيضاء، كان صدر عبد الله ضيقا للغاية بينما كان يتحوط لنفسه ويتسلل قرب نهاية تلك الليلة القمرية الكاشفة من مخدع فيحاء مغطيا نصف وجهه بغترته دالفا من باب الفيلا الخلفي خشية أن يراه أحدهم من إخوانه أو والده ربما إما داخلا أو خارجا من باب فيلتهم في الجهة المقابلة في نفس الشارع، دلف نحو سيارته التي صفها بعيدا في أحد الشوارع الخلفية، كانت علامات الكآبة والهزيمة قد بدت تبرز من جلد وجهه العريض، انشغل باله كثيرا في طريق قفوله إلي منزله بسبب التفكير في البحث عن مبرر مناسب لعائلته يفسر لهم سبب غيابه طوال نهار وليل أول يوم يتحرر فيه من المستشفىٰ؟ والأخطر من ذلك تلك الحالة التي تلبسته وهيمنت علىٰ خلايا وجهه، وأذبلت عيناه المستديرتان الواسعتان

اللتان طفحتا بالحيوية والنشاط مع خروجه من المصحة الآن وقد عاينهما في مرآة السيارة طافحتان باللون الأحمر الذي يشي بقضائه ليلة طويلة من دون نوم او راحة، ليلة استغرقه فيها نضال قوي مع ليل طويل قاس لدرجة أن اضطره للسهد والترقب، ليلة على شاكلة الليالي الخوالي، وكأن الزمن رده عشرة سنوات للخلف أيام العنفوان وقوة الجسد والرغبة والتمكن والاستمتاع أيضا، كأن رحلة الأسابيع الأربعة الماضية التي أمضاها داخل المستشفى كانت بمثابة محطة استشفاء والتقاط الانفاس، أو استراحة المحارب، أراد خلالها استعادة جسده نظيفا من المخدرات وآثارها، وبريئا وطاهرا وخاليا من رائحة الجنوح والشقاوة، لكن رائحة دماء عامل البقالة الأسيوي الذي شارك في صرعه مع زملائه لم يمكنها أن تغادر خيشومه وأحلامه على الرغم من ذلك، لم يلتقيه أحدهم في الطريق، لم يلتقي سوى بالصمت، والهدوء، والفراغ الذي توغل في أعماقه يمزقها الآن، لأول مرة يشعر أن الفراغ شخص غير قابل للمبارزة والهزيمة، فهو ذلك الفضاء الساحر الماكر الذي يجذبك باشتهاء من جلدك ثم يسلخه عنك بعد ذلك، ويتركك ضعيفا ذليلا أو ضائعا، أغلق باب غرفة نومه ورائه في هدوء احتراما للمشهد على الرغم من التخدير الذي يسري في أوصاله ولايزال يخيم على رأسه وعيناه اللتان بدتا مرهقتين تائهتين تبحثان عن حلم أن ينغلقا، أيقظوه في مساء اليوم التالي نحو الساعة السادسة، لم يكن على ما يرام، الآم رهيبة طفقت تأكل جسده ورأسه، تصرف بعصبية حادة مع الخادمة التي حضرت لإيقاظه، لم يشعر بالمياه وهي تنثال على جسده تنظفه من آثار تخدير الأمس ورائحة

فيحاء، كان لقائه بوالدته علىٰ طاولة الطعام مفصلي للغاية، استجمع كل مهاراته في الكذب والمناورة والتمثيل، يحاول إقناعها أنه كان مع أصدقائه في سهرة بريئة، لم يكن يدرك أن أمه أصبحت قادرة علىٰ اشتمام روائح الكذب والاحتيال والتمثيليات الرخيصة، أخبرته بغير اهتمام أن زوجته ربما تصل في الليل مع والدها، وإنها لا تدري بأمر ذهابه إلىٰ المستشفىٰ، ولا بأمر ما حدث الليلة الماضية، أخبرته أيضا إنها تمكنت من إقناعهم بصعوبة أن عبد الله انصلح حاله وأصبح شخصا آخر، بدت تلك الكلمات موجعة بشدة لقلبه، تمنىٰ لو كانت صفعته عدة مرات وضربته بنعلها ولا تلقي علىٰ رأسه بهذا الحجر الثقيل الذي دهمه في غير وقته وغير أوانه، أنه الآن في قمة ضعفه وهوانه، قال لنفسه وهو يترك الطاولة ويسحب سيجارة ويشعلها، «كم أنتِ قاسية القلب يا أمي إلىٰ هذه الدرجة» تابعته قبل أن يخرج من الباب، أمرته أن يكمل طعامه بسرعة ويستعد للقاء زوجته ووالدها.

(11)

شهر الحزن

مشيئة الأقدار تمضي في طريقها تسحق الأيام التي تنشب مخالبها في رقبة مشعل لعلها تذيقه مرارتها الحقيقية، كان ينفرد بنفسه في غرفته بالعنبر حينما يدرك أن الليل يقترب، يمكث ساعات طوال شارد الذهن في الفضاء البعيد الذي يختبئ عن عينيه خلف تلك الجدران القديمة الباهتة الطلاء والأبواب الحديدية القوية التي تمترس بتجهم تغلق مدخل العنبر الرئيسي في تحد واضح لقدرات المساجين علىٰ الهرب، لم يكن هناك شيء محدد يشغل رأسه سوىٰ رغبته في منح دماغه إجازة من القلق والدوران للأمام وللخلف ولجميع الجهات، كان يترقب نتيجة استئناف الحكم بشغف، والآن يجد نفسه غير قادر علىٰ الاستمرار في الدوران داخل متاهات الأماني والأحلام وانتظار القدر، اكتشف أخيرا طريقته الذهبية لكي يفصل دماغه عن معركة الأفكار التي تنغص عليه أيامه، كان يسحب نفسه من الآخرين قرب نهاية اليوم، يجلس القرفصاء في منتصف مكان رقدته المصنوع من الخرسان المسلح، يثبت عيناه الزائغتان في سقف الغرفة ولا يتحرك، يظل شاردا في غياهب ضبابية غير محددة الشكل ولا المضمون، غياهب يكتنفها بهتان وغموض يزيد من بهجة روحه المضطربة فيتخفف من هذا الاضطراب نوعا ما، يظل علىٰ تلك الحالة حتىٰ تدهمه ضوضاء العنبر وعراك زملائه مع بعضهم البعض

فيستفيق منزعجا غاضبا، لكن حالته تكون أكثر هدوءا واستقرارا علىٰ أي حال، في هذا المكان المحكم الغلق أعاد اكتشاف نفسه من جديد، كما اكتشف أيضا عوالم خارجية أخرىٰ لم تخطر علىٰ باله في يوم من الأيام، استعاد أخيرا قدرته علىٰ الدهشة، وجلسة القرفصاء في حضرة أساتذة كبار في عمليات جلب وتهريب المخدرات وترويجها وتعاطيها أيضا، رأىٰ نفسه مجرد طفل صغير مازالت قدماه تتعثران في أروقة روضة الأطفال في مقابل تلك الكوكبة التي التقاها في السجن المركزي، أيامه المبكرة في السجن وبخاصة تلك الأشهر الثلاثة الأول لم تكن من أيام الله التي يألفها الناس واعتادوها في معيشتهم، بل كانت الجحيم بعينه، وكل الذي سمعه عن السجن وأيامه وما أخبره به أصدقائه الذين امضوا داخله أزمنة من حياتهم كل ذلك يعد لغوا طائشا وعبث أطفال مقارنة بما يشعر به ويعايشه في هذا المكان، اقترب من حافة الجنون عدة مرات، أدرك أن الموت شيء رائع جدا، وتمناه كثيرا حتىٰ ينقذه من عذابات قهر النفس بالاحتجاز في دائرة ضيقة تتكسر خلالها إرادته علىٰ حوافها الداخلية الصلبة، كذلك تكسرت الصدمة وشدتها، والدهشة وقوتها، وعبق الذهول الذي طفح من خلاياه، إضافة إلىٰ كل محاولات الرفض والمقاومة والاحتجاج، كل ذلك يتكسر علىٰ تلك الحواف الصلبة، اكتشف أنه لم يجن سوىٰ الألم ودموع القهر، ومشاعر الرق والعبودية وضياع الحرية، «إنها أيام ما بعدها ولا قبلها أيام أُخر» هكذا كان يقول لنفسه ولزملائه في غرفة العنبر، كانوا يضحكون حوله ويقولون له اصبر سوف تعتاد كل ذلك لاحقا، لكن هيهات، وجد نفسه كالمفعوص بين شقي رحىٰ، أيام

عرجاء شديدة البطء والقتامة، وزمن يتفجر قهرا، هكذا مضت دنياه، ترقب بمنتهىٰ التوجس والقلق لمواعيد جلسات استئناف حكمه، ورحلات مكوكية ذهابا وإيابا من السجن للمحكمة والعكس في حافلة السجن المصفحة التي كانت تجوب الشوارع في حماية تلك الضوضاء التي تشعلها سيارات الحراسة الصغيرة من خلفها وأمامها في مشهد مهيب، يبث الرعب في قلب من يرغب في المغامرة والتصادم مع سلطة الدولة أو هكذا تصور رجال حراسة سيارة السجناء المطلوبين أمام القاضي.

جلسة اليوم كانت حامية الوطيس، قدم المحامي أوراقا وتكلم كثيرا، وكان مشعل يرقب من داخل القفص خلجات القاضي، وكلمات المحامي، لا حظ اختفاء والدته هذه المرة، لم يلمح وجه أحد من إخوانه أيضا يشير له بتحية، كان جل تركيزه في ردود أفعال القاضي وتفاعله مع منطق المحامي، أخيرا قرر القاضي حجز القضية للحكم في الجلسة التالية بعد خمسة وأربعون يوما، بهت لون وجهه، نظر في بؤس إلىٰ المحامي لعله يفتح له باب الأمل في إمكانية الحرية والانعتاق، التفت له المحامي مشفقا، طالع وجهه، ونظرته الحائرة في أسىٰ حينما سأله مشعل عن توقعاته بالنسبة للحكم وهل هناك أمل في الخروج ؟ عاجله المحامي أنه استيقظ علىٰ مكالمة هاتفية من أحد إخوانه، الوالدة توفيت فجر اليوم، طلب منه أن يتشجع بالصبر، بشره أنه سوف يخرج قريبا، غادره بسرعة إلىٰ حال سبيله قبل أن يسأل أسئلة أخرىٰ ربما لا يتمكن من الإجابة عليها، ولج مشعل في حالة لم يعاينها منذ استطالت أطرافه وأصبح علىٰ دراية بكل شيء، كأن القلب

انفطر، جزع، انسالت دموعه، انتفض فجأة، توقف سيل التفكير داخله وبخصوص ذاته، انبجست أمامه صورة أمه، كأنها فكرة خارجة للتو من رحم عقيم لا ينشغل سوىٰ بذاته وفقط، ثم تحولت إلىٰ صور مرئية مجسمة ثلاثية الأبعاد، تروح وتغدو وتبتسم، تهرول خلفه، تحميه بمنتهىٰ الشراسة، تبرر لأشقائه ولجميع الناس عجزه وخطاياه وكافة مصائبه التي إعتاد أن يقذفها في وجههم كل يوم تقريبا، ليس القلب وحده الذي يدمع الآن بل تلك العينان المستديرتان وقد تحجرتا بعد أن جف دمعهم منذ زمن فات، إنها حالة نادرة استحوذت وسيطرت علىٰ رأسه ووجدانه علىٰ غير العادة، كانت حافلة السجن المصفحة تطوف الشوارع قافلة نحو بوابات السجن الفولاذية، الآن ماتت أمه التي طالما عذبها وسربلها بأكاذيبه وحيله الرخيصة وسرقها وتلاعب بمقدراتها، مات الشخص الوحيد في العالم الذي كان يمكنه اللجوء إليه، مات الشخص الوحيد في العالم الذي يتعامل معه بوصفه إنسان محترم !، الآن لم يعد شخص محترم، لاحظ زملائه في الحافلة انخراطه في نوبة بكاء هستيرية لا سبيل للسيطرة عليها، تركوا دموعه تنهمر بحرية حتىٰ استقرت الحافلة داخل السجن، ساعدوه حتىٰ دخل العنبر، استلقىٰ راقدا علىٰ بطنه لا يلوي علىٰ شيء، في المساء كانت ليلة ليلاء، مميزة، توافد عليه المساجين للتعازي، سمحت الإدارة للآخرين من زملائه من العنابر المجاورة ممن علىٰ صلة به لتعزيته في عنبره، كان يجلس وسطهم القرفصاء فوق سريره، ساكنا وقد اكتسىٰ وجهه بحزن بالغ، بدا أشبه بشخص خرج لتوه من انهيار عصبي جسيم، كان زائغ البصر، لم تتوقف عيناه عن الفيضان بذلك الدمع

البارد المحير، الآخرون ممن لا يعرفونه جيدا وحضروا للمساندة والشد علىٰ يديه معزيين اعتقدوا بقوة إنهم أمام رجل فقد أعز شيء كان له في هذه الدنيا بينما اولئك المقربين جيدا منه كانوا يتهامسون فيما بينهم، نعتوه بالممثل الكبير الذي يسعىٰ لاستثمار اللحظة، ويبدو أن تخمينهم كان في محله، حيث تقدم للإدارة في نفس ذات اليوم بطلب خروج مؤقت لحضور مراسم دفن والدته نظرا لأهمية هذا الموضوع بالنسبة له، تم إبلاغه أن علىٰ إخوانه المعنيين التقدم إلىٰ إدارة السجن بطلب خروج مؤقت لحضور الجنازة، تم التواصل مع إخوانه بخصوص هذه المسألة، رفض إخوانه جميعا الفكرة من أساسها، وبالتالي رفضوا التقدم بمثل هذا الطلب، أبلغوه أنها دفنت ظهر يوم وفاتها، هذا الأمر الذي زاد من حدة حنقه وحقده عليهم، تأكد الآن أن خياراته تقلصت، لم يعد لديه سوىٰ انتظار حكم قاضي الاستئناف، كذلك لم يعد لديه سوىٰ التأقلم علىٰ حياته الجديدة والتعامل المناسب مع معيشة السجون، بات من الواضح أن فرص نجاته من السجن تراجعت بعد وفاة والدته بدرجة كبيرة، هكذا ظل يردد لنفسه دائما.

زلزال الأحداث لم يتوقف عند اختفاء والدته الشخص الجوهري الوحيد في حياته فحسب، بل تكاثرت عليه توابع ذلك الزلزال الرهيبة تضرب أركانه ومفاصله وتهز ما بقىٰ له من يقين بإمكانية استعادة نمطية واقع وصورة كان فيهما نجما مميزا بامتياز، يعرف ما الذي يريده، يأخذ من «خيرات «العالم ما يشتهيه، كان يرىٰ نفسه شخصا فريدا، متباهيا، يصنع واقعه بنفسه، يعيش تهويماته

وأوهامه بمنتهىٰ الجرأة والحرية والنزق، لا يمنعه ولا يستطيع أحد ما، أو فكرة ما أن يقفا في طريقه، الآن اختفت أمه المسكينة من واقعه إلىٰ الأبد، توالت توابع الزلزال المدمر لكيانه في ذلك اليوم الذي أصدر فيه قاضي محكمة الاستئناف حكما بتأييد الحكم السابق بسجنه خمسة سنوات وغرامة كبيرة بتهمة الاتجار وتعاطي المخدرات، لم يكن ذلك كل شيء خلال هذا الشهر الذي أطلق عليه تعبير «شهر الحزن «في جلسة خاصة مع صديقه المقرب فهد في غرفة العنبر، جاءته الأخبار أن اشقائه اعتبروه المسئول الأول عن وفاة والدتهم، وبالتالي فهو شخص غير مرغوب فيه، قرروا مقاطعته وتركه لمصيره بعد أن تسبب في ذبح أمهم، قرب نهاية شهر الحزن أصدرت إدارة السجن أمرا بنقل فهد انيسه وصديقه المقرب الوحيد إلىٰ سجن آخر بسبب اقتراب موعد خروجه، وهكذا ضاقت الدنيا حواليه، أصبح ينظر لعالمه من خلال ثقب الإبرة، لا يمكنه أن يدرك أو يتحقق من أي شيء، ظل علىٰ تلك الحالة من التعامي والتشويش مدة شهر اضافي قبل أن ينهار بعد ظهر أحد الأيام وبفقد السيطرة علىٰ انفعالاته وسلوكه، بدأت الاحداث في الصبح الباكر جدا، لم يطرف له جفن ليلتها، ظل ساهدا، كانت عيناه محدقتان في سقف الغرفة الكالح الذي تكشفه «لمبة سهراية» نحيلة الضوء للغاية، كأنها تناجي تلك الماكينات التي يتواتر دورانها داخل رأسه، تستعصىٰ عن التوقف ولو للحظات يلتقط خلالها مجرد «تعسيله «تطفئ ذلك اللظىٰ الذي يقهره، ويدفعه بقوة للجنون، لكن هيهات أن تتوقف تلك الماكينات عن الدوران، وهيهات أن ينجلي ذلك الليل الطويل الممطوط في زمن

أصبح مثل شواية دجاج، كان يرى نفسه يدور ويتقلب داخل هذه الشواية فوق السيخ الحديدي المنغرس بقوة وسط احشائه، وصهد نيران الاسلاك الكهربائية خلف الاسياخ الحديدية ينفث بشدة لهبا ولظى في جنباته واطرافه ويشويه، كان يوما مثل بقية الأيام التي تمر بهم خلال تلك المساحة الضيقة للغاية من الدنيا، وكانوا منتشرين كالعادة في جنبات العنبر منتظرين أمر «الفسحة »، امتلأ المكان بالضجيج المعتاد والحركة، بعضهم ما يزال يتحرك بتكاسل في فراشة، وآخرون خرجوا توا من دورات المياه، أضطجع أحدهم أمام شاشة التلفاز يتفحص باستغراق حركة وجسد المغنية النحيفة وهي تتمايل وتقفز من مكان لآخر، وتخرج من فستان لآخر بدلال أدهشه لدرجة أنه لم يشعر بضغط طرف سبابة كف يده اليمنى القابض على الريموت كونترول وهي ترفع صوت التلفاز عاليا جدا، لم يتذكر مشعل سوى لاحقا أنه انتفض بقوة من فوق فراشه على إثر صوت التلفاز المزعج، وانقض مثل الأسد الجائع المحموم فوق زميله المضطجع باسترخاء واستغراق كامل أمام التلفاز، أوسعه سبابا وضربا في كل أنحاء جسده، لدرجة أن زملائه الذين تكاثروا عليه لتخليص زميلهم من براثنه تمكنوا بصعوبة بالغة من ازاحته بعيدا عنه بعد أن كانت عضلات ذراعيه وكفيه قد تيبستا تماما فوق صدر الرجل ورقبته، وكاد عنقه ينكسر من فرط قوة وعنف مشعل الذي بدا للجميع أنه في حالة غير طبيعية، لم يقف الأمر عند هذا الحد، اندفع من وسط حشد زملائه المتطوعين الذين حاولوا تهدئته وإنهاء الازمة وطفق يسب ويضرب كل من يقابله، انفلتت قبضة يده اليمنى القوية تضرب الهواء تارة،

وتضرب رأس أحدهم أو كتفه، أو بطنه تارة أخرىٰ من دون قدرة علىٰ التحكم والسيطرة، ثم انفلت فجأة من بينهم نحو جهاز التلفاز، كان الشرر يتطاير من عينيه الجاحظتين المستديرتين في جميع الاتجاهات، حمل الجهاز بخفة مدهشة كأنما يحمل ساعة يده، طوحه بقوة في وجه حشد الناس الواقفين قبالته، طار التلفاز في الفراغ وسط العنبر بعد أن ابتعدوا جميعا خشية أن يرتطم برأس أحدهم، سقط بقوة علىٰ الأرضية الرخام الملساء، تناثرت اجزاءه في جميع الأرجاء، تحولت إلىٰ قطع صغيرة متطايرة، وسُمِع صوت ارتطام قوي مثل القنبلة خلع القلوب، وخلق حالة من الجزع كانت كافية لشيوع غمامة فجائية من الصمت المطبق، انتهت الأزمة مع وصول ضباط وحرس السجن نوبتجية تلك الليلة وتكاثرت أعدادهم، عرف مشعل طريقه لأول مرة إلىٰ غرفة العزل، أو «الصاجة» كما يطلقون عليها، والصاجة عبارة عن غرفة ضيقة منزوية في ممر جانبي للعنبر يحتوىٰ علىٰ غرفتين مخصصتين لعزل نزلا السجن المتهيجين وكذلك غير الملتزمين بنظم ولوائح السجن، وأيضا أولئك الأشخاص المضطربين نفسيا اللذين يخشىٰ من تواجدهم وسط النزلاء العاديين، الصاجة في العادة فقيرة ومعتمة إلىٰ حد ما، ليس فيها شيء من ضروريات التسلية أو الترفيه، لا يدخلها سوىٰ الطعام والماء فقط، وتعتبر وسيلة عقابية ناجعة من قبل إدارة السجن ضد من تسول له نفسه اثارة المشاكل أو الاضطرابات أو الشغب، أو أية أعمال قد تعكر من صفو الهدوء والنظام العام للسجن وكذلك الشغب في نوبة الحراسة، يمكث السجين داخل الصاجة مدة يحددها ضابط العنبر المسئول، وكذلك

ضباط الصف المساعدين والعساكر حيث يمتلكون الاريحية والوقت والقدرة علىٰ تكدير المسجون واذلاله حتىٰ لا يكرر فعلته مرة أخرىٰ، وكلمة الصاجة التي راجت بين المساجين والحراس مستمدة علىٰ ما يبدو من غرف أو علب الصاج القديمة التي كانت تستخدم لحبس الفرد «المذنب» داخلها لفترة طويلة معزولا عن الهواء الطازج، والشمس وحركة ونشاط البشر حواليه، والسجين المعاقب بالمكوث فترة في الصاجة يستشعر بعد قضاء عقوبته أن السجن العادي يعتبر جنة ونعيم مقارنة بالعزل في الصاجة، في الصاجة تضيق الدنيا حواليه، وداخله أكثر فأكثر، ينظر للبراح القديم حيث العنبر والرفاق والشجار بين الزملاء، واللعب، والمقالب المتبادلة بينهم، وجلسات الأنس آخر الليل، والخروج للفسحة والملعب، ينظر لكل ذلك البراح من ثقب إبرة دقيق، السجين داخل الصاجة يتربع وحيدا معزولا، يناجي الأفكار الشيطانية المتداخلة التي تحمل عبقا من روائح جهنم، تظل هذه الأفكار تنخر في رأسه ووجدانه واحشائه، وتجود عليه السماء بذكريات من أزمنة سحيقة طمرتها الأيام، لكن الجلسة في الصاجة تنشط هذه الذكريات السوداء وتجلوها، تطلقها من مخبأها محملة بسهامها ورماحها ونصالها الحادة، فتنغرز في خلاياه وداخل ثناياه، ويدمىٰ الجسد والروح، وتنسكب الدموع منهمرة في ذلك الظلام الحالك، داخل الصاجة يماط اللثام عن ذلك المخلوق الضعيف الذي ملأ الدنيا صخبا من دون داعٍ، مخلوق غبي قرر أن يمضىٰ حياته متمردا، محتجا علىٰ القوانين البشَرية والسماوية، ومتحديا وجدانه الذي طالما طارده مطالبا إياه بالهدوء والرحمة، في الصاجة يهتاج

الشجن والحنين، تتحول الكآبة إلىٰ ماكينة لنسج وتطريز الألم غير المحتمل، يا لها من وحدة مرعبة قاسية غريبة، تجمع بين هذا الشخص الضعيف، الخائف، المرعوب أغلب الوقت وبين شبحه القاسي، العنيد، المتمرد، الذي يحمل قلب صخرة، وعيون ثعلب، وجسد كائن اسطوري ذي هيئة كريهة، ولا مثيل له علىٰ وجه البسيطة، ليلتها تم إيداع مشعل الصاجة علىٰ عجل، اغلقوا بابها دونه، تركوه وحيدا ولم يكن قد استفاق بعد من الذهول.

(12)

العشق المجنون

ما أحلىٰ الرجوع إليه، زمن الأيام الخوالي وزقزقة العصافير وهي حرة طليقة، تتنقل، تغرد، تتقافز بين الأغصان بخفة، تصنع عالمها وأنغامها وعلاقاتها، وتتمتع بحياتها وترتشف من اللذات ما تستطيع علىٰ طريقتها وفي كامل حريتها، ما أحلىٰ العودة لزمن فيحاء ولياليها، حيث تتمدد آفاق الحرية والمتعة واللذة، يتسع العالم لجسدان موفوران بالعافية والشباب والرغبة المتمددة، المنتشية بالولوج إلىٰ كافة عوالم الحب والجمال واللذة، ومتعة التخدير السحرية المجنونة، عادت أيام عبدالله الخوالي مع «الهيروين» وفيحاء أو بالأحرىٰ عاد عبدالله لأيامه الخوالي مع الحرية، عادت زوجته أيضا كما أخبرته أمه في اليوم التالي للقائه السري بفيحاء وانتكاسته الكبرىٰ، عادت ولم يكن عبدالله في انتظارها مثلما حذرته أمه قبل خروجه، فقط كانت أمه في استقبالها ووالدها، كان وجهها جامدا، مهيبا، يشي بعدم الرغبة في نبش الماضي، بل وعدم الرغبة في الكلام من أصله، فهمت آمال الرسالة، مدت يدها لحماتها، استأذنت والدها وانسلت صاعدة لغرفتها بسرعة، لم تكن آمال الفتاة السمراء الرشيقة الجميلة التي تتقد عيناها العسليتان الجذابتان بذكاء حاد فطري تفضح كل مظاهره مجرد النظرة في عينيها، لم تكن مجرد زوجة لعبدالله ساقها القدر إليه مثلما حدث ذلك مع العديد من اصدقائه، بل

كانت تعشقه بجنون، وكان عبدالله يعشقها بجنون أيضا، التقت عيناهما في أحد المولات القريبة من بيت عبدالله، كان ذلك في أحد أيام الصيف قبل ثلاثة سنوات، وكان عبدالله خارج لتوه من معركة السنة الاخيرة له في معهد السكرتارية والادارة، لم يكن يطيق المعهد ولا الدراسة ولا زملاء الدراسة، اعتبر كل ذلك مجرد كأسا من السم ينبغي عليه أن يتجرعه علىٰ أي حال، لم يكن لديه توق أو طموح شخصي في اتجاه شيء محدد بعينه، كان يوقن أن امتلاك العالم يكفيه ويعتقد بقوة أنه يمتلك العالم، مرت عليه سنوات الدراسة الثقيلة بغرابة شديدة، حياؤه من أمه وأبيه فقط كان يمثل قوة الدفع الأساسية في مروره من اختبارات المعهد وسنواته العجاف من دون رسوب أو مشكلات مع المكان، انهىٰ اختبار اليوم الأخير في معهده وغادر مباشرة منفردا إلىٰ المول حتىٰ يستمتع بوجبته المفضلة من البيتزا، ويمضىٰ بعض الوقت يراقب الفتيات لعل وعسىٰ أن يخرج بصيد جميل من بين هؤلاء الحسناوات اللائي يملأن جنبات المول، لكي يقضىٰ يومه في حضرتها مستمتعا بفحيحها الأنثوي الأخاذ الذي يعشقه جدا، ويزيح عن نفسه كآبة تلك الأيام المزعجة الفائتة التي اضطر فيها لحبس انفاسه، ومطالعة أوراق وسطور مكتوبة مزعجة غير مريحة.

لكن الذي حدث شيء لم يتصوره ولم يخطر علىٰ باله، وجد نفسه في مواجهة عينان ليسا كعيني أهل الأرض، حدثت الشرارة والتماس والانصهار الساحر الغريب والعجيب، لم يعهد لقلبه أن يبغته وأن يدق بكل هذا التوتر والصخب من قبل لدرجة أنه كاد يقفز من داخل جوفه إلىٰ الخارج مثل «قرموط» السمك الذي أخرجوه

لتوه من ماء النيل، تسمر في مكانه كأنه تكهرب، سرت السخونة الغريبة في جميع خلاياه، وكذلك سرت موجات دفئ متواترة غريبة، يتذكر أنه في ذلك اليوم كان يجلس في كافييه مواجه لمتجر يبيع اكسسوارات نسائية، وكانت تقف وسط جمع من فتيات اخريات وظهرها للمقهىٰ، كان مشغولا يرتشف كوبا من القهوة التركية التي يعشقها، عيناه كانتا ترقبان وتبحثان في القادمين هنا وهناك، مدت بصرها فجأة خلفها كأنما استلفتها شيء أو صوت، وكان يتلذذ برشفات قهوته المفضلة، والذي حدث كأنه بوغت بذلك النوع من التماس الساحر المذهل الذي تملكه لحظة اصطكاك عيناه بعينيها المدهشتين، ظل يتابعها بكامل جوارحه بينما كانت تطوف في جنبات المول حتىٰ غابت، عبدالله لم يعُد أبدا مثلما كان قبل هذا التماس السحري، تزلزل كيانه، أدرك بجلاء أن شيئا ما أُختطف من داخله، وأن عليه استعادته بأي ثمن حتىٰ يتمكن من استعادة توازنه ويعيش حياته بطبيعية، ظل يتردد علىٰ المول بصورة منتظمة، زادت مرات جوسانه داخله، عيناه تدوران وتحملقان في كافة أركانه وثناياه، متاجره الكبيرة وزواياه الصغيرة، أصبح المتجر الذي التقاها داخله بينما كان يجلس علىٰ المقهىٰ المقابلة له ملجأه ومقر مركز مراقبته اليومي، يمضىٰ عليه أغلب ساعات يومه حتىٰ أصبح أحد معالم هذا المقهىٰ المميزين، وحيث أن لكل مجتهد نصيب فقد جاءه نصيبه من حيث لا يحتسب، كان يجوس في المول مثل المعتاد، عيناه زائغتان تتفرسان بلهفة في الوجوه الغادية والرائحة، تسمرت قدماه فجأة أمام متجر الأيس كريم، كانت تقف هناك منفردة تنتظر دورها، كانت ترفل في بنطال أسود فوقه قميص

واسع لونه أحمر نبيتي يتدلىٰ فوق البنطال ويغطي الخصر حتىٰ المؤخرة في درجة ترتضيها من الاحتشام، هذا الاحتشام تجلىٰ بصورة أكثر وضوحا في غطاء الرأس الوردي الجميل ومن تحته البندان بلونه الاسود الداكن شديد التناسق والجاذبية والروعة، كانت عيناها الواسعتان المستديرتان مصوبتان باهتمام متوتر علىٰ اللائحة الرقمية الإلكترونية المعلقة في واجهة المحل الداخلية تتابع دورها في الحصول علىٰ طلبها من الآيس كريم، لا تطيق الانتظار وتمقته بشدة، لكنها مضطرة للانتظار الآن بسبب شدة الزحام اليوم علىٰ طلب الايس كريم، وقف متخشبا أمامها، وشت عيناه ووجنتاه العريضتين بابتسامة منفلتة غير مقصودة، انفلتت مع تزايد ضربات قلبه وتصاعدها لدرجة أنه شعر كأن قلبه يتراقص بين ضلوعه مثل طفل صغير يعانق لعبته التي يعشقها، كأنها تعرفه أو التقته قبل ذلك بزمان، تسمرت مكانها هي أيضا، انحسر بصرها عن لوحة الأرقام الاليكترونية، وغاب التوتر والضوضاء، غابت عن المشهد كله سوىٰ عن عيناه الولهتان المبتسمتان وعن وجهه العريض الذي بدا لها في تلك اللحظة يشعٌ حنانا لم تعهده من قبل، ارتبكت، وارتبك هو أيضا، ابتسمت، وابتسم هو أيضا، رقصت الدنيا كلها داخل أحشائه، انسلت ورائه من دون كلمة، كان المقهىٰ بالمول شبه خال، وكان مستغرقا في سرد تفاصيل حكايته معها، وكانت تطالع وجهه في دهشة ووجل معا، لم تنطق، بل وشت تقاطيعها الدقيقة عن إيمان كامل بما يتطاير داخل قلبه من كلمات، أخبرته اخيرا بانها التقته قبلا ولكن ليس في المول، بل في موقف آخر لن تستطيع البوح به الآن، ادرك حينها أن روحيهما معا

الآن، ومنذ زمن بعيد، قرر الزواج منها مثلما قررت أيضا، سارت أيامهما رائعة، توحدا معا مثلما توحدت ارواحهما قبل قرون على الرغم من نزقه وانسلاله مع شلة من اصحابه يتعاطون المخدرات، كانت له في ذلك تجربة مريرة في بداية الأمر في إحدى سفرات الصيف إلى أمريكا في مطلع مراهقته الصعبة بهدف الحصول على ثانويتها والجامعة أن أمكن، تعلق هناك بالكوكايين في ظرف غاية في الغرابة، كان برفقة صديقته الامريكية الشقراء في أحد المراقص، مندمجان مع أصوات الموسيقى الصاخبة التي تبعثرت نغماتها وايقاعاتها في خلايا الشباب المتواجد بالمرقص، تراقصت ضلوعه واحشائه، تحركت أطرافه نشوة وفرحة ورغبة وعفوية في تشكيلات تمنح القلب الفرصة كي يتراقص ويزهو، انضم اليهم شاب طويل، ممتلئ الجسد، يملك شاربا كثا عريضا، كان يبدو متعرقا، أنفاسه تتابع بسرعة لافتة، اخذه عبدالله من يده نحو الطاولة، تبعتهم الشقراء متلهفة وصخب الموسيقى يلف المكان بالضوضاء والرهبة، جلس الشاب، وشت تعابير وجهه والفاظه بالخوف والارتباك، أخبرهم أنه نجى بالمصادفة من مطاردة بوليسية كبيرة، وان معه كمية من الكوكايين لم يتمكن من تصريفها وانه بحاجة ماسة للنقود لإقراضها لصديقته حالا، كان هذا الشاب هو طوني الصديق المقرب من عبدالله طوال فترة اقامته بالولايات المتحدة الأمريكية، تميز بالشهامة والحميمية وكذلك النزق في علاقته به، كان لا يفترقان، كانت علاقة عبدالله مع بالشقراء مارجريت قد توطدت جدا، أصبحت تقيم بشكل دائم في مخدعه، وأصبح طوني صديقا للاثنين، لم يكن عبدالله مهتما بالتعرف على

تفاصيل معيشة طوني، خلفياته وعلاقاته، كان يعتبر ذلك شأن خاص به، اهتم بما امتلكه هذا الشاب البدين من خصال أخلاقية تقترب من قيمه وأفكاره، وفيما يتعلق بمسائل نزقه السلوكي والفكري اعتبرهما عبدالله متماثلان تقريبا أيضا في الدرجة، اكتشف في تلك الليلة أن طوني يعمل مروج نصف مشهور لل«كوكايين» و«الكراك» في المنطقة، وأنه يتعاطىٰ الكوكايين أيضا لدرجة الإدمان، كما أن معظم أصدقائه من المدمنين والمروجين لل«كوك» أيضا.

حقائق لم تدهش عبدالله فقط لدرجة الارتجاف بل ارتعب من احتمالية متابعته بواسطة الشرطة من جراء علاقته بطوني كل تلك الفترة، تصنع الابتسامة والهدوء، شد بقوة علىٰ كتف طوني وطلب منه الهدوء التام، افرغ كل النقود التي في جيبه في كف طوني، طلب منه أن يذهب بها حالا لصديقته التي تنتظر، أصر طوني أن يعطيه كوكايين عوضا عن النقود، طفق يلُّح عليه بشدة ولم يتركه الا بعد أن دس في كفه لفافة، ثم تلفن علىٰ صديقته وتمتم ببضع كلمات لم يهتم عبدالله بتفاصيلها وانصرف مودعا صديقيه، الغريب أن عبدالله لم تدهمه الدهشة كثيرا حينما فرد كفه وطالع اللفافة التي علقت بها، كأنه معتاد علىٰ ذلك!، طالع وجه صديقته مبتسما وبدت متحمسة، تلفتت حواليها، أصوات الموسيقىٰ الصاخبة والضوء المنسكب بقوة علىٰ الراقصين الشباب مع ايقاعات الدرامز الكبير الذي خلب العقول والاقدام والابصار، كل ذلك خلق حالة عجيبة من الشلل الادراكي سواء للمنهمكين في الرقص داخل الحلبة، أو لدىٰ أولئك المستمتعين بدفق اكواب الكحول داخل حلوقهم خلال هذا الجو السحري

المجنون، سحبت اللفافة من كفه المستسلمة، بحركة سريعة احترافيه ادهشته حينها، اخرجت من حافظة نفودها ورقة بدولار، برمتها حتىٰ أخذت شكل انبوب رفيع، فردت لفافة الكوكايين، استعملت ظافر خنصر كفها الأيمن الناتئ قليلا في استخلاص وتجنيب جزء من ذرات بودرة الكوكايين في اللفافة، طفقت ترسم خيوط رفيعة من الذرات متوازية، بسرعة، ادخلت طرف انبوب ورقة الدولار في خيشومها والطرف الآخر ثبتته فوق الخط الذي ابعدته عن بقيه بوردة اللفافة، استنشقت خط بودرة الكوكايين بقوة وبعمق المحترف، انتظرت قليلا قبل أن تلج في عالم آخر، عبدالله جالس يرقب، يبتسم، مندهش وقلق أيضا، يراقب الناس حواليه، والموسيقىٰ والأضواء وجلبة الدرامز التي تحولت إلىٰ ستارة خافية عن أعين الفضوليين، ومانعة لفضول العيون الدائرة حواليه في هذا الوقت، دقائق قليلة مرت قبل أن تستفيق، وتمد يدها باللفافة وانبوب ورقة الدولار لعبدالله لكي يقلدها، فعلها بتلقائية معهودة بالنسبة له ومرونة عجيبة، كأنه مدمن محترف أيضا، غاب هو الآخر للحظات بعد أن ولج في عالم من الراحة والبهجة وقوة النشاط، يتذكر أن ليلته مع مارجريت عقب ذلك لم تكن عادية، اكتشف في نفسه فحولة افتقدها كثيرا في الفترة الأخيرة، شعر كأنه أصبح مسيطرا علىٰ العالم، كل شيء اصبح بين يديه، كانت مارجريت أيضا مدهشة في كل خلجاتها، اكتشف عبدالله في تلك الليلة وعلىٰ صخب أنغام تلك الموسيقىٰ التي اهتزت لها جدران الملهىٰ بفضل مكبرات الصوت الصاخبة أن طوني دس في كفه كنزا رائعا لم يخطر علىٰ باله اقتناؤه في يوم من الأيام، أنه كنز البهجة والثقة والشعور

بالاستحواذ على العالم والسيطرة عليه، هكذا تعلق بالكوكايين، عشقه بجنون، طار في تهويماته، نزقه، هلوساته، لم يعد لمارجريت أو طوني مكانا في حياته بعد ذلك، كل شيء تسرب منه بعد شهرين بالتمام، نقوده، صحته، هيبته، حتى ملابسه كاد يبيعها، لجأ إلى أصدقائه من العرب، ارسلوه للسفارة في حالة سيئة، كان يبيت في الحدائق العامة في أيامه الأخيرة، وتعرضت له الشرطة عدة مرات، وعاد إلى البلاد كسير النفس، لم ينجح في تعليم ولا في غيره، ظلت موجات اللهفة للكوكايين تطارده بشدة في يقظته ومنامه، لم يعد ينام، لم يعد يستمتع بطعام أو شراب، كان العام الدراسي قد فتح أبوابه منذ أيام، وكان يدرك أنه لم يعد لديه خيارات سوى أن يتخفى وبسرعة في صورة انسان سوي معافى مستقيم تطارده الشائعات القادمة من الولايات المتحدة الامريكية، المدهش أنه نجح في صنع تلك الصورة، وبهذه السرعة الكبيرة، لم يلحظ والداه شيئا يؤكد تلك الحكاوى التي تواترت اليهم عن إدمانه في امريكا واضطراب حياته، ولا أحد من اقاربه أيضا لاحظ شيئا، استجع كل قوته في التحصيل والاجتهاد رغم صعوبة ذلك، لكن إلحاحات اللهفة للتعاطي من جديد كانت غير محتملة، عنيفة وصعبة، قرر أن يجد حلا خاصة أن الكوكايين غير متوفر كثيرا في البلاد، دارت عيونه وقدميه كثيرا، ادرك أنه لن ينال مأربه سوى بالجد والاجتهاد والمخاطرة، خلال علاقاته مع أصدقاء يتعاطون الحشيش في جلسات أُنس فريدة عثر على ضالته، صادت عيناه أحدهم، كان يجلس في ركن منزوي في شقة صديقه القديم ناصر الربيعي، كان قد استأجرها في أحد المناطق الشعبية لينفرد فيها بنفسه،

وبنساء يجلبهن من الشارع، ويتعاطىٰ الحشيش بأريحية كاملة، بدت حالة هذا الشخص مرزيه للغاية، تكاد بقايا السيجارة المشتعلة المشبوكة تلتهم لحم إصبعيه المحشورة بينهما من فرط سطاله وغياب وعيه، بدا مخدرا، شبه نائم، ارتد عبدالله لحالته مع الكوكايين في أواخر أيامه بأمريكا، كأنه يرىٰ نفسه في المرآة، طالع فيه مرة ومرات، سأل عنه ناصر، فلتت منه ضحكة ساخرة، نصحه بالابتعاد عن هذا الشخص لأنه خطير، لم يترك عبدالله ناصر إلا وقد تعرف علىٰ هذا الشاب المسطول جدا، والذي كانت روائح الشارع تفوح من جسده وملابسه بفجاجة غير محتملة، أنه مشعل سكينة، قريب ناصر من بعيد وصديقه اللدود، حضر مع أصدقاء آخرين لم يكن ناصر يرتاح لوجودهم معه، توجه عبدالله نحو مشعل علىٰ أمل أن يخرج من جيبه الكوكايين، نظر إليه مشعل بريبة في البداية قبل أن تسكن عيناه وتعودان إلىٰ عالم التخدير، اكتشف عبدالله «الهيروين» لأول مرة خلال هذا اللقاء، تعاطاه لأول مرة مع مشعل أيضا.

(13)

المتمرد

طار في السماوات المفتوحة بخفة وحرية الطيور، لا يحدها سقف أو أفق، شعر كأن الدنيا عادت للضحك من جديد، وان عليه أن يعود هذه الليلة إلىٰ المنزل وقد استرد وعيه المفقود، وحيويته التي ضاعت بعدما ضاع الكوكايين، الآن استرد طبيعته، استخدم مهارته الفائقة في التغطية والالتفاف علىٰ جميع من حوله حتىٰ يتمكن من أن يبدو طبيعيا، وبالطبع لم يشعر أحدا في البيت أو من المقربين منه أن ثمة تغيرا جوهريا حدث في حياته خاصة بعد عودته من سفرته الأخيرة والجدل الذي تم اثارته حولها وفشله في الحصول علىٰ شهادة دراسية، صارت الأمور لديه هادئة ودودة وشبه طبيعية عن طريق التصالح مع الكوكايين ب«الهيروين» هكذا مضت أيام عبدالله، لكنه كان أحيانا يعثر علىٰ ضالته من الكوكايين، عندها لا يتردد في استعادة أيام امريكا، ونزقه مع ماجي الشقراء التي لم يتمكن أبدا من أن يتخلص من طيفها الذي اعتاد أن يزوره في كل مرة يختلي بنفسه، ويدخل في تهويمات تطير به إلىٰ مخدعه وهما يرتشفان معا من كأس الغرام الانساني الحميم كل انواع البهجة والراحة والحيوية، لكنه نادرا ما كان يصادف الكوكايين فيدلف بسرعة علىٰ الهيرون واصدقاء «الهيروين» يرمم كيانه الذي يكاد يتصدع ويفضحه ويعود إلىٰ أيامه ودراسته الكئيبة ووحدته التي تنغزه بنصل حاد في صدره في كل مرة يخترق فيها جدار

المجون وثرثارات الأهل والاصدقاء، ويدخل في عتمة جدار الصمت القاتل الذي عشقه، ولكنه يميته في كل ثانية تمر عليه، هكذا سارت حياة عبدالله محاولة موائمة غير طبيعية بين واقع صعب، جامد، مرهق وكئيب لا يستطيع احتماله، وعلاج اكتشف عن طريق المصادفة أو المغامرة أنه يعينه علىٰ الوقوف علىٰ قدميه، والغريب أنه خلال فترات تعاطيه الحالية وباستثناء فترة التعاطي في الولايات المتحدة الأمريكية تمكن من ستر نفسه، تحكم بغرابه في سلوك التعاطي، والأثار المترتبة علىٰ هذا السلوك حتىٰ الأثار العضوية منها، والمدهش أيضا أنه ظل حريصا علىٰ متابعة دروسه التي يبغضها أشد البغض ارضاء لأهله، أو ربما شعورا بذنب يقتله في ضرورة أن يحقق شيء ما جوهري وايجابي في حياته، انزلق قلبه بسهولة لم يتصورها ولا في الأحلام في حب فتاة، كان يعتبر نفسه دون جوان الحي، الذي تتحطم تحت قدميه قلوب الحسناوات العذارىٰ، وكان يعتبر نفسه محصنا ضد الوقوع في مثل هذه الزلات الطفولية حسب زعمه، لكن الاقدار دائما تفاجأنا بأمور أغرب من الخيال وخارج نطاق التفكير والتوقعات، تزوج آمال بعد مضي أسبوعين اثنين علىٰ أول لقاء جمعهما معا، تسلم منصبا مرموقا في إحدىٰ شركات والده رجل الأعمال الكبير، مضت أيامه في تلك الفترة بطيئة، فقيرة بالإثارة والأحداث، بين عمل روتيني يستكشف معالمه وغير متحمس له، وبصحبة آخرين حوله يمهدون لهذا الشاب الصغير ويفسحون له الطريق، ويتعاملون معه وهم متأكدون أنه الرئيس الجديد القادم للشركة، وبين زوجته الحسناء آمال التي سلبته عقله في ثوان، وفي سبيلها انتحىٰ مسارا لم يتحسب يوما أن يسلكه،

تملكته رغبة دفينة بعيدة عن شعوره الواعي بان يتخلىٰ عن المخدرات وتستقيم حياته للابد، لذلك اندفع بقوة نحو آمال حبا، فزواجا، فاستقرارا، اندفع أيضا في تحقيق رغبة والده بمنتهىٰ السلاسة ليصبح مجرد ترسا في إحدىٰ مكائن شركاته الكبيرة، وليحكم علىٰ نفسه بالذبول، والانزواء والانطفاء، صحيح لم تستحوذ عليه موهبه مميزة، أو مهارة خاصة، سوىٰ اهتمامه الدائم بالتواجد في الصالة الرياضية (الجيم) بالبناية الضخمة التي تتوسط الميدان القريب من منزله، كان مهتما بشكل جسده وتربية عضلاته أكثر من اهتمامه بألعاب تنافسية أو تصارعيه، كان حريصا علىٰ التعرف علىٰ كافة مستحضرات البروتين والمركبات والمشتقات التي تتضمنه وتعاطيها لهذا الغرض، ربما ذلك الأمر هو الذي رشحه بقوة لكي يصبح مدمنا بجدارة، لم يذكر عبدالله أنه حدد لنفسه هدفا أو تمنىٰ امنية يتوقع من خلالها كيانه عقب سنوات لاحقة، كان يعيش أيامه يوم بيوم، يستمتع بها، مطمئن، خالي البال من أي شيء وكل شيء، لذلك تحول لديه الانحباس في دائرة الوظيفة وحضن آمال إلىٰ كابوس لم يتمكن من تحمله سوىٰ نحو خمسة وأربعون يوما، تلك الفترة كانت كفيلة أن تجعل آمال تعشقه بجنون، تتوحد به، لا تتصور حياتها دونه، الآن كسر عبدالله دائرة الملل والرتابة والحياة البطيئة، وجد نفسه يلهث في احضان اصدقائه ناصر ومشعل وسالم الذي تعرف عليه مؤخرا، بينما أغرقت حقن «الهيروين» الفارغة أرضية المكان أمامهم، وكان الشراب والفتيات والمجون ملح القعدة وبهاراتها، فتيات في عمر الزهور، ونسوة طاف عليهم قطار الكيف ولذته الساحرة، فطفقوا يلتمسونها في كل مكان

حتىٰ ولـو فـوق حجـر رجـال بائسين سيئين واوبـاش، وكـان مـن بـين هؤلاء الفتيات ذات يوم هانوف صديقة فيحاء الحميمة، التـي انزلقـت مـع صـديقات لهـا في تجربـة الكوكـايين والولـوج داخـل عالمـه، هنـاك التقت عبدالله ذات مرة في جلسة انس وتعاطي، انجذبت بقـوة لجسـده وفحولته، اقحمت نفسها في عالمه عدة شهور قبل أن تنفصل عنـه بعـد اكتشاف حملها منه، وتعلن عزوفها بغرابة عن تعاطي الكـوك وكـل مـا يتعلق به، كان السر في ذلك انهـا اكتشـفت إنهـا مندفعـة بقـوة لان تكـون رخيصـة جـدا، وهـي مـن اعتـادت علـىٰ الشـموخ والقيـادة ومجابهـة التحـديات، واجهـت غضـب اسـرتها بقـوة العيـون المتحديـة التـي لا تعرف الخطأ، وليس لديها ما تخشاه، لم يكن أحدا من اخوانها متأكـدا من ولوجها مستنقع الادمان والرزيلـة، مجـرد شـكوك وشـائعات عـن طريق أقاويل مرسلة لأشـخاص مقـربين يتهمونهـا برفقـة شـباب سـيئ السـمعة والسـلوك، هـانوف كانـت تواجـه الغضـب بغضـب مثلـه علـىٰ كبريائها، استبسلت بضراوة تحسد عليها في أن لا تكـون أسـيرة جميلـة لتلك الذرات من بودرة الكوكايين، ربمـا سـاعدها في ذلـك شخصـيتها المتحديـة، أو بسـبب أن الكوكـايين لـيس هـو الشـيء الـذي يمكـن أن يخضع إرادة هانوف الجميلة التـي تتحـدي العـالم كلـه، ولا يمكـن أن تصطفي سوىٰ ما يهوي مزاجها المتقلـب دائمـا، هـانوف خرجـت مـن معركـة الكوكـايين وعبـدالله بمعجـزة وسـلام، اكتفـت فقـط بالشيشـة والسـجائر وجلسـات الصـديقات علـىٰ فـترات متباعـدة علـىٰ مقـاهي شارع الخليج، عن طريقها التقىٰ عبدالله فيحاء، كـان عبـدالله وقتهـا قـد استغرق في تعاطي «الهيروين» بديلا عـن الكوكـايين، بـدا لقـاء عبـدالله

بفيحاء غير طبيعي، اكتشف أنه التقىٰ نصفه الآخر الحقيقي، وليس تلك المخلوقة التي تنتظره دائما في المنزل، تترقبه وتسعىٰ فقط لنظرة حانية ورقيقة، عاش عبدالله حياته الحقيقية وسط أصدقائه وحبيبته فيحاء، ورغم ذلك كان يعمل بكل جهده علىٰ اخفاء هذا الجانب من حياته عن عائلته، لكنها الشمس حينما تسكب نورها علىٰ الكون لا يمكن لشيء أن يكون بمأمن عن الاختباء من أشعتها الفاضحة.

(14)

خروج جديد

علىٰ الرغم من بطئ الايقاع ورتابته ومرارة واقعه الجديد وقد تبدد كل شيء كان يتوقعه ويتمناه، غير أنه تمكن من أن ينسل من عنق الزجاجة الضيق أخيرا إلىٰ رحابة صدرها وقاعها، مع دوران عجلة الأيام في تلك البقعة الضيقة من ارض الله، والمكتظة عن آخرها بالشباب والشيوخ والكهول من كل حدب وصوب، ادرك مشعل أنه لا يستطيع أن يتحدىٰ قدره، وان تلك المساحة الضيقة التي أمره القاضي أن يمضىٰ داخلها خمس سنوات كاملة من عمره يمكن أن تتسع داخله بمقدار اتساع صدره لمصافحة تلك الجداران الكالحة الطلاء، التي تغازل عينيه في كل ثانية، وتلك الاسياخ الحديدية القوية القاسية التي قد تستعصىٰ علىٰ الهواة من أمثاله، لم يكن لديه هناك ثمة حيلة سوىٰ إعلان الرضوخ والاستسلام ورفع الراية البيضاء في وجه ضباط وصف ضباط وعساكر السجن، وأيضا زملائه الأقدم، هكذا بدأت تمضي حركة الأيام بإيقاع أسرع كثيرا، واتساع في حيز المكان أرحب كثيرا عما ذي قبل، كأن عاصفة الأشهر الثلاثة الأول من الحبس قد ولت إلىٰ غير رجعة ولم تخلف من أثر سوىٰ تلك الليالي الثلاثة التي امضاها معزولا في الصاجة يكابد ويلات العزلة والوحدة وقسوة القهر ومرارة الزمن الذي يدور بكل هذا البطء والمرارة، ففقد القدرة علىٰ تمييز نهاره من ليله، الظلام في الصاجة لغة الوقت السائدة

سوىٰ بعض خيوط من الضوء تتسرب من خلال مصباح كهربائي قوي، تتمكن من النفاذ والتخلل من الفتحات السفلية والجانبية لباب الصاجة، دون ذلك يصبح الوقت لديه ظلام في ظلام، لم يتيقن علىٰ وجه التحديد الفترة الزمنية التي قضاها في الصاجة، لكن زملاؤه أخبروه لاحقا، ثلاثة ليالي بالتمام قضاها بصحبة الظلام، وحشرات الارض التي تركت علاماتها غائرة في انحاء جسده، وتلك الرائحة النتنة التي تفوح من جسده وملابسه، ومهيمنة علىٰ أركان المكان، والتي تمكنت خياشيمه من التأقلم معها لاحقا، سيطر عليه اعتقاد أن خياشيمه فقدت حاسة الشم تماما، كان خروجه من الصاجة إيذانا بخروج جديد في حياته، ومرحلة تاريخية له داخل السجن، راقب نفسه جيدا، اكتشف أنه لم يعد هو ذات نفس الشخص الذي انفجر منذ أيام انفجارا رهيبا، وكاد يقتل زميله بالغرفة، ثم رفع جهاز التلفزيون الضخم بين ذراعيه في منتهىٰ الخفة، واطاح به في الهواء فوق رؤوس زملائه، الشخص القافل من الصاجة توا شخص مهزوم، كسير النفس، قهره عنق الزجاجة، حيث علق فيها، استفاق ليكتشف كم هو ضعيف، مسكين، مهزوم، غبي وغير قادر علىٰ الفهم والتعلم، لم يكن مشعل في البداية قادر علىٰ استيعاب فكرة أن يمضي المرؤ في هذا المكان سنوات وسنوات تطول لدرجة قد تصل إلىٰ العشرين أو الثلاثين عاما، أو ربما أكثر من ذلك ويظل متماسكا ومتمسكا بتلابيب الحياة والعيش، كيف يظل هؤلاء الأشخاص متشبثين بأيامهم وبأنفاسهم إلىٰ آخر المدىٰ، لقد شاهد بنفسه أشخاصا يتصارعون في الغرفة، أو العنبر من أجل مكالمة من هاتف أمكن تهريبه من الخارج،

أو يتقاتلون من أجل مشاهدة فيلم أو الاستماع إلىٰ أغنية في التليفزيون علىٰ الرغم من مرور أكثر من عشر سنوات علىٰ وجودهم داخل السجن، وما يزال في رصيدهم سنوات وسنوات أخرىٰ، انها غريزة التكيف الانساني التي سرعان ما تتفاعل مع الواقع الجديد بعد استكشافه، وتنظم له الأسس والقواعد الانسانية الجديدة التي تجعل الشخص قادرا علىٰ الاستمرار والبقاء، في هذه الحالة تصبح بقعة أرض السجن الصغيرة المزدحمة بالبشر أولئك الذين ساقتهم مقاديرهم إلىٰ المخاطرة والمغامرة والخروج علىٰ الاعراف والقوانين البشرية من دون اكتراث أو تردد، وربما بشجاعة يحسدون عليها، تصبح تلك البقعة الضيقة من الارض براحا متمددا ليس له حدود، تصير الحياة رحبه، دافئة، غير مقيدة، وهذا ما انتهىٰ اليه بالضبط بعد الخروج الأخير من الصاجة، حتىٰ وان خلا هذا العالم من صديقه ومؤنس وحدته الوحيد في السجن فهد، تحول دراماتيكي ربما لم يلفت نظر الكثيرين ممن يحيطونه، أو حتىٰ الحراس سواء ضباط أو جنود، لكن استلفت نظره بشدة وتوقف كثيرا مع نفسه محاولا مناجاتها في هذا التحول الكبير في حياته، سأل نفسه كثيرا كيف أصبح مرنا مطاوعا إلىٰ هذه الدرجة ؟ وكان حتىٰ الأمس القريب لا يستمع سوىٰ لصوته، ولا ينفذ غير الذي يريده ويعتقده، كان في الماضي يقاوم بشدة كل فكرة جديدة، أو رأي ليس علىٰ هواه، وكان يقاتل أحيانا لفرض وجهة نظره بغض النظر عن العواقب اللاحقة، الآن يسأل نفسه كيف أصبح خانعا إلىٰ هذه الدرجة؟ ينفذ كل ما يطلب منه بسلاسة، ومن دون مناقشة، يتعامل بتبجيل يقترب كثيرا من

النفاق مع زملاء السجن الأقدم في الوقت الذي بدأوا فيه يخشونه ويتجنبونه عقب فورته الأخيرة وقد كاد يفتك خلالها بزميلهم، والقىٰ جهاز التلفزيون فوق رؤوسهم، الآن هو ذات نفسه من يتودد اليهم، يخطب ودهم، يتعامل معهم بانكسار لافت، لدرجة أن بعضهم استغل الفرصة وتعمد اذلاله بطلبات بدائية، علىٰ شاكلة تنظيف الحمامات، الغريب أنه كان يتقبل كل شيء عن طيب خاطر، أن خروج مشعل من الصاجة وقراره الاعتياد علىٰ حياة السجن تحت كل الظروف وبأية وسيلة حتىٰ لو حوّل نفسه إلىٰ شخص آخر غير ذلك الشخص الذي دخل السجن منحه الفرصة ليندمج مع أيامه واصدقائه الجدد، سواء مساجين، أو جنودا أو حتىٰ ضباط، هنا يصبح الجميع أفرادا في عائلة كبيرة، لكن يتمايزون في الأدوار والظروف، يوحدهم المكان المتمدد داخل الصحراء، تتجمع داخله مشاعر الفرح والحزن والكآبة، وربما الموت، في هذا المكان يمتزج ويتوحد كل شيء يتعلق بالإنسانية والتواصل البشري الراقي، حيث لا تتمكن تلك الجدران العتيقة الكالحة الطلاء، ولا تلك الأسياخ الحديدية القوية من أن تمنع ذلك النوع من التواصل المشاعري بين البشر، هنا يتم تداول مشاعر الحب والامتنان والشفقة والتعاطف بين المساجين وبعضهم، وبين المساجين وسجانيهم من الحرس سواء ضباط أو جنود، لم يعد مشعل مشغولا بإخوانه أو زياراتهم التي انعدمت، أحدهم فقط كان يتجشم عناء مشوار السجن ليترك له بضعة دنانير وسجائر ليس أكثر، ولم يكن يريد منهم أكثر من ذلك، اتصالاته عليهم عن طريق الهواتف المهربة كانت دائما مرتبطة بالتعنيف والاتهامات برغبتهم في الاستئثار

بأموال أمه وحرمانه من ميراثه الشرعي، كان يعنفهم كثيرا، وكانوا أكثر منه شدة وغلظة، هددوه عدة مرات بحرمانه من كامل ميراث والدتهم لو تمادي في سبهم والتطاول عليهم، أبلغوه بوضوح أن ما يفصلهم عن حقه في الميراث مجرد قضية يرفعونها ضده، عندها لن يجد القاضي سبيلا غير الحكم بالحجر علىٰ أمواله لمصلحتهم، ويصبح أسيرا لهم إلىٰ الأبد، عند هذا الأمر فكر في تغيير استراتيجيته للتعامل معهم، قال لنفسه أنه سبق أن غير أساليب تعامله مع الآخرين في السجن وتمكن من التأقلم والتكيف مع عالم السجن الذي كان رهيبا بالأمس، فلماذا لا أغير اسلوب تعاملي مع إخواني حتىٰ اتمكن من الحصول علىٰ حقوقي المالية لديهم، وبالفعل تمكن من التحول.

(15)

المتحول

في منطقة كانت نائية حتىٰ عهد قريب قبل أن يبدأ الزحف العمراني في السيطرة عليها، تمدد طريق سريع يشق الصحراء، علىٰ جانبيه لا يوجد سوىٰ فضاء فسيح ممتزج بلون حبات الرمل الاصفر، يتخلله أشكالا لأعمدة وهياكل خرسانية متناثرة علىٰ الجانبين وحوائط لبنايات غير مكتملة تبدو من تشكيلاتها الهندسية كأنها تجهيز لإنشاء مصانع أو مخازن أو متاجر ضخمة، كلما اقتربت من النصف الثاني للطريق تتبدد تلك الاشكال المعمارية، وتبدو حبات الرمل الاصفر علىٰ الجانبين تكشر بضراوة عن أنيابها، لكن عند هذه النقطة ترتفع الأرض قليلا قبل أن تضطر للانحناء في الطريق العكسي ثم بضعة أمتار تعرج يمينا وتأخذ عينيك ربوة مرتفعة قليلا عن سطح الأرض علىٰ شكل مثلث كأنه متساوي الأضلاع محاط بأسوار خرسانية مرتفعة ومهيبة تشي لك كأنك في مواجهة قلعة حصينة، عاتية متجهمة، تثير القلق لدىٰ كل من ينظر نحوها أو يتوجه اليها، لم يكن هذا البناء الضخم مجرد سجن يأوي المجرمين من المواطنين والمقيمين الخارجين عن القانون فحسب، بل تعمد مشيدوه أن يحمل رسالة هندسية بصرية جلية وقوية سواء للقاطنين داخله أو للمارين في طريقه أن هيبة الدولة غالبة، وإن كل شيء تحت السيطرة، وإن النظام منيع بقوة مناعة تلك القلعة الحصينة التي تأوي الخارجين علىٰ نظام

الدولة وعلىٰ القانون، أيضا يحمل رسالة قوية لهؤلاء اللذين يفكرون في مناوئة نظام الحكم المستقر وفق تصوراتهم، كذلك لم يكن مجمع السجون القائم علىٰ تلك الربوة مجرد مكان حصين ورمز، بل عالم، وواقع متفرد ومدهش، يتشكل كل لحظة من الأحداث والأفكار والصور التي ربما تفوق التصور، عالم تنصهر داخله وتتداخل الخبرات، والمشاعر الانسانية في ذلك المنحنىٰ الضيق فتبدو أكثر بريقا ودهشة، وفي أحيان كثيرة تبدو أكثر إبداعا وروعة علىٰ الرغم من مرارة الحبس والقهر، استغرق هذا العالم مشعل وزملائه مثلما استغرقوا فيه وداخله، تمكنوا من تعويض ضيق المكان باتساع الزمن وتمدده، عاشوا زمانهم المتمدد بكل خلجاته وتفاصيله الدقيقة، علاقات سرية وعلنية، سوية وشاذة، تهريب واتجار وتعاطي مخدرات وخمور وادوية مؤثرات عقلية من كافة الاصناف والأشكال، وفكر اجرامي رفيع المستوىٰ، لم يكن هناك ثمة شيء يمكن أن يعيقهم عن التواصل بطبيعية وأريحية مع الواقع الخارجي علىٰ الرغم من كل تلك التحصينات المنيعة، كل شيء متاح في تلك البقعة الضيقة من الارض بداية من الصلاة والتدين وقراءة القرآن، والتعليم، حتىٰ تهريب وتعاطي والاتجار في المخدرات والخمور وكذلك اللواط، عالم سخي بلحظاته الفريدة التي اكدت علىٰ أن ضيق المكان ليس مبررا لمنع الانسان من التمتع بحياته مثلما يحب، وإن الزمن ربما يكون العامل الحاسم في بلوغ المرؤ قدرة توسيع افق المكان إلىٰ أبعد مدىٰ، هكذا عاش مشعل أيامه، نهار من الحركة والنشاط والدأب والاندماج مع كل أصناف المجتمع في هذا المكان، نزلاء، حراس وعمال، وحتىٰ

أطباء مستشفى السجن، وطاقم الممرضين، جميعهم أصبحوا اصدقائه، نجح في أن يحتوي الجميع ببراعة مدهشة، بدا أنه تغير تماما، لم يعد هو نفس الشاب الذي عاش حياته تائها في ملكوت الارض، يسعى طول الوقت لخدمة نفس لا تتوقف عن النهم، والاستعلاء والتلذذ، لم يكن هناك شيء يمكن أن يردعه من تحقيق مراده في المتعة والحب والمغامرة، والتعامل مع الواقع وفق منظور شخصي فريد، كان يتخذ من التصرفات الهوسية ستارا حديديا لمتابعة وتنفيذ نزواته وإشباع رغباته في الجنس والمخدرات، كان على قناعة أن أحد لا يستطيع أن يوقفه، أو يحدد له مساره، لكنه بالطبع لم يكن يدرك أنه يتخفى في ظلال تلك الحالة الهوسية من ألم الوحدة الرهيب الذي لم يستطيع احتماله أبدا، كان ينطلق في الشوارع في أول الليل، وحده أو مع اصدقائه متأكدا من أنه يملك مفاتيح هذا العالم، يصيح بأقصى ما يستطيع، يضحك بقهقهة تشق عنان السماء، كأنما يعلن لنفسه أنه القوة الأعظم على ظهر الأرض، وكان اصدقاؤه يخشون تقلباته ونزواته، ويتوجسون كثيرا من افعاله وتصرفاته، لكنهم لم يستطيعون الابتعاد عن فلكه أبدا، تبدل مشعل تبدلا دراماتيكيا ملحوظا في هذه الآونة، أصبح أكثر وداعة وحكمة، وأكثر قربا من الجميع بمختلف أطيافهم، لم يعد له طمع أو نهم في سلطة أو نفوذ، أو رغبة في الاستحواذ على ما يملكه الآخرون، بل حدث العكس، تحول لشخص معطاء، ينثر خدماته على الجميع بلا استثناء، تخطت مبادراته الانسانية وتصرفاته مع زملاء السجن، وحتى ضباط الصف من الحراس حدود الواقع التقليدي، إلى الواقع المدهش الذي يخلب

الالبـاب، اكتسـب شـعبية كبيـرة داخـل السـجن في فـترة وجيـزة، صـار الناس يتحاكون عن جدعنته وأخلاقـه، وإيثـاره الـدائم للآخـرين علىٰ نفسه في جميع المواقف والمناسبات، والأهم من ذلك أنه نجـح في أن يتوقف عـن تعـاطي «الهيـروين» علىٰ الـرغم مـن اتاحتـه بـوفرة داخـل السـجن، وتعـاطي الكثيـرين مـن زملائـه لـه داخـل الغرفـة، نجـح في الصـمود والتوقـف، لكـن قـوة ضـغط الخرمـة واللهفـة وغصـة المـزاج كانت فوق احتماله وإمكاناته، استعوض مخـدر «الهيـروين» بتـدخين سيجارة الحشيش، كان يتلـذذ بشـدة بينمـا كـان يشـد الـنفس ويسـحب الدخان بعمق داخـل تجويفـه، ثـم يشـرع في إزاحتـه بعـد ذلـك في فـراغ غرفه السـجن ببطء لافـت، اكتشـف طريقـه للسـعادة في شـيئين هـامين هما، طريقته الجديدة في التعامل مع واقعـه، والبشـر، وكـذلك في تلـك السيجارة التـي يتحصـل عليهـا آخـر الليـل، ويتجمـع مـع زملائـه فـوق سرير أحدهم في الغرفة ينفسونها في تلذذ مفعم بالسعادة والمتعـة، كـان يردد لنفسه في أحيان كثيرة أن تـأثير متعتـه مـع سيجارة الحشـيش ربمـا يفوق كثيرا ما كان يتحصل عليهـا أيـام حقـن «الهيـروين» والتسكع في الشـوارع والطرقـات وجميـع مغامراتـه في زمـن الحريـة الـذي انفلـت عقاله، واضطره إلىٰ أن يسرق، ويقتل عامل البقالة، ويتسبب في مـوت امه المسكينة بدم بارد، وقطع كافة سبل الاتصـال والمـودة مع إخوانـه وأخواته، قال لنفسه في لحظة صفاء وهدوء ربما أكون الآن علىٰ وشك انجاز شيء هام في حياتي خلال تلـك الفـترة، أو علىٰ الأقـل أعتقـد أني أرغب في إنجاز ذلك.

(16)

لحظة مجنونة

حينما تشاء الأقدار فلا راد لمشيئتها، عندها تعمى الابصار التي في الوجوه، وفي العقول أيضا، هكذا سارت حياة عبدالله بعد أن اجتاحته موجة الانتكاسة الرهيبة، ربما كان يتحسب لهذا الموقف ولهذه النتيجة، لكن لم يكن يدور في خلده اطلاقا أن يصل الأمر إلى هذه الدرجة من الانهيار وفقدان السيطرة بهذه السرعة، يكاد يجن، أصبح خارج نطاق الخدمة والسيطرة، يدور بسيارته في الشوارع ساعات طويلة من غير هدى، يحاول لملمة شتات نفسه من دون جدوى، وهو المعروف عنه بين أقاربه وأصدقائه بالرزانة والهدوء، وقدرته السحرية على رباطة الجأش، ولملمة شتات نفسه في أوقات الأزمات الصعبة، لكن لا يستطيع الآن، السيارة تفر في الشوارع، تخترق الميادين، لا تلقى بالا لعلامات إشارات المرور الضوئية، ومع سرعة السيارة المجنونة يفر العقل إلى غير وجهة معلومة أو هدف محدد، المحال على الجانبين مضيئة، حركة الناس في الشوارع تمضي كالمعتاد، صوت الموسيقي المنبعث من كاسيت السيارة يلهث مع دورانها بمثل هذه السرعة الجنونية، كأنما انفلت العقال في تلك اللحظة المجنونة، الآن يختفي المعنى والهدف، يتوحد المكان

واللحظة في غمامة سرمدية مطمورة داخل التلافيف العميقة للوعي المطلق، كأنه يعيش الآن لحظة كاشفة، ربما تكون لحظة نادرة في حياته فيما يتملكه الآن من توق شديد إلىٰ العروج إلىٰ تلك السماوات الزرقاء المفتوحة علىٰ مصراعيها، كأنها في شوق إلىٰ تصعيده إلىٰ رحابها، وإراحته من كل تلك المتاعب والأزمات، عبدالله يرغب في ذلك الآن، وبمنتهىٰ القوة والهوس، يكبس بكامل قدمه اليمنىٰ، وبعنفوانه المتفكك دواسة البنزين دون إرادة منه أو قدرة علىٰ التحكم، تنطلق السيارة بأقصىٰ سرعة، تذهب إلىٰ أقصىٰ مكان يمكن أن تنتهي عنده كل متاعبه وأيامه المجنونة، لكن السماء رحيمة للغاية، والقدر ما يزال عند حسن ظنه بهذا الشاب القادم من عمق العتمة من أجل البحث عن بقعة ضوء صغيرة ربما يلتقيها في نهاية ذلك النفق المظلم الطويل الذي اقحم نفسه داخله بكامل ارادته الحرة، ورغبته المتدفقة دوما في الاستكشاف والمخاطرة والمغامرة والولوج إلىٰ أقصىٰ درجات الإشباع الحسي الإنساني بأقصىٰ مدىٰ ممكن، الذي حدث بالضبط أن السيارة المسرعة المنفلت عقالها اقتحمت جزيرة الميدان الخضراء، وارتطمت عدة مرات بشجيرات صغيرة متناثرة منزرعة وسط الميدان الهادئ جدا، لكن هذه الشجيرات تملك جذوعا، وجذورا قوية جعلتها مثل الوتد المغروس بقوة في الأرض، تمكنت من كبح جنون السيارة المنفلتة قبل أن ينتهىٰ الأمر إلىٰ اصطدامها بجذع شجرة السنط الكبيرة القريبة من الطرف

الغربي للميدان، الأمر الذي نتج عنه اهتزازة قوية لشجرة السنط العملاقة، لكنها تمكنت بمعجزة من احتضان السيارة المجنونة، وأوقفت انفلاتها واندفاعها إلىٰ الطريق الاسفلتي المعاكس حيث السيارات المسرعة الغير قابلة للسيطرة من الجهة الأخرىٰ، توقفت سيارة عبدالله الثائرة عن الحركة تماما واستقرت في حضن شجرة السنط العجوزة، اصيب كل شيء بالشلل والصمت لحظات طويلة، لم ينشغل أحد من المترجلين القلائل في هذه الساعة المتأخرة من الليل سوىٰ بالحملقة والجري هنا وهناك بحثا عن مصدر هذه الفرقعة الرهيبة، صوت ارتطام السيارة بعد اقتحامها الجزيرة الخضراء للميدان الواسع خلع القلوب، شاهد الناس غبار كثيف ودخان يخرج من تلك السيارة المنكوبة، وكان هناك صمت مريب، ربما تحققت مشيئة عبدالله جزئيا بعد هذا الحادث الكبير، دخل في غيبوبة عميقة، انقطعت صلته بالوجود ثلاثة أسابيع كاملة، غائب في ملكوت آخر ليس له صلة بأهل الأرض، كل ما يربطه بالوجود خراطيم واجهزة طبية يتدثر بها ورسومات بيانية ضوئية كهربائية باهتة تعكس إشارات وعلامات واهنة، صارخة صادرة من دماغه الذي واجه الهول العظيم، وارتطم رأسه وجسده عدة مرات بمقود السيارة ودواخلها بقوة مهولة، تباينت الأحوال والأيام والانفعالات مع تكاثر أهله وأقاربه وأصدقائه حول غرفة الرعاية المكثفة وداخلها، ظهرت وجوه كثيرة في البداية، كانت تبدو حزينة، مهلوعة، ومنكسرة، ورجال

ونساء يطاردون الاطباء للاستفهام، واصطياد نفحة من الأمل بإمكانية أن تعود الحياة لهذا الجسد المسجىٰ شبه الميت، كانت أمه بجسدها الفارع المميز تحتوي الجميع، وتشير للجميع، حولها كان يدور أبوه الذي انفلتت مشاعره كثيرا عدة مرات، شوهد يبكي بحرقة غير معهودة علىٰ عتبات غرفة الرعاية وداخلها لدرجة اضطرار أبنائه إلىٰ اخراجه إلىٰ الاستراحة، وفي نفس الدائرة كانت تدور زوجة عبدالله واخوانه واخواته، واصدقائه واقاربه، زوجته ظهرت شديدة الأسىٰ والهلع، كانت تلاحق الاطباء والممرضات بمجرد ظهور أحدهم، كانت تتلقىٰ الكلمة المعتادة التي سمعتها عشرات المرات من قبل نريده فقط أن يفوق، إذا فاق سوف نعبر الأزمة ويكون بخير، هكذا انتظمت نوبات تواجدهم بالمستشفىٰ لمتابعة ماكينة ذلك الجسد المسجىٰ من دون حراك، يصدر عنها أنفاس واهنة متلاحقة مرتفعة الصوت، مصدره هذا الجسد الواهن الصامت، صمت الموتىٰ لكن تخاله في كل مرة تنظر إليه كأنه يسمعك، يتابعك في نظراتك وحركاتك، يتوحد مع مشاعرك البائسة وانفعالاتك المتعاطفة، ويشاركك في كل ذلك، فتطمئن نفسك، وتخرج إلىٰ الناس خارج غرفة الرعاية أو في الاستراحة في الخارج تهدئ من روعهم، وتقسم لهم أن عبدالله بخير، لكن هيهات الأيام تمضي ورياح التشاؤم تهب في أركان غرفة الرعاية والاستراحة وتتكاثر الغيوم السوداء في صدور المنتظرين، يطول الانتظار من دون طائل، أعداد مقاعد

الـزوار المتعـاطفين المترقبـين بالاسـتراحة تتنـاقص تـدريجيا حتـىٰ اقتصــر المشـــهد علــىٰ الزوجــة الشــابة الهلعــة، التـــي اكتســـت ملامحهـا الجميلـة الجذابـة المبهجـة بطبقـة سـميكة مـن البهتـان والانطفــاء والاكتئــاب، تلــك الملامــح التــي خطفتــه يومــا مــا، وبـدلت قناعاتـه وخياراتـه، لكنهـا فشـلت في تغيـير مسـارات حياتـه وسـلوكياته القديمـة، مازالـت هنـاك أيضـا أُمـه القويـة، الرابضـة بشـموخ في صـدر القاعـة لا تلـوي علـىٰ شـيء، لكنهـا تـنهض كـل خمــس دقــائق مدفوعــة بالتصــنت والاســتماع إلــىٰ صــوت الانفـاس، تترقبهـا وتطالعهـا مـن خـلال زجـاج بـاب غرفـة الرعايـة، لــم يعــد لــديها القــدرة علــىٰ دخــول غرفتــه والجلــوس جــواره ومطالعتـه علـىٰ هـذه الحالـة الصـعبة مثـل السـابق، لـديها إيمـان قـوي أنـه سـوف يعـود ويحادثهـا وتحادثـه مـن جديـد، أيضـا كـان يظهـر مـن بعيـد شـبح فيحـاء الجميلـة، كانـت تحـوم كـل يـوم تقريبـا حـول الغرفـة وتختلس نظـرة علـىٰ الماشـي مـن خـلال زجـاج غرفـة الرعايـة، كانـت تتعمـد الاختبـاء، واخفـاء نفسـها عـن طريـق تغطيـة وجههـا كـاملا في النقـاب، كانـت منهـارة تمامـا، ربمـا شـعر عبـدالله بهـا وهـي تنتحـب، ورأىٰ دموعهـا السـاخنة التـي تـذرفها مـن خلـف غطـاء الوجـه، هـذا مـا كانـت تعتقـد، ومتأكـدة منـه علـىٰ أي حـال، في نهايـة الأسـبوع الثالـث علـىٰ الحـادث، وبينمـا كانـت أم عبـدالله ناعسـه بعـد الظهـر في الاسـتراحة، وفي ظـل تلـك الريـاح العاتيـة مـن التشــاؤم بخصــوص إمكانيــة إفاقتــه وعودتــه للحيــاة مــرة أخــرىٰ، اسـتفاقت السـيدة مـن غفلتهـا علـىٰ أصـوات تـدافع الممرضـات

والطبيب نحو غرفة عبدالله، انخلع قلبها بشدة وتهيأت للخبر المحتوم برفع أجهزة التنفس الاصطناعي ومنحها الإذن بدفن ابنها الشاب صريع حادث السيارة، تسمرت قدميها بالأرض، اكتفت بالمطالعة، لكن الشيء المثير للدهشة أن الممرضة هرعت إليها بسرعة، حمل وجهها ابتسامة الحياة للعالم كما روت أم عبدالله ذلك لاحقا، اخبرتها الممرضة أن عبدالله فاق من الغيبوبة، وسوف يستعيد صحته قريبا، أخبرتها أيضا أن امرأة شابة منتقبة من الزوار جاءت اليهم وأخبرتهم علىٰ كاونتر التمريض أنها شاهدت عبدالله يحرك ذراعيه، وطالبتهم إخبار الطبيب المسئول فورا، هرعت أم عبدالله نحو الغرفة، كأن الحياة عادت إليها مع استعادة عبدالله لوعيه المفقود، ولحركة جسده، اغرورقت عيناها بدموع ساخنة نجحت في حبسها عن نفسها وعن الجميع طوال تلك الفترة العصيبة من حياتها وأيامها، طالعت الناس حواليها تبحث عن تلك المرأة الشابة المنتقبة التي شهدت لحظة استعادة عبدالله لحياته وهرعت بسرعة لإبلاغ الطبيب بذلك، لكن لم تعثر علىٰ أحد.

(17)

العاشقة

ربما لن تتمكن ذاكرتها من محو تلك اللحظات الفريدة في حياتها، مخاض عسير عاينته فيحاء منذ علمت بنبأ تعرض عبدالله لحادث السيارة، كانت قد لاحظت حركة غير اعتيادية في محيط فيلا عبدالله المقابلة لفيلتها حيث يقطن وعائلته، توجست للأمر بشدة بعد اختفائه المفاجئ عنها وانقطاع اتصالاته، كادت تجن من فرط القلق والخوف من حدوث مكروه أو إمكانية فقده، تنازعت ضربات قلبها مع هواجسها المتواترة بشدة، يحدث ذلك بصفة خاصة كلما التقطت هاتفها الخلوي والحت في طلب رقم هاتفه، يصدمها دائما صوت المرأة السخيف وآلة التسجيل التي تنعق ملحة في أذنيها كالوسواس القبيح أن الهاتف إما مغلق أو خارج منطقة التغطية يرجى الاتصال في وقت آخر، تحسست أخباره، تعلقت عيناها طوال الوقت في اتجاه بوابة الفيلا المقابلة وهواجسها تطاردها، فما تكاد تفرغ من عمل أي شيء روتيني بالمنزل تهرع سريعا إلى الشباك، تصوب نظراتها وتثبتها على بوابة الفيلا على الجانب الآخر، تراقب المرتادين، كادت تجن من فرط القلق وانشغال البال، كأنما اكتشفت خلال هذه الأيام الفائتة مدى تغلغل عبدالله داخلها، كأنه روحها أو نفسها الذي يبقيها على قيد الحياة، منذ علمها بخروجه من مصحة العلاج من الإدمان، وولوجها اليه هرعا تستدعيه بينما كان مسترخيا فوق كرسي الحلاق وهي

تلازمه تقريبا أغلب ساعات اليوم الذي يقضيانه في حالة استيقاظ، كأن عودته إليها كانت بمثابة نفخ الحياة في روحها التي ماتت، وهلكت معها حيويتها وانوثتها ونضارتها، أضحت مجرد جسد يظهر للناس مثل شبح إنساني واهن يستثير شفقة الآخرين دون أن يشعر بهم أو يراهم، في هذه الأيام كانت علاقتها بزوجها بلغت حدا فريدا من العلاقات الانسانية بين زوج من البشر يجمع جسديهم مأوىٰ واحد آخر الليل، كأنما قد حدث بينهما اتفاق غير معلن وغير مكتوب وغير متفق عليه رسميا بينهما، أن يعيش كل منهما داخل عالمه الخاص، لا علاقات شخصية تجمع بينهما، ولكل طرف مطلق الحرية في أن يفعل ما يحلو له في المكان والزمان الذي يختاره من دون أن يعترض الطرف الآخر أو يحتج أو حتىٰ مجرد أن يرمقه ولو بنظرة، هكذا سارت أيامهما سويا في حضن بيت واسع، فارغ وكئيب لا يرجع الصدىٰ لأي حدث أو شيء، لم ينشغل زوجها في تلك الأيام سوىٰ بتلك الزجاجة الساحرة التي أضحت تبدو لعينيه الذابلتين المرهقتين مثل عروس فائقة الجمال في ليلة زفافها تتراقص أمامه كل ثانية، ويفعل ذلك أيضا وهو يعب ما يخرج من جوفها إلىٰ جوفه من خمرها الذي استلب كيانه وروحه، ولج به الخمر إلىٰ آفاق متباعدة منحته الحيوية والراحة والأهم من كل ذلك الهروب من كافة مسئوليات وتبعات ذلك الواقع الصعب الشائك الذي لم يعد بمقدوره احتماله، أو حتىٰ مجرد احتمال التنفس بين جدرانه وسياقه، أصبح الآن خارج نطاق الخدمة بمعايير الواقع التقليدية، تحول إلىٰ شخص بلا عمل بعد طرده من وظيفته نتيجة لإسرافه في الشراب واضطراب أحواله، كان حتىٰ عهد

قريب يزهو بنفسه في خطواته وهو يرتدي يوني فورم الطيارين المدنيين المميز، يختال بين أقرانه باعتباره الأفضل والأعظم علىٰ الاطلاق، لم تنحصر المسألة فقط في ذكائه أو مهارته العالية في التركيز وحسن أدائه في العمل فحسب، بل في ذلك المدىٰ الواسع من العشق والاعتزاز لدرجة الهوس بمهنته كطيار ورغبته الجارفة في تحقيق حلمه في أن يكون طيارا، جاهد وثابر وتحمل مشاق كثيرة من أجل تحقيق خيالات وأحلام طفولته وتحويلها إلىٰ واقع حقيقي ملموس، نجح في ذلك عن جدارة، تحول إلىٰ رمز في العائلة، ومصدر فخر وتباهي لدىٰ الأسرة والعائلة، كان مصدر إلهام لشباب العائلة والأقارب، الجميع كان يتباهىٰ به ويتطلع إليه ويحاول تقليد خطواته حتىٰ أصدقائه الذين اختلف مسارهم المهني طفقوا يتطلعون إليه بحسد واهتمام وحرص علىٰ تعضيد التواصل والعلاقة معه، كثرت أسفاره للخارج بحكم ظروف العمل، وارتفع سقف طموحاته بعيدا جدا، تورمت ثقته في نفسه لدرجة أنه لم يعد يطيق أن يسمع سوىٰ كلمات الإطراء، وعبارات المجاملة والتودد، أصبحت ذاته جائعة باستمرار للمديح والتبجيل والتفخيم، لم يعد لديها سقف للشبع، انتفخت أكثر مما ينبغي، شرب الخمر للمرة الأولىٰ بينما كان في رحلة طيران إلىٰ بريطانيا في مطار هيثرو في لندن، في البداية كان لديه قناعة بحرمانية احتساء الخمر، وتأثيرات ذلك علىٰ سمعته ووظيفته التي يعشقها، كذلك لم يكن علىٰ استعداد أن يقحم نفسه في التورط في مشاكل المشروبات الروحية مثلما يحدث أحيانا مع الكثير من زملائه، ورغم ذلك حاولوا معه كثيرا في الأسفار أن يجرب شرب كأس واحدة فقط

في جلساتهم، كان يرفض بشدة علىٰ الرغم من شدة الإغواء وسحر المكان وروعة الأشخاص المحيطين من الحسناوات، وكان يخالجه أحيانا شعور شخصي أنه شخص جامد، غبي ومتخلف مستسلم لتقاليد وأعراف قديمة تتعلق بالخمر لم تعد لها قيمة في ذلك العالم الذي يجري بسرعة، كذلك كانت تراوده أحيانا أفكارا تتعلق بالتقليل من قيمة وأهمية المحاذير الدينية المحرضة علىٰ ضرورة الامتناع عن احتساء الخمر، ومع ذلك صمد وقرر أن يتحمل تلك النظرات الساخرة أحيانا من زملائه في لحظات تسامرهم في المطارات الاجنبية انتظارا لموعد اقلاع طائراتهم، لكن للقدرة علىٰ الصمود والاحتمال حدود قد تكون ضيقة مع شخصية تحمل ذاتا متباهية، ترىٰ نفسها أعظم من أن يسخر منها هؤلاء الاوباش المتسكعين في المطارات ولا هم لهم سوىٰ مواعدة الحسناوات وجلسات الأُنس والشراب وأشياء أخرىٰ مارقة، واعدهم أن ينضم اليهم خلال هذه الرحلة، وأن يزين جلستهم ويصبح نجمها الأوحد حينما يلتقون في مطار هيثرو، فعلها، اكتشف الدهشة والقوة والارتفاع إلىٰ سموق يتجاوز مجرد «اليونيفورم» الذي يدثره واسمه وسمعته لدىٰ الشركة التي أصبح علىٰ الرغم من حداثة عمره وعمله فيها من ضمن العناصر المشهورة جدا في كافة أقسامها وإداراتها، تحول إلىٰ عاشق للخمر مرة واحدة ودون المرور بالمراحل الطبيعية المعروفة، البداية تكون مرحلة الشرب العادية أو الاستخدام، هنا يعتاد الشخص شرب كأس أو كأسين مرة واحدة في الاسبوع مثلا خلال العطلات الأسبوعية أو أن يشرب أيضا كأس أو كأسين في المناسبات الاجتماعية التي يتم خلالها تداول

الخمور، إذا انتظمت حياة الشخص علىٰ هذا النحو يطلقون عليه تسمية شارب أو مستخدم للخمور، لكن هناك أشخاص قد لا يتحملون الانتظار حتىٰ بلوغ عطلة نهاية الأسبوع أو انتظار مناسبة خاصة يتمكنون فيها من التلاقي علىٰ المشروب حتىٰ يشربون كأسا أو كأسين، هؤلاء الأشخاص يقررون شرب الخمر كيفما اتفق ومن دون تنظيم، ولا يرتبط الشراب لديهم بعطلة أو مناسبة خاصة، ويسرفون في الشراب بكميات كبيرة لدرجة إمكانية تعرض حالتهم الصحية وعلاقاتهم الشخصية وحياتهم المهنية ومقدرتهم علىٰ العمل للضرر، يفشلون في تحمل مسئوليات العمل والدراسة والمنزل، وقد يصل الأمر لدرجة محاولة الانتحار، ويتعرضون بصفة عامة لمشاكل حرجة وخطيرة في حياتهم الشخصية والاجتماعية والمالية، يطلق علىٰ هؤلاء الأشخاص تسمية المتعاطي للخمور أو أبيوزر، حيث يكونوا بلغوا مرحلة «اساءة الاستخدام، وتلك مرحلة خطرة توشك باقتراب الشخص من سلوك ومرحلة الإدمان، ثم مرحلة الإدمان أو «أديكشن» تنطبق علىٰ الشخص الذي يستهلك أكثر من خمسة وحدات من الكحول من بين الذكور، وأربعة وحدات من بين الاناث، يصبح الشخص خلال هذه المرحلة فاقدا للقدرة علىٰ السيطرة علىٰ سلوك الشراب، يشرب في اي وقت واي مكان، لا يستطيع أن يتحرك من فوق سريره حين استيقاظه قبل أن يشرب، يظل منشغلا معظم يومه بالمشروب، واذا غاب عنه فترة وجيزة، أو قرر أن يقلع عنه تهاجمه علىٰ الفور الأعراض الانسحابية، ربما بعد ساعتين فقط، وحتىٰ ثمانية ساعات من آخر مرة شرب فيها الخمر، وقد تستمر هذه الأعراض

لأسابيع، وهي عبارة عن أعراض جسدية تحدث نتيجة انخفاض مستوىٰ السميات الناتجة عن انخفاض نسبة الكحول في جسده، خلال فترة الأعراض الانسحابية يعاني الشخص من مجموعة من الأعراض الجسدية مثل رجفة في اليدين واللسان والجفون مع الارق، زيادة في ضربات القلب والعصبية والتهيج والقلق، اضافة إلىٰ نوبات صرعية كبرىٰ أحيانا، وكذلك نوبات هذيان تتمثل في هلاوس بصرية وسمعية ولمسية، الخ، ونتيجة لذلك يتزايد لدىٰ الشخص المدمن احتمالات السلوك التخريبي والعنيف، والشجار والإصابات وقيادة السيارة مخمورا، اضافة إلىٰ مشاكله مع الشرطة والقانون والمشاكل الصحية والاجتماعية والمالية وما يمكن أن يحدث من عواقب تتعلق بمخالفة القوانين، أيضا هناك تأثيرات تتعلق بالقصور العصبي المعرفي في الفص الجبهي، وضعف الذاكرة والسمع، أيضا القصور في الذاكرة اللفظية، والذي حدث مع الطيار صبري زوج فيحاء أنه عشق الخمر من الكأس الأولىٰ، احتساها ولم يكن بمقدوره، بل وربما لم يفكر أصلا أن يتوقف عن تعاطيها، اسرف في تناولها حتىٰ الثمالة، كان ذلك سابقا لزواجه من فيحاء، لكنها لم تكتشف ذلك سوىٰ بعد الزواج، استمر علىٰ هذا المنوال حتىٰ نجح في الاقلاع عن معاقرة الخمر رغبة في اصلاح مسار حياته، لكن لم يلبث أن استبدلها بتعاطي «الهيروين» فشل في الصمود والاستقلال عن أن يعيش من دون أن يبتلع أو يحتسي شيئا يغير من مزاجه أو يدير رأسه أو يؤنس وحدته الداخلية القاتلة ويعينه علىٰ تجاوز غصة الكآبة الرهيبة، حدث ذلك أثناء فترة الحمل الثاني لفيحاء، وقد تعرفت علىٰ «الهيروين» واستخدمته من

خلاله وعن طريقه أيضا، هكذا سارت حياة صبري الطيار الموهوب وانتهت تقريبا عند هذا الحد، أصبح أهم انجازاته في دنياه التي أخرجته لها أمه قبل فجر أحد أيام الجمعة ذات يوم قائظ شديد السخونة قبل اثنتين وثلاثون عاما دفع فيحاء فتاة أحلام الشباب والدلوعة الجميلة الرقيقة البائسة معه إلىٰ عالم الحيرة والجنون والأوهام، عالم الإدمان علىٰ المخدرات الجبارة التي تستلب العقل والإرادة وعلىٰ السيطرة والتحكم، عن طريقها يصبح من السهل جدا الولوج إلىٰ عالم الأوهام والتخدير اللذيذ، ومن ثم تتقلص الخيارات في هذا الواقع المؤلم غير المحتمل، المخدرات ساعدته بالفعل علىٰ التقوقع والانزواء والفرار من المسئوليات الصعبة والتفكير المعقد في هذا الواقع ومشكلاته، ومنحته قوة الانتشاء ولذة الارتواء ونهمه وسحره في سعيه إلىٰ الاكتمال وتعويض كل ما هو ناقص داخله، بين ليلة وضحاها أصبح الولوج إلىٰ عالم الوهم والتخدير هدفا محوريا لحياته، أصبح هذا العالم مهيمنا علىٰ كافة خيارات الواقع الأخرىٰ لديه وقاصيا لها بصورة دراماتيكية مدهشة، باتت الدنيا لديه مختزلة في خيار وحيد فقط لا غير ومحبب بشدة إلىٰ نفسه، الشغف بتوفير جرعة المخدر، إعدادها، طبخها ثم تعاطيها وترقب الحصول علىٰ تأثيرها في دمائه التي تسري في أعصاب دماغه حتىٰ تفعل مفعولها السحري الغامض المنعش لحياته في جسده الميت وتعيده إلىٰ الحياة والانتعاش، الآن يحق لفيحاء أن تستنشق هواء باردا منعشا من تلك النوعية من الهواء الرائق الذي يغطي الغلاف الجوي في تلك الأيام الباردة من شهر يناير، ويتناغم مع تلك الحالة المزاجية التي دهمتها

بقوة بعد أن تأكدت أن عبدالله استعاد وعيه وحياته، والأكثر من ذلك إنها كانت أول شخص في هذا العالم يشهد حادثة عودة عبدالله إلىٰ الحياة، الآن تأكدت أن الاقدار تساندها بقوة ولن تتركها وحدها بعد أن أصبح عبدالله ببساطة الشيء الجوهري الوحيد في حياتها الجافة البائسة.

(18)

عودة الحياة

تحرك موكب السيارات دفعة واحدة من امام المستشفىٰ، السيارة الاولىٰ كبيرة سوداء جي أم سي تبدو انيقة وفخمة يقودها فواز والد عبدالله وبجواره ام عبدالله وابتسامة عريضة كشف عنها وجهها العريض الذي كساه الهدوء والراحة، السيارة الثانية بي ام دبليو حمراء عنابي فارهة، يقودها محمد الأخ الاصغر لعبدالله والذي كان دائم الحضور والتواجد في المستشفىٰ وشعلة النشاط المتقدة خلال تلك الفترة العاصفة من أيامه، كان عبدالله يتمدد بجواره مادا ساقيه إلىٰ منتهاهما، يبدو غير مستريح في الجلسة، كانت آمال زوجة عبدالله تجلس في المقعد الخلفي ساكنة وقد هيمنت علىٰ تفاصيل بشرتها السمراء الجذابة آثار الراحة والطمأنينة، بينما كان في الخلف سيارتان أخريان تسيران في هدوء مع موكب السيارات يتبعان إخوة عبدالله وأقاربه، توقف الموكب أمام المنزل، كان ذلك وقت الغروب الذي اوشك أن يلف المكان بغيمته المثيرة للشهية والراحة في هذه الأيام الفريدة من شهر رمضان، وقد تم انتزاع اسبوعين من دفتر أيامه علىٰ عجالة، كانت نسائم الربيع مريحة ورائعة خاصة بالنسبة لهؤلاء الصائمون الذين قدر لهم أن يتوافقوا مع تعليمات ونداءات السماء، هرع الشباب بسرعة

إلـىٰ سـيارة عبـدالله لمسـاعدته علـىٰ الخـروج وتسـنيده علـىٰ اكتـافهم، دلفـوا للـداخل حيـث ابـتلعهم مـدخل البيـت الكبيـر، أخيـرا عـاد عبـدالله إلـىٰ سـريره، يرقـد عليـه بأريحيـة ويستشـعر أنـه دخـل كنـف الأمـان والراحـة بعـد غيـاب واختفـاء قصـري مضـطر لـه اقـترب مـن الخمسـة أشـهر سـوىٰ أيـام قليلـة، ظـل راقـدا مـا بـين غيبوبـة مـوت رهيبـة اقـترب خلالهـا مـن شـفير اللاعـودة إلـىٰ سطح الأرض، وبـين رحلـة اشـد ارهاقـا داخـل غـرف العمليـات حيـث أجـرىٰ العديـد مـن العمليـات الجراحيـة في عظامـه مـن أجـل إعـادة تـرميم مـا تكسـر ومـا تفتـت مـن عظامـه بسـبب حـادث السـيارة، أخـبروه بعـد الإفاقـة أن السـيارة التـي كـان يقودهـا قبـل الحـادث لـم يعـد لهـا وجـود، كـل مـن شـاهد السـيارة لحظـة انتشـاله مـن داخلهـا كـان متأكـدا أن هـذا الشـخص المجهـول لـديهم ذهـب إلـىٰ السـماء مـن دون رجعـة، اجـرىٰ سـت عمليـات جراحيـة وصـفت كلهـا بـالكبيرة، عمليـات في الحـوض وفي السـاقين وفي والعمـود الفقـري، غـرس عـدة شـرائح ومسـامير معدنيـة داخـل السـاقين وفي منطقـة الحـوض، اخيـرا يسـتريح الآن علـىٰ سـريره، يطـالع في سـقف الغرفـة، تتـدلىٰ نجفـه صـغيرة مصـنوعة مـن مـادتي النحـاس والبلاسـتيك خفيفـة، مرسـومة علـىٰ شـكل مـركبين متـداخلين ومتقـاطعين في تشـكيل هندسـي دقيـق وجـذاب، تتزايـد طلاوتـه وجاذبيتـه عنـدما تضـاء وتفـترش الغرفـة بـالنور، وهنـا تكمـن العبقريـة والسـحر في تصـميم تلـك النجفـة التـي اشـتراها عبـدالله مـن أحـد المحـلات التـي تعـرض الأنتيكـات القديمـة، كـان ذلـك

منذ عدة سنوات، وكان مولعا باقتناء مثل هذه الأشياء، عقد العزم يومها أن يعلقها في سقف غرفته، وفعلها بعد ذلك لاحقا بعد شرائها بعدة شهور، لكن يبدو أن تلك النظرة الشاخصة نحو السقف والنجفة والروقان والراحة التي وشىٰ بها جبينه لم يكن سببها الشوق للنجفة ولا لتلك الأيام الغابرة حيث اشتراها، ولكن كان مبعثها شيء ما لا يدرك كنهه، لقد تثبتت عيناه عند هذه النقطة في سقف الغرفة، وبدا كأنه مقهور أن يفعل ذلك بفعل قوة داخلية لا إرادية تجبره علىٰ أن يستريح، وعلىٰ أن يتطلع إلىٰ ما هو وراء تلك النجفة الصغيرة المتدلية، وما هو وراء ذلك السقف شديد النصع ببياض لون الجبس الموشوم بتشكيلات وألوان غاية في الأناقة والجمال، استقرت آمال أمامه تتأمله وتتفحص بدقة بقية أعضاء الجسد العائد إليها من رحلة عجيبة، وحدث جلل عظيم يفوق بكثير خيالها، وتحمل كيانها الدقيق الصغير الضعيف واعصابها التي ما تزال طفولية، ما تزال آمال تبدو مثل طفلة صغيرة لا يمكنها تحمل إمكانية الفقد، أو الألم الذي يواجهه معشوقها الرائع، كانت تتفحص تفاصيل جسده المسجىٰ أمامها في هدوء وجزع وحتىٰ شعر صدره الأسود الفاحم الغزير الذي برز مثل غابة من الشعر الكثيف بعد أن تحرر في غرفة نومه من الملابس الرسمية وأصبح نصف جسده الأعلىٰ عاري تماما وتلك عادته المفضلة حينما ينزوي داخل غرفته، كانت الأم ماتزال تقف عند الباب كالمعتاد مثل الطود العظيم، شامخة تطلق أوامرها للجميع قبل

أن تغادر وزوجها تاركة عبدالله يرتاح مع امرأته، لم يدرك عبدالله كل تلك الجلبة التي صاحبت دخوله غرفته للمرة الأولىٰ عقب كل هذا الغياب، كان جسده القوي العائد بمعجزة إلىٰ الحياة هو الحاضر فقط في الغرفة، مسجي، متدثر بملاءة خفيفة ملونة، وكانت آمال مزروعة امامه، مشدوهة، ملتاعة، لكن تبدو مطمئنة نوعا ما، كانت تبسط ذراعيها علىٰ السرير قبالته لا تغادر عيناها خلجاته ولا شعر صدره الكثيف، وكان عبدالله في عالم آخر، كأن نظرته المثبتة بإصرار علىٰ سقف الغرفة من دون كلام أو انفعال أو اهتمام بما يدور حواليه، مجرد إشارة إلىٰ الآخرين لكي ينصرفوا عنه ويُخلوا المكان، لعلهم يحترمون لحظته الفريدة التي يعيشها الآن بكامل جوارحه في ملكوته الخاص حيث تتكشف لديه الرؤية، ويتضح أمامه كل شيء، ويتحقق الحلم، يحلق في سماوات بعيدة زرقاء بلون مياه البحر الغاضبة في يوم عاصف تزمجر أمواجه بتلك القوة والهيبة، والروح القتالية، والرغبة في الاندفاع وتحطيم القيود والحدود والزمن وقهر الخذلان والضعف المستكين، لم تكن عيناه المثبتتان في اتجاه سقف الغرفة والنجفة أكثر من مجرد كاميرة مراقبة ثابته لكن مغلقة، لا تعمل في اتجاه سقف الغرفة وما ورائه، بل تصور لقطاتها من الخلف، تكشف تفاصيل الداخل وتلج في منعطفات الذكريات والاحداث الشاردة في تاريخ أيامه الحافل، لم يكن مشهد مقتل عامل البقالة وحضوره داخل المشهد والصورة يومها مجرد هاجس

يطـن علـىٰ مخيلتـه ويتكـرر رغمـا عـن إرادتـه فحسـب، بـل تـواترت مشـاهد أخـرىٰ كثيـرة في تلـك اللحظـة اسـتغرقته تماما وفـاض في تأملهـا ومطالعـة كافـة زواياهـا لعلهـا تسـمح لـه بالارتـداد إلـىٰ سـريره، وإلـىٰ نفسـه وإلـىٰ آمـال تلـك المـرأة التـي مـا تـزال تقـف قبالتـه مشـدوهة تتأمـل تلـك النظـرة الشاخصـة التـي مازالـت مثبتـة بإصـرار عجيـب في اتجـاه سـقف الغرفـة، يبـدو أن عبـدالله رغمـا عـن ارادتـه اراد الاسـتراحة في داخلـه بعـد تلـك الرحلـة مـن العنـاء والتعـب، والتـي قـرر في نهايتهـا أن يضـع حـدا لهـا لكنـه فشـل، خـرج مـن غيبوبتـه ليكتشـف أن هنـاك أيامـا أخـرىٰ في انتظـاره عليـه أن يركبهـا، وإن هنـاك آخـرين مشـدودين خلفـه رغمـا عـن ارادتهـم أيضـا وعليـه أن يحـترم وجـودهم ورغبـتهم في أن يعشـوا في هـدوء وسـكينة، كمـا أن هنـاك امـرأة وضـعها القـدر في طريقـة لـم يختارهـا، خرجـت عليـه مـن ظهـر تلـك الأيـام الصـعبة ذات مسـاء مشـدود ومتـوتر التقاهـا في أحـد المقـاهي المطلـة علـىٰ الخلـيج كانـت في حاجـة ملحـة إلـىٰ جرعـة هيـروين لكـي تتخفـف مـن ألـم تـأثير لهفتـه الثـائر الموجـع، وفي نفـس ذات اليـوم اضـحت انفاسـها تسـري في دمائـه وخلايـاه، تركـت دنياهـا المضـطربة لتسـتقر في جـزء مـن عالمـه الاكثـر صـخبا واضـطرابا، يتـذكر الآن وبمنتهـىٰ الوضـوح كيـف كـان طيـف فيحـاء يقـتحم وعيـه المنغلـق علـىٰ العـالم الخـارجي، ويتسرسـب داخـل روحـه مسـتحلا هيئتهـا التـي طالمـا تملكتـه، كانـت تبـدو متشـحة بعبـاءة سـوداء وتغطـي وجههـا بالنقـاب وتطالعـه مـن خلـف زجـاج بـاب غرفـة العنايـة المكثفـة

للحظات قبل أن تختفي بعيون جزعة امتلأت بالخوف والقلق والارتباك، يتذكر أيضا كيف كان يشعر بأنفاسها تلاحقه في تلك اللحظات الحرجة من حياته، وكيف كان يستدفئ بها في عالمه حيث كان، أن اللذين يواجهون لحظات حرجة ويصبحون حينها على الشفير دائما تتسع مدركاتهم، وتمتلئ بتفاصيل قد تخفى على العقل الواعي في لحظات نشاطه وتمامه، كما تتجلى لديهم الرؤية المستبطنة في عمقها وبهائها وصدقها كفلك الصبح، عبدالله واجه حالة من هذا النوع حينما كان بالمستشفى، كأنها أي الحالة ارتدت اليه ثانية حين احتواه المنزل والسرير الذي يتمدد عليه، غير عابئ أو غير متيقن من وجود آخرون ساعدوه في الصعود إلى غرفته وساندوه في أن يستريح فوق سريره، ودثروه بملاءة خفيفة وتركوه إلى امرأته، تلك الزوجة البائسة الجميلة لكي تتفحص خلجاته بحرية، وتتمنى الانزواء داخل صدره العريض، والاستدفاء بكل هذا الشعر الغزير.

(19)

الانفراجة

أخيــرا انفرجــت الأزمــة، هكــذا قــال لحــارس الســجن الشــاب، وهكــذا انفرجــت أســاريره واتســعت ابتســامته لتغــرق كامـل خلجـات وجهـه، وكأنهـا فرحـة تتملكـه لأول مـرة منـذ القـي بـه في السـجن مهجـورا، منبـوذا، شـهور طويلـة في السـجن تحـول خلالهـا مشـعل إلـىٰ كيـان آخـر، مختلـف عـن ذلـك الشـاب الـذي دخـل السـجن لأول مـرة في قضـية المخـدرات، هكـذا تـدور الأيـام وتتقلـب، وهكـذا ادركتـه تلـك الحكمـة خـلال أيامـه العسيرة غيـر السـارة بـأن كـل شـيء في هـذه الـدنيا يتحـول ويتقلـب ويتغيـر، وهـذا مـا حـدث بالضـبط لـه مـع إخوانـه الـذين قـاطعوه كـل تلـك الفـترة محملينــه مســئولية مــوت والــدتهم وارتبــاك أمــورهم العائليــة والاجتماعيـة، وكـانوا قـد عقـدوا العـزم علـىٰ تركـه لمصـيره، يفعـل الله بـه مـا يشـاء، هكـذا أبلغـه عويـد أخـاه الأكـبر عـن طريـق المحـامي في المــرة الأخيــرة التــي التقــاه فيهــا في المحكمــة لحظــة النطــق بــالحكم بســجنه خمــس ســنوات، اكتفــوا بأرســال النقــود لــه في أمانـات السـجن باعتبارهـا مـن حسـاب نصـيبه في ميـراث والـدتهم، أبلغــوه أن عليــه أن يصــرف امــوره بنفســه ويعتــبر أنــه لــم يعــد لديــه أهـل بعـد اليـوم، هكـذا وجـد مشـعل نفسـه في ظـرف شـهور قليلـة قـد حكــم عليــه بالســجن خمــس ســنوات، أيضــا ابلــغ في ذات اليــوم

عـن طريـق ذات المحـامي بوفـاة امـه التـي كانـت تحتويـه وتثـابر علـىٰ دعمـه ماليـا ومعنويـا بالـدعاء لـه في صـلواتها، وكـذلك كـان صـبرها مـن دون حـدود علـىٰ انفلاتـه وعصـبيته وسـوء سـلوكه وتحمـل مشـاكله المخجلـة المورطـة للعائلـة وسـمعتها، كانـت تصر علىٰ هدايته مهما كان الثمن، لكن مشعل لم يتنبه أبدا لكل تلـك الرسـائل، أخيـرا قـرر إخوانـه واخواتـه جمـيعهم مقاطعتـه ونبـذه والتـبرؤ منـه تمامـا، وجـد مشـعل نفسـه شخصـا غيـر مرغـوب فيـه، ومـن دون جـدار يمكـن الاحتمـاء بـه أو الاسـتناد عليـه، ترسـخ في رأسـه اعتقـاد قـوي أن إخوانـه اجهـزوا عليـه حيـا بتـبرؤهم منـه، واتهـامهم لـه بقتـل امهـم، لكـنهم علـىٰ مـا يبـدو وكمـا سـمع اليـوم مـن الحـارس الشـاب قـد قـرروا أخيـرا الرضـا عنـه، وعلـم إنهـم سـوف يبعثـون بأحـدهم لزيارتـه في سـجنه بعـد طـول انتظـار، كـاد يطيـر مـن فـرط الفرحـة والراحـة، كـأن همـا ثقـيلا انـزاح عـن كاهلـه دفعـة واحـدة، اعتـبر هـذا اليـوم مميـزا بكـل المعـايير، راجـت فيـه بشـارات الخيـر والتفـاؤل، وذلـك الحـارس الشـاب الـذي أصـبح صـديقه بحكـم أيـام السـجن الطويلـة والعشـرة يبشـره بعـودة إخوانـه إليـه وعودتـه إلـىٰ إخوانـه، الحـارس نفسـه تهلـل وجهـه مـن الفرحـة والاستبشـار وهـو يخـبر مشـعل ويتلقـىٰ علامـات السـعادة والابتهـاج مـن مشـعل نتيجـة لهـذه البشـرة، أبلغـه أن لديـه زيـارة اليـوم، وإن أحـدهم يـدعىٰ عـارف اخـوك في منطقـة الزيـارة الآن في الانتظـار، كـان اللقـاء بـين الأخـوين مفعمـا بالمشـاعر الانسـانية الدافئـة، كأنـه يلتقـي عـارف للمـرة الأولـىٰ منـذ سـنوات، تغيـرت

ملامحه كثيرا حسبما أدرك الأمر عن آخر صورة التقاه عليها في جلسة المحكمة الأخيرة منذ شهور طويلة، عارف الشقيق الأصغر لمشعل وأقرب إخوانه إلىٰ قلبه قبل أن تضطرب علاقتهم في الفترة الأخيرة قبل دخوله السجن، جلسا قبالة بعضهما، لأول مرة منذ ولوج مشعل هذا المكان يجلس في منطقة الزيارات ويلتقىٰ شخصا ما ويكون أخوه، كان سعيدا للغاية خلال اللقاء، وكذلك عارف الذي أبلغه بتحيات جميع إخوانه واخواته، كلهم في انتظار خروجه، أبلغه كذلك أنهم يراقبونه طوال الفترة الماضية ولم يتركوه، دائما يسألون عنه وتأتيهم أنباء مطمئنة عن تصرفاته، شعر بارتياح أكثر حينما أدرك أنه لم يكن منبوذا طوال تلك الفترة، بل كان تحت الملاحظة والرقابة، صرح بذلك لعارف وانفرجت أسارير الشقيقين قبل أن يبلغه أنه ترك له مبلغا محترما في أمانات السجن، كذلك أحضر له سجائر وطعام والأهم أن عويد الشقيق الأكبر سوف يصطحب شقيقتيهما ويزورانه المرة القادمة، هكذا انتهت الزيارة القصيرة، مختصرة في كل شيء، لكن عمق المشاعر التي تجلت فيها وخلفتها كان كبيرا للغاية، وكذلك عمق القصد منها، هناك إشارات كثيرة اراحت مشعل لأول مرة منذ وجوده في السجن المركزي، أدرك أنه لم يترك وحيدا بعد وفاة والدته كما كان يعتقد، وأن إخوانه يتابعون تفاصيل حياته من خارج السجن، والأهم من ذلك أنهم قبلوه بعد كل ما حصل من مصائب وكوارث، وأنه لم يكن منبوذا

طيلة هذه الشهور، عاد إلىٰ عنبره منتشيا، مرتاحا وفي حالة معنوية هائلة لم يعاينها منذ سنوات بعيدة، وخاصة خلال تلك الشهور الأخيرة، حيث تدنت فيها حالته المعنوية للحضيض علىٰ الرغم من محاولاته الدؤوبة علىٰ التأقلم واكتساب الاصدقاء، والظهور بمظهر مغاير ربما يمنحه نوعا من الثقة بالنفس والاعتداد، ويغنيه عن مرارة خسارته لعائلته وسنده في هذا العالم، كانت الأفكار مثل موجات البحر تتلاطم داخل رأسه بصخب مسموع كأنها تذكره بأيام من خلفه ينبغي عليه أن يمحوها من تاريخه أن استطاع، وأما أن لم يستطيع فيجب أن يلزم نفسه بعدم السباحة في نهرها مرة أخرىٰ أن استطاع أيضا، لم يكن الطريق إلىٰ محبسه كافيا ليناقش مع نفسه فكرتي المحو أو عدم السباحة، التقاه الحارس الشاب بوجه ضاحك فاردا ذراعيه نحوه يحتضنه قائلا «أخيرا رضيوا عنك» احتضنه مشعل بقوة الفرحة الأشد، وعن طريق نفس الضحكة أخبره عن تفاصيل الزيارة وما حدث فيها وتوقعات الزيارة القادمة، الآن تملكته حالة من الانشراح ساعدت كثيرا علىٰ صفاء ذهنه، وهدوء روحه، التقىٰ لاحقا زملائه في العنبر، استلقىٰ علىٰ سريره شعر برغبة في النوم، كان الوقت بعد اذان الظهر بقليل، انتصف نهار رمضان توا، استجاب لنداءات جسده في الرغبة في الاسترخاء والراحة، غلبه التعب ونقصان السكر في الدم وكذلك بفعل الصيام، قبل أن يدخل لكي يلج في بحر النوم اللذيذ هذه الأيام، وهذه الفترة من النهار ابتسم لنفسه ابتسامة

ذات مغزىٰ، كان الوحيد الذي يعرف سببها، لذلك لم يرد علىٰ تعليقات زملائه المحيطين الذين كانوا يصخبون حواليه ويرمونه بنكاتهم السخيفة، اكتشف في هذه اللحظة أنه يصوم رمضان للمرة الأولىٰ في حياته منذ أدرك المعاني والطقوس الدينية، ربما فرح بهذه الخاطرة حينما مرت علىٰ خياله، وربما كانت ابتسامته التي نام عليها انعكاسا لتلك الحالة المعنوية التي حركتها زيارة عارف له اليوم قبل ظهر اليوم والتي فوجئ بها، وكان هذا الأمر من المستحيل تحقيقه بالنسبة له، بل لم يظهر علىٰ مخيلته أبدا، لم يلبث ساعة حتىٰ تنبه علىٰ حركة كف يد ضخم يخبط كتفه بقوة يوقظه لصلاة الظهر قبل أن تدهمهم صلاة العصر التي أوشك وقتها علىٰ الدخول، اصطدمت عيناه بعيني يسري الواسعتين، ولحيته المتمددة، ونظرته الحانية وكفه الضخمة التي ساعدت مشعل كثيرا في أيام العسرة.

(20)

اللقاء

ما أروع صفحة الخليج في هذا الوقت من المساء الأبريلي حيث تلفحك نسمة ندية من هواء طازج تحيط بجوارحك وتنعش روحك المرهقة وتشعرك بالتحليق في روعة الكون وبهاء الحياة وعظمتها، كانت هذه الصفحة الرائقة الوديعة تلتمع بأضواء منعكسة من مصادر ضوء بعيدة لمباني شاهقة الارتفاع مطلة على البحر، وكذلك أعمدة الإنارة الحكومية التي تحيطه في أرجاء جزره المتداخلة البديعة، المدهشة، كان المقهى القديم مقر لقاء الصديقات الثلاثة فيحاء وهانوف ومريم ما يزال على حاله، يفرش أضوائه، ينثرها في الخارج، خافتة، ناعمة، تتخلل المكان في هدوء، وسحر يمتنع عن الفضوليين الذين يمحنون عيونهم الحرية الكاملة في الدوران والبحث والتحديق في الآخرين، لم يتغير شيء في المكان بعد كل هذه الشهور البعيدة سوى ملامح العمال وملابسهم وأسلوبهم الجديد في الضيافة، نجحت مريم أخيرا في تجميع البنات بعد طول غياب بعد أن كادت تيأس، وفي كل مرة كانت تقرر غلق صفحة تلك الصداقة إلى الأبد تفاجأ باتصال هاتفي من فيحاء أو هانوف يلحون عليها، متشبثين بطلب اللقاء والتجمع، لكن ذلك اللقاء المرغوب لا يحدث في الغالب. اليوم حدثت مفاجأة مدهشة لم تكن في الحسبان، اتصلت عليها فيحاء، كانت تبكي بحرقة وطالبتها باللقاء في المقهى، وفي ذات نفس

اليوم اتصلت هانوف أيضا، وكانت هي الأخرىٰ تبكي بحرقة وطالبتها باللقاء في المقهىٰ، علىٰ الرغم من حيرة مريم في هذا الأمر وقلقها، فإن تزامن اتصال الفتاتين وطلبهما اللقاء في نفس اليوم وفي أعقاب كل تلك المماطلات السابقة لحدوث لقاء يجمعهن معا دفعها لآن تستشعر مسئوليتها، تيقنت أن القدر ربما يؤهلها لشيء ما لا تدرك كنهه، لكنه شيء قد يكون متعلق بمصائر وأحلام صديقتي العمر والصحبة الطويلة في حجرات الدرس، وحوش المدرسة، واللهو في المنتزهات، وقاعات السينما ومشاهدة الأفلام الأجنبية والمسرح الكوميدي والمقالب التي كانوا يوقعون فيها المدرسات والمدرسين، والصديقات الأخريات، وكذلك دهاليز وأسرار علاقاتهم الشخصية في الحب واللهو التي ظلت مخبأة داخل صدورهن إلىٰ الأبد، كعادة مريم دائما لا تشغل رأسها باستباق الأحداث، فهي لا تحبذ أبدا لعبة الاستنتاجات، وانشغال البال، وضياع الوقت في التفكير في أمور سوف تكون تحت قدميها لاحقا، خرجت اليوم في زينتها المدهشة مثل المعتاد، كانت ترتدي بنطلونها الجينز الازرق الضيق الذي يكشف عن تفاصيل الساقين والفخذين بمنتهىٰ الوضوح والاثارة الانثوية الأخاذة، وفوقه بدي لونه كحلي أيضا، يرسم تفاصيل مناطق الخصر والبطن حيث يمكنها أن تتباهىٰ أمام نفسها، والآخرين بخلوهما من الدهون وعلامات الترهل، وضعت فوق البدي شال خفيف بنفسجي اللون تحسبا لتيارات الهواء البارد التي تزور الخليج في هذا الوقت من المساء، فيما عدا رياح الشوق والفضول لما سوف يكون عليه مظهر كل من هانوف وفيحاء بعد كل هذه الشهور التي مرت من الاختفاء،

لم ينشغل بال مريم سوىٰ بمريم ذاتها، تلك الفتاة التي تقود سيارتها الالتيما الجديدة التي اشترتها منذ ثلاثة أشهر بالتقسيط، ربما تغيرت حياتها نسبيا بعد تسلمها عملها الجديد في وزارة الإعلام في مكتب الوزير شخصيا، واندماجها في حياة جديدة اتسعت فيها مساحات التداخل والتفاعل، والخبرات، وثراء الواقع بالأخبار والمشاكل والحياة الفعلية التي تتذوقها للمرة الأولىٰ في حياتها منذ اتسعت أبعاد جسدها، وفارت انوثتها طغيانا ولهفة، ولم تعثر بعد علىٰ من يحتوي هذا الطغيان الأنثوي، صديقتي عمرها ودراستها تعاونا سويا علىٰ إطفاء تلك النيران لدىٰ كل واحدة منهن بطريقتهم المدهشة عن طريق تلك العلاقة التي تجاوزت الحدود المصطلح عليها بالسوية، ولكنها علىٰ أي حال كانت وسيلة ناجعة للتعبير عن الحب والارتواء، والاقتراب، كان ذلك في أيام المراهقة الأولىٰ، ومحاولات استكشاف ذلك العالم الغامض الذي يلهب الجسد، وتلك الرغبة الجامحة المستعرة وهذا الشغف بتذوق تلك المتعة السحرية الغامضة التي يتحدثون عنها دائما المتعلقة بالأساطير والمحرمات والرعب من مجرد التفكير فيها، لم يستمر هذا الأمر في الاستيلاء علىٰ رأسها وجسدها سوىٰ شهور قليلة قبل أن يقررن ثلاثتهم التوقف عن مجرد التفكير في ممارسته نهائيا بعد ذلك، وقد خرج الثلاثة من تلك التجربة أكثر اندماجا وتداخلا واقترابا من بعضهم البعض لدرجة أن كل واحدة منهن كانت تضع الأخريين في مكانة رفيعة داخل القلب والعقل والوجدان، أصبحا لا يستطيعان الاستغناء عن بعضها مهما تقلبت الظروف والأحوال ومهما اتسعت مجالات علاقات كل منهن

الخاصة وتشابكت العلاقات والمصالح، تحول ما بين الرفاق الثلاثة إلىٰ شيء خاص أشبه بحبل الحياة السري يربطهن معا في نفس شريان الدم الداخل والخارج من القلب، ونفس أنبوب الهواء الذي يدخل الصدر.

هكذا مرت أيامهما معا، وعلىٰ الرغم من أن مريم كانت تميل إلىٰ التفكير المحافظ، وتعتبر نفسها «دقة قديمة «مقارنة بالأخريين، وظلت طول الوقت تنأىٰ نفسها بعيدا عن علاقاتهم المنفلتة حسب وجهة نظرها مع الشباب الذين كان لهم وجودهم الدائم في مداراتهم معظم الوقت، ظلت مريم مرتبطة بهم، تحترم خيارتهم وعلاقاتهم الشخصية، تدلي رأيها فيما يطرح أمامها من مشكلات، أو أحداث، لكنها أبدا لم تحاول أن تتدخل بشكل شخصي في حرية أي منهم، أو حتىٰ تغضب من تصرفاتهن في هذا الصدد، بيد إنها جزعت بشدة حينما علمت بوقوع هانوف في مصيدة الإدمان والارتباط بصديقها المدمن عبدالله، لكنها سعدت بشدة حينما علمت أن هانوف توقفت عن الإدمان والعلاقة معا، وقررت تحرير نفسها قبل فوات الأوان، ولما علمت بأمر إدمان فيحاء للبودرة اسقط في يديها، حاولت معها، لكن تيار الأيام جرف الجميع، سقطت فيحاء في بئر إدمان «الهيروين» وحضن عبدالله كما لم تسقط من قبل، لم تتمكن مريم أن تفعل شيئا سوىٰ التحسر، ومحاولات اللقاء لعل وعسىٰ تكون إلىٰ جوارها، مريم نفسها طرأ علي حياتها تغيرات هامه خلال تلك الشهور الصعبة الماضية في حياة صديقتها فيحاء، توفي والدها فجأة من دون مرض، شعرت حينها بنهاية العالم، كان وجوده في حياتها بمثابة ستارة حديدية

من الأمن والطمأنينة اغنتها كثيرا عن مجرد التفكير في الارتباط والزواج، وعلىٰ الرغم من تباعد السنوات عقب تخرجها في الجامعة ما زالت عزباء، عذراء، لكن ذلك الأمر لم يشغلها كثيرا، ولم تكن تفكر فيه سوىٰ مع صديقتيها، اكتشفت بعد زلزال حادث وفاة ابوها إنها وحيدة، ضعيفة، ضائعة، حتىٰ إنها لم تشعر بلمسات ولا همسات صديقتيها اللتين لم يتركانها طوال أيام الوفاة والحداد، كانت هائمة علىٰ وجهها، وجدت نفسها علىٰ حافة بركان من الفراغ، والخواء، وربما العدم، عزلت نفسها عن الجميع، غابت فترة في أجواء الاكتئاب، حاول معها اهلها كثيرا وكذلك صديقاتها، انتهىٰ بها المطاف أمام الطبيب النفسي، كانت قد توقفت تماما عن تناول طعامها، ارتعبت امها واخوانها، ارسلوا في طلب فيحاء وهانوف، ذهبوا بها للطبيب، وصف لها مضاد للاكتئاب، ومثبط للمزاج، نصحها بالثقة في نفسها وفي الله، ظلت مريم طريحة الفراش ثم افاقت بعد ظهر أحد الأيام لتطلب طعاما وتهاتف هانوف، فرح الجميع بنهاية الأزمة، لكن علىٰ ما يبدو ربما تكون الأزمة الحقيقية قد بدأت، اكتشفت مريم إنها علىٰ أبواب العام الثلاثين من عمرها ولم تزل عزباء، عذرا لم يمسها بشر، ومطلوب منها بقوة أن تؤسس اسرة، لم يعد هناك مجال لرفض العرسان، لا بد أن تقبل أول من يخطب ودها، رغم سخرية صديقتيها من هذا الأمر فقد صممت عليه، غير أن الأيام دارت وأدارت ظهرها لهم، اختفت الصديقتان، أصبح لقائهما ضربا من الخيال والحلم الجميل، قررت مريم البحث والحصول علىٰ عمل، لجأت إلىٰ عمها وكيل أول وزارة الإعلام ليساعدها في الحصول علىٰ

عمل مناسب يخرجها من دوامة تلك الدائرة المفرغة التي سلمتها إلىٰ الاكتئاب، ساعدها الرجل بوساطته وقوة نفوذه، وجدت مريم نفسها في دنيا أخرىٰ، مختلفة، صعبة، مزدحمة بالعلاقات الانسانية الملوثة بكافة أنواع الامراض الاجتماعية التي تبغضها ولا تستطيع التكيف معها علىٰ شاكلة الكذب، النفاق، الخداع والمصالح، كانت طوال عمرها بعيدة عن كل ذلك، تعيش حياتها المترفة نوعا ما، لاهية، محاصرة بصديقات وعائلة منشغلة بطموحات تجارية وانسانية، كانت والدتها علىٰ رأس إحدىٰ الجمعيات التطوعية لمناهضة العنف ضد المرأة، وكان والدها مشغولا بأعماله التجارية معظم الوقت ويتخذ من البيت مجرد فندقا للنوم وقضاء الخدمات، والإخوان والأخوات كلُ مشغول بذاته لا يستطيع الخروج عن نطاقها والنظر حواليه للآخرين، الآن تجد نفسها في وسط معمعة من التشابكات والعلاقات المدهشة، لفت نظرها خالد الشاب الأسمر فارع الطول، المفتول العضلات، حاصرها بشغفه واسئلته، كانت عيونه تدور في معظم الأحيان حول كامل تفاصيل جسدها الفائر، استلفت انتباهها اهتمامه الخاص بها، ومتابعتها، والتجول خلف أخبارها وأحداثها، في البداية كانت حيادية مع تعليقاته ولغته وتلميحاته، ثم شعرت برغبة خاصة في أن تفسح لنفسها مزيدا من المساحة لاحتوائه وسبر غوره، كان اللقاء الأول في أحد المطاعم الفاخرة، بدا خالد ودودا، حنونا، متلهفا علىٰ اقامة علاقة معها، اجتذبها حديثه الناعم، وصوته الرخيم، وتلك الذكورة المشعة المتقدة التي أشعرتها بأنوثتها بقوة في تلك اللحظة، إنها تحتاج ذلك بشدة، ادرك خالد ذلك في لقائهما الأول، لم يغادر المكان الا

ويده تقبض بقوة علىٰ كف يدها الصغير الناعم الدافئ، تهيأت مريم لمرحلة ساخنة قادمة في حياتها الهادئة، كانت قد سعت طوال الوقت أن تبعد نفسها عن صخب العلاقات من هذا النوع الذي يجلب المشاكل ووجع الرأس وهي الحريصة علىٰ تجنب ذلك، لم تسأل نفسها مرة واحدة عن سبب هذا التجنب؟ ربما خشيت من أن تكون الإجابة صادمة لقناعاتها المستقرة التي طمئنت نفسها بشأنها، ويكون الأمر متعلقا بخوفها من الولوج في علاقة بشخص آخر، شخص ما يأتي إليها من المجهول ويذهب بها إلىٰ حيث المجهول وربما الجحيم الذي طالما استمعت إلىٰ أساطيره من حكايات صديقاتها، وقريباتها المتزوجات، وما لمسته بنفسها مما كان يجري بين امها وابيها من ازمات ومشكلات حادة كانت تصل في بعض الاحيان إلىٰ الضرب والاهانة والسب المتبادل بأقذع الألفاظ بين الطرفين، كان يحدث ذلك في حضورها وأخوانها واخوتها الأربعة، بالطبع تستطيع أن تخفي عن نفسها حقيقة الرعب الذي يتملكها من مجرد التفكير في علاقة اندماجية كاملة برجل قد يعصف بأمانها الذي أحكمت غزله ونسجه في خيالها، علىٰ الرغم من استصراخ كامل خلايا جسدها طالبة الارتواء بعد أن فاض الكيل وأضحت كل خلية من خلايا جسدها الفائر تتهمها بالجحود والنكران لطبيعتها وغريزتها وقوة الحياة داخلها.

كانت مريم مكتفية بعلاقاتها بصديقاتها، وبفترة المراهقة حيث ارتوت من هذا المعين بطريقتها معهن واستكشفت وعلمت واكتفت بذلك مبتعدة عن المخاطرة بالولوج في المجهول، وربما يكون ذلك

سر تمسكها المبالغ فيه بصديقاتها رغم انشغالهن، ورغم عدم استقرار لقاءاتهن في العام الأخير، وكثرة المماطلات والاعذار، وتفضيل أولوياتهن الحياتية عن الشغف بلقاء مريم صديقة عمرهم، لا تنكر أنها في لحظات قاسية من حياتها شعرت برغبة في أن تتوقف عن الاتصال بهن وتركهن لشأنهن وأن تبحث عن صديقات وعلاقات جديدة في حياتها، لكنها عجزت عن فعل ذلك، بسبب اكتشافها أيضا إنها عاجزة عن أن تستغني عنهن على الرغم من الإشارات التي تبدو منهن والتي فسرتها على إنها تجاهل وأنانية منهن تجاهها وعدم التقدير والاستجابة لمطلبها في اللقاء، كان آخر ظهور لهن سويا في أعقاب وفاة والدها، ومرورها بالأزمة الاكتئابية، وللحق لم يتركونها ثانية واحدة، وكان ذلك من أهم أسباب خروجها سريعا من الأزمة من دون مشاكل، وفي الوقت الذي اكتشفت فيه فجأة أنها باتت على مشارف الثلاثينات من عمرها، وأن نظيراتها من فتيات العائلة أصبح لهن أبناء على مشارف المراهقة، كما أن هناك شاب يتودد ويسعى ورائها في كل طريق وفي كل مكان، كان هذا التوقيت بالذات ذروة ضعفها الانساني ودفعها بقوة غريبة نحو الاقتراب من الاندماج حتى داخل المجهول ذاته وبأي ثمن، قررت عندئذ تسليم نفسها لخالد، منحته كل شيء تملكه أو تستطيعه، ومنحها خالد لحظات مجنونة طائشة مدهشة هزت كيانها، ادركت كم كانت غبية حينما قررت بكامل ارادتها أن تحرم نفسها من الحياة الحقيقية، هكذا حلقت مع حبيبها في آفاق الحب ومتعته، كانت مريم سخية جدا، وحاول خالد مجاراتها في نفس درجة سخائها لكنه لم ينجح على أي حال، كان مسرح لقاءاتهما وانفرادهما ببعضهما

سويا شقته الفاخرة التي يملكها بأحد الأبراج الكبيرة بالقرب من العاصمة يعبان من كؤوس الغرام الانساني الملتهب ما يبهجهما ويريحهما، كانت تلك الشقة بمثابة عش زواجها المرتقب، في لحظات افاقة مريم من غيبوبة الحب وسكرته كانت تستكشف أشياء غريبة متناثرة أو ملقاة بإهمال داخل الشقة أو مبعثرة علىٰ أرضيتها غير النظيفة وغير المرتبة في أغلب الاحيان، كانت تصادف سرنجات حقن بلاستيكية فارغة ملقاة في زوايا المطبخ أو بجوار سلة المهملات حيث كان يجب أن توضع، أيضا كانت تلاحظ بقايا طعام قديم ملقي علىٰ الطاولة أمام التلفاز حيث غرفة المعيشة الرئيسية وكذلك زجاجات كثيرة فارغة لمشروبات غير مألوفة بالنسبة لها منتشرة علىٰ سجاد الأرضية حيث يفضل الحلوس مرتاحا ممددا ساقيه أمام التلفاز.

وقعت عينيها ذات مرة علىٰ أشرطة لحبوب دوائية، استغربت الأمر، فهي لا تفارقه تقريبا في أيامهم الأخيرة ولم تلحظ عليه مرضا أو أعراضا يتطلب علاجها بأي نوع من الأدوية، بل العكس تراه في معظم الأوقات بكامل حيويته الصحية ونشاطه الذهني الحاضر وسرعة بديهيته خاصة في تعليقاته الساخرة المثيرة التي لم تعتدها أذنيها من قبل وربما قررت في هذه المرحلة من عمرها أن تثيرها وتدهشها، سألته عنها متعجبة عن تلك الحبوب!، أجابها أن النوم يتعذر عليه أحيانا بسبب مشكلاته مع إخوانه ووالده فيضطر ابتلاع هذه الحبوب، طبيب صديق وصفها حتىٰ أتمكن من النوم، أيضا لاحظت آثارا لحروق علىٰ هيئة ندوب صغيرة، وبقع دماء تظهر علىٰ ملاءات السرير، وفرش الشقة في مواضع مختلفة، كأنها ناتجة عن طفي سجائر

متساقط بإهمال علىٰ الفرش، صورة ذهنية إيجابية كانت مسيطرة علىٰ دماغها دائما تدفع بها إلىٰ الاقتراب من تحقيق حلمها في أن تمتلك اسرة وتعيش أخيرا مثل الفتيات من أقاربها وزميلاتها في المدرسة، هذه الصورة الذهنية التي احتلت عقلها هذه الأيام كان صورة ذلك الشاب الأعزب المسكين الذي يعيش منفردا في شقته الواسعة، حياة الشاب الفوضوي، الغير عابئ أو مكترث بأي شيء، اقتربت منه بشدة، اعتقدت إنها خبُرت بكل خباياه وتفاصيله، بمجرد أن توصلت إلىٰ تلك النتيجة المرضية لروحها الحائرة أدركت أنه من الطبيعي أن تكون حياة شاب في مثل ظروف خالد عبثية فوضوية غير مرتبة ومنفلتة أحيانا، هكذا تكون حياة الشاب الأعزب الطبيعية ولا يمكن أن تتوقع غير ذلك، هكذا استراحت واسترخت ورفضت بقوة أن تترجم كل تلك القرائن التي تصادفها في الشقة كلما زارته إلىٰ شيء يخالف ما استقر في خيالها وصورتها الذهنية حيث ارتاحت وهدأت الآن، كانت تردد مع نفسها أن أحواله سوف تنصلح بمجرد انتقالها للمعيشة الدائمة معه، اقترب خالد منها عاطفيا بشدة، تمت خطبتهما وتقرر الزواج في الشهر التالي علىٰ إعلان الخطوبة، كانت مريم خلال تلك الأيام في قمة فرحها الانساني الرائع، حتىٰ لو كانت بمعزل عن صويحبات عمرها، يكفيها الآن صحبة خالد الذي شغل كل خليه داخل جسدها الفائر المتوهج والمترقب للسعادة والحب والاستقرار الذي تسعىٰ اليه الآن، لكن يبدو أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، اختفىٰ خالد عن الظهور في مكان العمل فجأة، غلقت هواتفه الثلاثة التي اعتاد أن يحملها ويعبث بها بأصابعه معظم الوقت، ارتبكت مريم

كثيرا، الجميع يسألها عنه في الوزارة وهي لا تدري عنه شيئا !، قلقت بشدة، ولجت إلىٰ الشقة عدة مرات، لا أثر له علىٰ الاطلاق، قررت أخيرا أن تستعلم عنه من البيت آخر مكان في عالمه يمكن أن تذهب اليه، التقت اخته عدة مرات عقب الخطوبة، ولم تبد ارتياحا لمريم ولا لمشروع الخطوبة ذاته، ترك ذلك انطباعا سيئا لدي مريم يتعلق بحياتها المقبلة مع أهل زوجها، لكنها مضطرة الآن إلىٰ الاطمئنان عليه بوصفه خطيبها علىٰ الرغم من أن أحدهم من أقاربه لم يكن بصحبته يوم التقىٰ خالد بوالدها في صالون بيتهم واتفقا مبدئيا علىٰ مشروع الزواج واتمامه بلقاء العائلتين معا، قلقها ورعبها بسبب اختفاء خالد المفاجئ جعلاها تترفع عن تلك التحفظات من جانب عائلته، بل وتتناساها وتدق الباب، فتحت لها الخادمة الأسيوية، سلمتها إلىٰ غرفة الاستقبال الواسعة الفخمة التي تعكس مناخ الرفاهية الذي يرفل فيه القصر الكبير الكائن في ضاحية هادئة جنوب العاصمة حيث تقطن عائلة خالد حبيبها الغالي الذي حضرت لكي تتلمس أخباره، هلت سيدة نحيلة، قصيرة القامة، سمراء، جامدة الوجه والطلة، اشتمت في ملامحها رائحة خالد، لم تبدو مرحبة، أخبرتها أن خالد يرقد بالمستشفىٰ منذ أربعة أيام، ما يزال في غرفة الرعاية المكثفة نتيجة جرعة زائدة من مخدر «الهيروين» كادت تقتله، هكذا مرة واحدة خرجت الكلمات مثل المدفع الرشاش سريع الطلقات من فم سيدة القصر الجامدة التي هبطت عليها من الطابق الثاني والتي لم تهتم بتحية خطيبة ابنها، أو التعرف عليها، بل تركتها وعادت بسرعة من حيث أتت، قتلتها الدهشة، لم تتمالك نفسها، استلقت بظهرها لعلها تستريح

أو تفيق قبل أن تجد نفسها قافزة بسرعة نحو بالباب، ثـم إلىٰ سيارتها دون أن تهـتم بكشـف تفاصـيل أخـرىٰ، كانـت السـيارة وهـي تخـترق الشوارع ومنحنيات الميادين تبدو مثل ثـور جـريح انـتفض بقـوة علـىٰ قاتله يريد التهامه لكنه عاجز، كسير الـنفس والجنـاح، لا يملـك سـوىٰ الهـدوء والوداعـة والاختبـاء، والاعـتراف بسـوء الحـظ وخيبـة الأمـل، هكذا كان حال مريم، مثل سيارتها التي حاولـت الانتفـاض لكرامتهـا، وسـعادتها التـي ذويـت بسـرعة أكثـر ممـا ينبغـي، قبـل أن تصـفق بـاب غرفتهـا وراءهـا تـداعت أمامهـا صـور فيحـاء صـديقتها التعيسـة كمـا اعتادت أن تناديها بتباهي أيام كانت متحررة من ربقة الحب وهمومـه، وكيف كان حالها مع زوجها المـدمن، وكيـف تحولـت إلـىٰ مسـكينة، مدمنـة مـن الطـراز الأول، وعلاقتهـا بعبـدالله المـدمن أيضـا، ثـم نادتهـا صورة صديقتها الثانيـة هـانوف، الفتـاة القويـة الشـكيمة، التـي انزلقـت أيضا إلىٰ الهاوية وكيف كانت بائسة، تعيسة، ضـائعة، ادخلـت عبـدالله إلىٰ دائرتهم، لكنها نجحت في النجاة بمعجزة تستحق أن تتعلمها الآن، استلقت علىٰ سريرها بعد أن تخلصت من ملابسها وتمددت طمعـا في أن تغمض جفنيها، لكنها لـم تستطع أن ترىٰ النوم، كل ما استطاعت أن تـراه خيـالات وأفكـار، وأصـوات، واشـارات طفقـت تـنهش في رأسـها الصـغير المضـطجع بهـدوء علـىٰ الوسـادة وقـد انتشـر شـعرها الأسـود الفاحم الناعم الطويل علىٰ جانبيها مستكينا مثلهـا ولكـن بغيـر زهـو أو تباهي، كأن العالم كله كـان يعلـم حقيقـة خالـد سـواها، كـم هـي غبيـة، مجرد مراهقة صغيرة فرحت بلعبة صغيرة الهتها عن كل شيء، أعمتها عـن الـدنيا كلهـا، الآن بـدأت تسـتفيق، وتفهـم مغـزىٰ الإشـارات

والتلميحات التي حاولت زميلاتها في العمل إيصالها، لكنها غبية، مجنونة، كيف تذهب إلىٰ الشقة عدة مرات وترىٰ ما ترىٰ فيها ولا تفهم، كثيرا ما تحدثت فيحاء وهانوف عن أشياء مثل ذلك في حضورها، وكيف كن يصفن أدق التفاصيل التي تحدث مع رجالهن أثناء التعاطي، وكانت تجلس بينهن مشدوهة، تفتح ثغرها الصغير علىٰ اتساعه كأنها تلج داخل حكايات اسطورية مدهشة، وعندما تنتهي الأمسية تودعهن علىٰ أمل الاتصال واللقاء التالي دون أن تحمل داخلها مجرد رزاز من وقائعهن الاسطورية، يبدو كأنها من فرط اندهاشها وقوة تأثرها بهذه الوقائع أثناء الحكي، واشفاقها علىٰ صويحباتها من جراء تلك الجبال من الألم الذي يعايشونه والانتهاك والاهانة تجد نفسها وقد نسيت أو تناست أو انكرت علىٰ نفسها كل ذلك رغما عن ارادتها لكي تتجنب الألم الذي تسعىٰ طوال عمرها أن تتحاشاه بكل أساليب التجنب والهروب والانسحاب، الآن تجد نفسها في مواجهة مباشرة صريحة مع الورطة وتلك الحواديت الأسطورية حيث كانت صديقتاها أبطالا سابقين لها، دخلت الفخ ولا تعرف كيف تتصرف، اتصلت علىٰ فيحاء وهانوف عدة مرات، تلقت وعودا باللقاء لكن دون جدوىٰ، مراوغات، وانشغالات دائما تحول دون إتمام هذا اللقاء، مضىٰ الوقت بطيئا في البداية، خيال خالد ظل يرافقها ولا تستطيع التخلص منه، اسبوعين انصرما منذ لقائها السخيف بوالدته ولا أخبار أو اتصالات، اعلنت لهم في العمل أنه بالمستشفىٰ بعد تعرضه لحادث سيارة، سعىٰ الزملاء إلىٰ التفاصيل ليتمكنوا من زيارته، أخبرتهم ممنوع عنه الزيارة، وأهله لا يرغبون في

الزيارات، هكذا حفظت ماء وجهها قبل أن تذهب إلىٰ عمها وكيل الوزارة وتخبره برغبتها في الانتقال إلىٰ مكان آخر خارج ديوان الوزارة، حقق لها الرجل طلبها في ظرف يومين اثنين، شعرت باسترخاء عجيب، كأن كل ما كان يثقلها هو ذلك المكان والبشر الذين يسعون داخله في برود، لكن الذي حدث عقب نهاية الاسبوعين إنها تسلمت اتصالا هاتفيا من خالد، كان صوته ضعيف، لكنه يشع بالحنان المتوهج المعتاد والذي سلبها عقلها وعواطفها وكل شيء، ارتبكت، خفق قلبها، ضاع غضبها في هوة سحيقة، تمازجت الفرحة مع اللهفة والشوق وعبارات التلهف علىٰ صحته وأخباره، كاد قلبها يقفز للخارج من الفرحة بحرارة الاتصال وحنين العودة للغرام وروعة أيامه المدهشة، اعرب لها عن أسفه لأنه تركها كل تلك المدة بسبب غيابه في الغيبوبة، ادركت أن امه أبلغته بلقائهما الحزين غير المريح، ومؤكد علم الآن أنها خبرت بأمر إدمانه علىٰ المخدرات، ظل طول الوقت يثرثر لها عن حبه واشتياقه وخجله، أخبرها أنه عجز عن البوح لها بسر ادمانه لأنه خشىٰ أن يفقدها إلىٰ الأبد، وكان يسعىٰ طول الوقت للتوقف عن التعاطي خاصة عقب اعلان خطبتهما، شعرت أن شيئا ما يجذبها نحوه بقوة، لا تستطيع أن تصدقه لكنها لا بد أن تصدق كلماته التي تخرج بهذه السلاسة، وهذا الحنو الساحر الذي لا تتمالك سوىٰ احتضانه والعيش داخله مدىٰ الحياة، عقب نهاية الاتصال ايقنت كم هي ضعيفة، غبية، كأنها مدمنة مثله، لن تستطيع الخروج من فلكه حيث مصيرها وقدرها، ثنائية عاطفية عجيبة عاشتها مريم، هذا التجاذب الرهيب في المشاعر المتناقضة كم هو مؤلم يا مريم، ولماذا

قدر عليك أن تختاريه بكامل وعيك وارادتك؟ انها مشيئة الانسان حين يسعىٰ إلىٰ التعاسة من أجل قطعة صغيرة من السكر تهون عليه شقاء الرحلة وأهوالها، كانت ترىٰ أن فيحاء تواجه نفس المصير لكن هانوف استطاعت النجاة والهرب بعد أن تمكنت بشجاعة من الاستغناء عن قطعة السكر، الآن تحتاجهم بشدة، تريد أن ترمي رأسها في حضن فيحاء وتبكي، أن تطالع في عيني هانوف القوية وتسألها كيف حدث ذلك معك ؟ ومن اين أتيتي بكل تلك القوة التي ابعدتك عن المستنقع، تريد أن تخبرهم أنها اصبحت مثلهم، كلنا اصبحنا في ذات الهم سواء، أفكارها تتواتر كأن شيطان مضطجع بجوار أذنيها يلقنها، وماكينة افكارها لا تتوقف، تنتج كل ثانية فكرة جديدة، مؤرقة، مربكة، مرعبة، خاصمت النوم عدة أيام بعد اتصال خالد الوحيد، كانت تترقب اتصاله مرة ثانية وثالثة غير أنه لم يفعلها بدت مرتاحة وقلقة في نفس الوقت، كأنها كانت تريده أن يستمر في تواصله معها ولا يستمر في نفس الوقت، قررت الا تذهب للمستشفىٰ حتىٰ لا تلتقي بأحد من أقاربه خاصة امه، وفي نفس الوقت يتقطع قلبها جزعا وتهفوا بشدة للذهاب إلىٰ المستشفىٰ للنظر في عينيه وسماع صوته الذي اشتاقت اليه، ومع ماكينة التفكير الدائرة اكتشفت أنها انحازت إلىٰ الابتعاد الجسدي، ربما شعرت أنها في مأمن حتىٰ يستبين الأمر، واليوم قد يتحقق المراد، اتصالين من صديقتيها التي تحتاجهم بشدة في هذا الظرف الدقيق من حياتها يخبرانها برغبتهن في اللقاء اليوم، والآن تمضي بسرعة متلهفة، متشوقة، تتعشم في حل يريحها، يعيد إليها اتزانها وعقلها، ويجعلها تنام لمدة ساعة علىٰ الأقل.

(21)

أجواء حرب

الأجواء ليست اعتيادية هذه الأيام، غيوم الحرب تراكمت فوق بعضها، أثقلت السماء والألسنة والقلوب التي في الصدور، لم يعد هناك حديث يعلو عن حديث الحرب التي تقرع الأبواب بقوة وقد اقتربت من الأفئدة التي أصابها الجزع، عشرات المئات من الأسر حزموا حقائبهم وغادروا بليل ومن دون جلبة أو حتىٰ وداع، هلعوا من رؤية مشاهد حاملات الطائرات التي تفترش مياه الخليج الهادئة، وزمجرة سفن الاسطول التي كانت تصخب في المياه العربية انتهاكا واغتصابا واستعلاء، المجهول عادة يكون قاس وغير محتمل، لكن المدهش أنه في هذه المرة لا يباغتك مثل المعتاد، بل يصاحبك وربما يصلي الظهر معك وتظل علىٰ حالك معه وقد اصطحبت حالة من الترقب والخوف والاضطراب، وتستسلم أخيرا لتلك الحالة العبثية من اللامبالاة، هكذا كان حال الناس اللذين قرروا أن يعيشون حياتهم بطبيعية علىٰ الرغم من طبول الحرب التي تدق بقوة علىٰ مسافة بضعة كيلومترات من آذانهم، وكذلك مشاهد الطائرات الحربية العملاقة والصواريخ واسلحة الدمار الشامل التي سيطر الحديث عنها علىٰ جميع المواقف والمشاهد والتجمعات، المثير للدهشة أن هذه الأسلحة الفتاكة الخطيرة مدفونة علىٰ بعد بضعة كيلومترات منهم حسبما يزعمون، لكنها حتىٰ الآن تظل مجرد واقع افتراضي لم تستطع

المنظمات الدولية ولا غيرها تأكيده او نفيه، ورغم ذلك هلعت القلوب التي في الصدور خاصة قلوب القاطنين في الأرض المجاورة لأرض الخليفة «هارون الرشيد «حيث يزعمون إنها مدفونة في أعماقها، اصطحب «الكاو بوي «الامريكي بوش الابن بوارجه العملاقة، وطائراته الحربية، وصواريخه المعبأة باليورانيوم المنضب وعشرات الآلاف من رجال المارينز، اضافة إلىٰ ما تيسر من اسلحة وذخيرة وعسكر الحلفاء الطامحين إلىٰ التهام جزء من كعكة الخليفة هارون الرشيد مع هذا الكاو بوي المنفلت عياره، الذي أصبح في حالة من الزهو والتباهي بسبب استفراده بتلابيب الكرة الارضية، واكتشافه أنه أصبح يدير الأرض منفردا كما أصبح من حقه صياغة القوانين واللوائح التي تحكم العالم وكذلك النظام العالمي الجديد الذي ينبغي أن يسير عليه العالم بعد اليوم.

هكذا ساقت المقادير بغداد الرشيد، مآذنها وعبق تاريخها الفواح المتجلي في ازقتها القديمة وحاناتها حيث مشىٰ هنا ابو نواس وشرب من خمرها وتحدىٰ الفحول من شعراء زمانه داخل قصور الرشيد الخيالية، ساقت المقادير بغداد الرشيد لأن يصطدم بها راعي البقر الأمريكي الذي انفلت عياره، كان في ذروة قوته وجبروته وحقده المجنون، شهيته مفتوحة للتدمير والقتل من دون حساب، هوايته المفضلة طمس التاريخ وتدمير الحضارات وإثارة الفوضىٰ وإشعال النيران في كل مكان، لك الله يا بغداد الرشيد، ولجميع البشر علىٰ أرض العراق المغلوب علىٰ أمره، لسوء الحظ تلك اللحظة من تاريخ العالم تشهد هوانا، وضعفا غير مسبوقين في النظام الكوني، لم يعد

بوسع أحد ردع راعي البقر الامريكي من أن ينفذ مخططاته ومشيئته التي رسمها له حكماء الاستراتيجية الدولية المتصهينين داخل غرف البيت الابيض، يشعل نيران القتل والدمار الشامل في النهار وفي المساء يظهر علىٰ شاشة التلفاز يخاطب العالم بصفته حامي حمىٰ الكرة الأرضية من الإرهاب الاسلامي، ومن أولئك المسلمين المتخلفين الذين يعيشون خارج الزمن والتاريخ ويحقدون علىٰ الحضارة الغربية، وعلىٰ نمط الحياة فيها، ويسعون إلىٰ تدمير تلك الحضارة بأي ثمن، هذه الأجواء، وهذه الأفكار كانت مهيمنة بقوة علىٰ ادمغة غالبية من يسيرون في الشوارع في ذلك المساء من شهر مارس عام 2003 الميلادي، وكذلك كانت مسيطرة علىٰ أولئك الذين يفترشون الساحات في المقاهي الشعبية ويتابعون بشغف آخر الأنباء علىٰ شاشات التلفاز العريضة بينما ينفثون أغبرة دخان التبغ والشيشة من افواه بدا عليها الاضطراب والقلق وعدم العناية، ناهيك عن ذلك القدر الكبير من القلق والارتباك والترقب الذي صارت عليه الأحوال داخل البيوت والمصالح الحكومية وبين العاملين وبعضهم في المحلات التجارية والمؤسسات الحكومية والخاصة، حالة فريدة من التوجس انتابت الجميع، لم يعد هناك سوىٰ القلق من الحرب، والقلق علىٰ الأحوال، والجزع من المجهول الذي أمكن مصاحبته لاحقا بحكم التعود، صحيح أن مسرح عمليات الحرب ليس هنا، لكن الجار مهدد بالتدمير، هكذا أعلن زعيم بغداد الرشيد صدام حسين وكان يبدو في التلفاز غاضبا وواثقا من نفسه تماما، أعلن بوضوح لا لبس فيه أنه سوف يدمر البلد المجاور الذي يأوي القواعد الحربية

التي سوف تمطر عاصمة الرشيد بالجحيم، ومنذ ذلك اليوم لم يعد لأحد الادعاء أنه اصبح بمنأىٰ عن القتل، كانت سيارة مريم تقترب من مصفطها المعتاد بالقرب من المقهىٰ المطل علىٰ الخليج حيث الموعد المضروب المترقب مع الصديقات، وذلك المكان المفضل لهن الاجتماع في حضنه حينما كان الود متصلا قبل أن تدهمهم الأحداث وأيام الشقاء وانشغالات الدنيا، بدا تأثير أنباء الحرب التي تقرع الابواب واضح علىٰ حركة الناس في الشوارع، بدت شبه خالية من المارة علىٰ الرغم من تلك النفحة الرائعة من نسمات الخليج التي تزور تلك الارض المضطربة هذه الأيام، كذلك بدت الحوانيت شبه مهجورة من مرتاديها الذين اعتادوا أن يتجولون فيها تيها ومرحا وهوسا بالشراء والاقتناء، لم تبذل مريم مجهودا لكي تجد مكانا تصفت فيها سيارتها، المكان كان شبه خال تقريبا وغالبية الناس علىٰ ما يبدو إما رحلوا تقية أو رعبا من أيام قادمة مهولة مجهولة، لا يعرفون ما الذي يمكن أن تخبئه لهم مقاديرها في رحم الغيب الغامض، والجانب الأعظم من الناس ظلوا مختبئين داخل منازلهم، متسمرين أمام شاشات التلفاز يتابعون بترقب وخوف الأحداث التي تتواتر عليهم بسرعة غير اعتيادية انتظارا لمجهول لا يدرون كنهه قد يطرق بابهم في اية ثانية، مجهول لا يعلمونه ولا يتحسبون عواقبه، وتأكد أكثرهم أن امرهم الآن اصبح معلقا بين يدي الله، وفي انتظار ارادته ومشيئته التي سوف تنفذ فيهم علىٰ أي حال، دلفت مريم إلىٰ الركن المعتاد لديهن في المقهىٰ الذي يحتل إحدىٰ الزوايا للداخل لكنه يواجه مياه الخليج، ويطالع ذلك المنظر الأخاذ حيث تبدو مياه

الخليج ساكنة، خافتة علىٰ الرغم من تلك الاضواء المنسكبة علىٰ السطح من بعيد، كأنها توحدت مع البشر المتواجدين حولها وأمامها ومع تلك المشاعر المضطربة من القلق والترقب والرعب من المجهول القادم، كانت مريم علىٰ نفس الحالة من الترقب بعد أن اعتدلت في جلستها علىٰ مقعدها المفضل واستراحت، بسطت ذراعها علىٰ الطاولة أمامها في اشارة لمدىٰ الافتقاد للمكان والصديقات، وإلىٰ تلك الرائحة التي ينثرها بحر الخليج الطيب الهادئ في خلاياها وفي وروحها فتثير فيها شعورا عارما بالنشوة والسعادة والطمأنينة، ربما لا تسعفها تلك اللحظة من الولوج إلىٰ ذلك الشعور بالطمأنينة والتوحد مع العبق القديم حيث كان الزمن القديم وكانت الصديقات وكان النسيم يداعب وجوههن الندية المختالة، كان الكون علىٰ براحه لا يتسع لطموحاتهن ولا إلىٰ توقعاتهن ابدا، الفراغ من بعيد يبدو موحش وكذلك كانت حركة المارة تبدو متباطئة في الشارع، أو لدىٰ المستلقين في الجوار علىٰ المقهىٰ ينفثون دخان النارجيلة، كأنها كسولة أو غير متحمسة أو مرتجفة، ولكن الذي أنعش الحركة والمنظر حينذاك وحرك الماء الراكد كان ظهور شبح من بعيد حدقت فيه مريم بدقة، اتسعت حدقتاها أكثر متزامنة مع ابتسامتها ودهشتها معا، كأنها فيحاء الجميلة، هكذا دار الأمر برأسها، وهكذا أيضا قالت لنفسها وهي تطالع ذلك الشبح النحيل القادم من بعيد مخترقا نهر شارع الخليج والطاولات المتراصة بغير انتظام، كانت تسير بخطوات متباطئة، وكانت تبدو كسيرة وعلىٰ غير المعتاد كان شعرها محتجبا بإيشارب لونه أسود غامق نفس لون البلوز المغلق الطويل والبنطال

الواسع، سيطر الشحوب علىٰ وجهها لدرجة ازعجت مريم التي تركت مقعدها علىٰ الفور وهرعت نحوها تحتضنها بقوة ولا تملك سوىٰ كلمة واحدة ترددها وهي تجلسها علىٰ الكرسي الملاصق «مالك حبيبتي، ايش بيكي؟» طفقت تكرر هاتين العبارتين وفيحاء تعتدل في جلستها، ظهرت أخيرا علىٰ وجهها الشاحب ابتسامة عريضة مريحة صوبتها نحو مريم المنزعجة من منظري الشحوب ولباس الحداد، هذه الابتسامة كانت كفيلة بتبديد القلق والاضطراب وطمأنتها أن كل شيء ما يزال علىٰ حالة، مرقت الكثير من الدقائق، طار معها كلام الصديقتان القديمتان، وطار معها أيضا شجن الأيام والليالي قبل أن تهل هانوف عليهم فجأة، كانوا مستغرقين تماما في الحكي والشجن، جاءت هانوف بحال غير معتاد أيضا، شاحبة مطفأة الابتسامة، كأنها لم تكن سعيدة أو متحمسة إلىٰ لقاء صديقتيها القديمتين مثلما كان الحال مع مريم وفيحاء، جلست بسرعة، أخبرتهم أن حربا كبيرة توشك علىٰ الاندلاع في المنطقة، وإن قتالا وتدميرا كبيرين سوف يحدثان في البلاد، وانها مرعوبة جدا من أن تنسحق البلاد بين الامريكان والعراقيين، بحنكتها الكبيرة مع هانوف ادركت مريم أن هانوف تخبئ أهوالا داخلها، وإن موضوع الحرب مجرد غطاء أو الجزء الذي يبدو علىٰ السطح ويخفف من توتراتها الداخلية، صمتوا لحظات قبل أن تقرر مريم الانفجار فيهن، إنها المرة الأولىٰ في حياتها التي تفقد السيطرة علىٰ انفعالها وتبدو غير متزنة، غاضبة منفلتة رفعت صوتها عاليا «أرجوكم اهتموا بي ولو للحظة، لم أعد أحتمل أكثر من ذلك، أنا أيضا لدي مشاكل مثلكن، أنتن ما زلتن تعشن في

عالم الأنانية البغيض، كل واحدة منكن لا ترىٰ سوىٰ نفسها، وكيف أعتني بها وألعب لها في شعرها مثل الأطفال، افهموا، لم تعودوا أطفالا بعد، أمهاتكم في بيوتكم هناك، لست أنا «انهارت بالبكاء بحرقة وبطريقة مسرحية استلفتت انتباه رواد المقهىٰ حتىٰ هؤلاء الجالسين في الزوايا البعيدة، جاءهم أحد الشباب من طاولة مجاورة، كان يراقبهن بحكم الفضول، جاء يعرض خدماته، اعتذرت له هانوف باستخفاف، بدا الأمر مستغربا بشدة وغير مفهوم علىٰ الرفيقتان، سعين إلىٰ تهدئتها، مازالت تتمتم بعبارات خاصة سريعة غامضة عليهما تحمل سبا وعتابا ولوما، وجاء النادل بزجاجة مياه معدنية وثلاثة اكواب رصهما بعناية أمامها ومتجنبا النظر إلىٰ الفتاة التي احتضن وجهها الطاولة وكانت تنتحب بشدة وعدم اتزان، ورفيقتيها يحاولان تهدئتها ورفع وجهها الملتصق بالطاولة لتناول كوب الماء، لم يستمر هذا المشهد علىٰ حاله كثيرا، أخبرتهم مريم بقصتها مع خالد، طالبتهم بمساعدتها الآن، اختطفهم الوجوم لحظات قبل أن تضرب هانوف صدرها بكفها الأيمن وتحملق فيها بإشفاق، وقبل أن تخرج كلمة عتاب من فم فيحاء لأن مريم اخفت عنهم خبر تلك العلاقة منذ بدايتها، المؤكد أن شيئا لم يعد علىٰ حاله بعد هذا اللقاء، أخبرتها هانوف بضرورة التأني قبل اتخاذ قرار فصم العلاقة، اقترحت منح خالد فرصة أخرىٰ لأنه يحبها، بينما تميزت فيحاء غيظا بعدما خرجت من وجومها وعتابها، شددت علىٰ ضرورة أن تخرج مريم من هذه الأزمة فورا بأقل قدر من الخسائر عن طريق الانتهاء فورا من هذه العلاقة واعتبارها كأنها لم تكن، هكذا دارت تعاريج الطريق مع

التعاريج المعقدة التي تمور داخل رأسها وهي تعود قافلة إلىٰ بيتها تحاول أن تستبين ملامح صديقتي العمر في مرآة سيارتها وقد تبدلتا تماما، لم يعد لديها المقدرة علىٰ أن تميز من هي هانوف؟ ومن هي فيحاء؟ كأن الملامح والأفكار وحتىٰ الهواء الذي يشهقانه تغير، الآن لم يعد يدهشها شيء بينما سيارتها تنحني مع تعاريج الطريق بسرعة غير منضبطة، موقف هانوف التي جاءت صاخبة في البداية وتحدثت عن الحرب كما يعلمها الجميع، والتي أزكمت رائحتها الأجواء والشوارع واحاديث الناس علىٰ موائد الطعام، الآن تطلب منها التريث بعكس ما فعلته نفسها مع عبدالله حبيبها السابق، الذي ادخلها عالم تعاطي المخدرات للمرة الأولىٰ في حياتها، كانت مريم قد أدركت منذ البداية أن وراء هانوف سرا تخفيه في تلافيف صدرها الصغير الضيق لا علاقة له بقصة هلعها من أجواء الحرب علىٰ الحدود القريبة، قالت في نفسها وهي تهدئ من روع السيارة وتحاول احكام السيطرة عليها بعد ولوجها في منطقة مزدحمة «ربما ارتبطت بشاب مدمن آخر علىٰ شاكلة عبدالله وترغب في منح نفسها فرصة اخرىٰ» مع اقتراب السيارة من المنزل كانت متحيرة بشدة من موقف فيحاء الذي لم تستطيع أن تجد له تفسيرا مقنعا، دلفت إلىٰ منزلها متسللة، متسربله بطوفان من الحيرة والتردد والشكوك.

(22)

الهروب إلى الخلف

مع الهدوء المسيطر على أركان منطقة السجون، وعلى الرغم من نذر الصدام المسلح، وتداول الأخبار بخصوص اقتراب الحرب من الحدود، كان هناك هدوء داخلي خاص، وسلام شخصي يخص مشعل بعد زيارة أخوه عارف أخيرا وما سمعه، أن له الآن أن يستريح ويستمتع بما هو قادم من أيام ومن أخبار، هكذا قال لنفسه وهو يتهيأ للنوم تاركا خلفه زملائه في العنبر يصخبون، أو يتحلقون حول التلفاز يتأملون وجه المذيعة اللامع بينما كانت تذيع أخبار اجتماعات مجلس الأمن الدولي لمواجهة الموقف في العراق، واتهامات الرئيس الامريكي جورج بوش الابن للرئيس العراقي صدام حسين بتخزين أسلحة الدمار الشامل، ومساندته لتنظيم القاعدة الذي شن هجمات عدائية على أهداف في نيويورك وواشنطن وقتل على خلفية هذه الهجمات آلاف المواطنين الامريكيين، استكان مشعل إلى غفوة قصيرة رأى خلالها نفسه كأنه يطير في الفضاء بجناحين، وكان إخوانه وأخواته يتحلقون حوله طيرا بأجنحة أيضا، والمدهش أن الجميع كان يضحك بهستيريا لافتة، استفاق على ألم ضغط المثانة، قفز بسرعة من فراشه إلى الحمام، حينما عاد كان النوم قد خاصمه، شعر بإفاقة

غريبة، غالبية زملاء العنبر خلدوا للنوم، ولا يزال صوت التلفاز يصنع الضوضاء في الخارج، عرج إلى الصالة، كانوا ثلاثة ينامون في استرخاء، اثنان منهم غلبهم النوم تماما ورقدوا على جنوبهم، وأما الثالث فكان يتابع المسلسل التلفزيوني القديم باهتمام لافت، تمدد بجواره، حملق في شاشة التلفاز لكن لا يرى سوى صور هذا الحلم وتلك العائلة الطائرة بأجنحة والجميع يضحكون بشدة، ابتسم، ارتفع صوته بالضحك، اعتقد رفيقه أنه يضحك على أحد المشاهد الهزلية في المسلسل التلفزيوني، لكنه استمر في القهقهة، لم يستطيع أن يتمالك نفسه، التفت إليه رفيقه، ضحك أيضا بفعل العدوى، استيقظ الرفيقان الآخران من سباتهما، طفقا يضحكان من دون أن يعرفا السبب قبل أن يغادرا صالة التلفاز وبقى رفيقه الذي يتابع المسلسل شغوفا بمعرفة سبب هذا الاسهال من الضحك، أخبره عن حلمه، وعن فرحته بانفراج الأزمة مع اخوانه، وشعوره الآن بقوة العائلة، بدت مسألة انشغال مشعل بأمور التغيير واستعادة علاقته بإخوانه وشقيقاته محورية في تفكيره، وتصرفاته، كأنه لم يعد يتذكر المخدرات ولا أيامها ولا الرفاق، عدا عبدالله الذي كانت صورته تتخلل رأسه خاصة في لحظات انقباضه وولوجه في مزاج اكتئابي عصيب، حينها تتملكه مشاعر الوحدة والسأم، والعدمية، وتطل عليه بوضوح ذكرى حادثة مقتل عامل البقالة التي ما فتئت تسيطر على داخله، تتشبث بوجدانه، تعتصره اعتصارا، في هذه الحالة يظهر

شبح عبدالله ربما باعتباره منقذا، أو شريكا، المهم أنه يظهر بجواره يناجيه بلغة غير مفهومة، ويظل هكذا حتىٰ تزول موجات الكآبة ويعتدل المزاج، فيما عدا ذلك لا يكاد يتذكر المخدرات علىٰ الرغم من أن الكثير من رفاق العنبر ينجحون في تهريبها إلىٰ داخل السجن وتعاطيها في سهرات المساء، لكنه لم يفكر ولو مرة واحدة في مشاركتهم، والعجيب أنه لم يضبط نفسه ولو لمرة واحدة متلهفا علىٰ «الهيروين» فقط كان يحتاج إلىٰ شد نفس سيجارة حشيش، وهذا ما كان يفعله في زياراته لزميله في السجن الذي يدخن الحشيش أحيانا، شعور غريب اعتراه في هذه الفترة لم يتمكن من أن يحدد له سببا أو يجد له إجابه عن تلك الحالة من الشبع من «الهيروين» علىٰ الرغم من توفره بكثرة داخل السجن، يبدو أنه فقد جاذبيته بالنسبة له، هكذا كان يردد لنفسه دائما، لم يعد لديه رغبة أو إرادة في الاقتراب منه، لم تعد تدهمه تلك الحالات من اللهفة وقوة الشره للتعاطي مثل زمان إذا ما توقف عن التعاطي ولو لنصف يوم، حالة غريبة من التشبع والشبع من المخدرات عموما دهمته منذ دخوله السجن، حتىٰ سيجارة الحشيش التي كان يذهب إلىٰ زميله لالتقاط بعض الأنفاس منها لم تكن تناديه بإلحاح، بل كان يفعل ذلك ترفا في معظم الأحيان، ومضطرا حينما يضرب الشوق رأسه في أحوال نادرة، لاحظ هذا الأمر جيدا علىٰ نفسه وكذلك لاحظه زملائه المقربين الذين يعرفونه من الخارج، ربما تلك الحالة كانت العامل الرئيسي في

مساعدته علىٰ تغيير نفسه وأفكاره، وولوجه ضمن عالم جديد يظهر فيه بنسخة جديدة متحررة من تعاطي المخدرات ومشاكلها، بدا الأمر كأن كابوسا غيبه عدة سنوات وعندما أفاق لم يعد يتذكر الكابوس ولا أي شيء يتعلق به، اللهم سوىٰ تلك اللحظات التي تختطفه فيها موجة الكآبة والكرب حينما تتثاقل عليه الضغوط والهموم، تصبح تلك الحالة مجرد متنفس يريحه قليلا من الإجهاد قبل أن يعود ثانية لمرارة الواقع الجديد بمسئولياته والآمه، تيقن أنه انتهىٰ تقريبا من مشكلة الإدمان وسيطرة المخدرات علىٰ تصرفاته ومقدراته، وأن إخوانه بطريقتهم تابعوا ذلك واصبحوا متأكدين من تغيره وانصلاح أحواله، أنه الآن يعش أسعد لحظات حياته، وأهم أيامه علىٰ الاطلاق، لم يعد يهمه أيام السجن، ولا يتنظر يوم الخروج، قرر أن يعيش حياته وأيامه في أي مكان وأي زمان، هو الآن سعيد وكفىٰ، حاله تبدل للأفضل، أصبح يشعر بالتميز، والزهو بنفسه، ينظر للمدمنين داخل السجن بازدراء شديد، يتجنبهم ويقاطعهم، والعجيب أنه مع كل هذا التغيير الذي حدث لم تقتحمه صورة أمه في أية لحظة أو أية مناسبة، انصرف ذهنه عن تذكرها أو التفكير فيها، حتىٰ عندما قرر إخوانه فتح صفحة جديدة معه استغرقته الفرحة وتفاقزت صور اشقاؤه وشقيقاته داخله تحتويه في يقظته وأحلامه عدا صورة امه، والمدهش أكثر أنه لم يضبط نفسه ولو لمرة واحدة مستغرقا في التفكير فيها، كأنه يخشىٰ التسلل إلىٰ هذه المنطقة الوعرة فيعود أدراجه

ويعـاني مـن جديـد، ربمـا يكـون هـذا الأمـر وسـيلته للهـرب إلـىٰ الخلـف ولـيس الأمـام، لكنـه يضـحك علـىٰ أي حـال، ومسـتغرق في الضـحك والفرحـة، وقـرر أن يمضـىٰ أيامـه كـذلك سـعيدا بالحريـة واسـتعادة انسـانيته التـي اهـدرت في الشـوارع وحفـر الحـدائق العامـة، لا يريـد لأي شـيء أن يـنغص عليـه أيامـه ولا لحظاتـه في هـذا المكـان الـذي احتـل مكانـة كبيـرة داخلـه لدرجـة أنـه لـم يعبـأ بإحصـاء الأيـام والشـهور ويتحسـب يـوم خروجـه، اكتفـىٰ فقـط بالفرحـة والحريـة والتغييـر الـذي زلـزل كيانـه ولا يريـد التنـازل عنـه تحـت أي ظـرف مـن الظـروف، تـرك خلفـه التلفـاز يصـدر أصـواتا غريبـة، وسـبقه رفيقـه إلـىٰ عنـبر النـوم لكـن عيـون مشـعل الليلـة لا تغلـق، ظـل محملقـا في سـقف الغرفـة حتـىٰ اسـتمع لآذان الفجر فقام مسرعا يوقظ الآخرين ويتجهز للصلاة.

(23)

انهيار وانتحار

الأمر يحتاج إلىٰ معجزة، وفيحاء تشعر بالوهن لدرجة العجز، عادت من لقاء صديقاتها في حالة شديدة من الاضطراب والتشاؤم، أرادت أن تستغيث بهن فاكتشفت أنهن يطلبن الإغاثة، ربما أكثر منها، شعرت بدوران الأرض من تحتها، استلقت علىٰ السرير بسرعة قبل أن تنهار وتسقط، لم تشعر بالخادمة التي دخلت وفي يدها طفلها يبكي بصوت مرتفع، لم تزعجها الخادمة، أخذت الطفل الباكي وصفقت الباب وراءها، راحت في إغفاءة طويلة، كأنها أرادت أن تهرب من اضطرابها، النوم أضحىٰ خير وسيلة دفاعية للهروب من الاحباط والاكتئاب، أيقظتها أصوات العصافير المتقافزة التي تسكن شجرة اللوز الهندي التي تمددت أوراقها لتتاخم شباك غرفة نومها في حديقة الفيلا من الخارج، ما يزال الوقت مبكر، وما تزال مجزعة، خيالات الماضي امتلكت رأسها لا تغادرها، ما الذي جرىٰ؟ هل أخطأت بذهابها للقاء صويحباتها؟ وماذا كان البديل إذن؟ كانت في حاجة إلىٰ الانفجار والتخفيف من هموم ثقيلة تقربها من الجنون، لكنها لم تحقق هدفها، اكتشف أن كلهن يحملن قنابل غير موقوته جاهزة للانفجار في أية لحظة، كأن عبدالله اكتشف الحل السحري عن طريق القفز بسيارته من الحياة، لكنه لم ينجح أيضا مثلما لم تنجح هي اليوم في الانفجار مع صويحباتها، اكتشف في الأيام الفائتة أن عبدالله ليس مجرد رجل

تحبه ويمكن أن يفترقا في يوم من الأيام، بل كيان مزروع داخلها لا يمكن نزعة سوىٰ بالموت، قالت لنفسها ربما أدرك هو أيضا هذه الحقيقة وقرر التخلص من نفسه عن طريق هذه الحادثة المروعة التي أبرزتها الصحف، وتحدث الناس عن ذلك الشاب المجنون الذي كاد يطير بسيارته من فوق الأرض ويقتحم الجزيرة الخضراء، لكن الأشجار تمكنت من إنقاذ الناس والسيارات في الطريق العكسي الآخر من كارثة مروعة.

الصمت يلف المكان، والصباح ليس كافيا لانتشالها من أحزانها، سالت الأفكار والذكريات والدموع، قالت لنفسها كأنه غضب السماء، تدور بها في دوامة المشاكل والأحزان وهي بعد شابة صغيرة، لكنها لم تعد تتحمل المزيد، ربما الشيء الوحيد الذي يربطها بهذا العالم هما الطفلين الذين أنجبتهم من زوج ضاع إلىٰ الأبد في ذمة الكحول والمخدرات، وحياة بائسة، وحبيب العمر الذي ضاع هو الآخر في خضم واقع معقد، مرتبك وغامض، وقد فقدت المقدرة علىٰ تحمل غموضه، خرج عبدالله من المستشفىٰ وكانت الوحيدة التي رأت روحه وهي تعود إلىٰ جسده مرة ثانية، اعتبرت هذا الأمر مكافأة من السماء علىٰ تحملها كل تلك المعاناة والارتباك، لكنه عاد كائن محطم، لم يعد يصلح للحياة، أصوات صويحباتها ما تزال ترن في فضاء الغرفة، وغضب مريم المسكينة وبكائها جعلها تتذكر بجلاء تجاربها الأولىٰ بعدما اكتشفت أمر إدمان زوجها للكحول، وكيف نجح في إقناعها بمشاركته الأمر! كأن مريم مقبلة علىٰ استنساخ صورة أخرىٰ لفيحاء ورحلة مع الألم والعذاب، نجحت أخيرا في تجاوز تلك

النغمات الحزينة المتواترة التي تدق رأسها بعنف، غادرت غرفة النوم، عرجت علىٰ الصالة، كان الطفلان يلهوان ويتقافزان في الهواء خلف كرة من البلاستيك وكانت الخادمة ترقبهما من بعيد، حاولت الانشغال بأي شيء لتخفف الضغط عن رأسها الذي تنهشه الأفكار، اكتشفت أنها لا تجيد شيء، ولم تحاول علىٰ مدىٰ عمرها أن تهتم بشيء، أو حتىٰ ضبطت نفسها يوما منجذبة لشيء راق لها واستحوذ علىٰ اهتمامها، مخلوقة بدون اهتمامات تقريبا، الشيء الوحيد الذي جذبها واستولىٰ علىٰ اهتمامها وحياتها كان المخدرات، لكنها الآن انتفضت وصارت متوقفة وتعاني مرارة فقدانها سحر المخدر والحبيب أيضا، هذه الدنيا علىٰ اتساعها تعد بمثابة سجن صغير لمشاعرها وأفكارها واهتماماتها، وكيانها كله، ومع قسوة ألم التوقف عن التعاطي حيث يتزلزل داخلها تزداد حركتها داخل البيت اضطرابا وسرعة، تدهمها أفكارا صاخبة تتعلق بجدوىٰ التوقف عن الاستمتاع بالراحة ونشوة كِيْف الدماغ داخل حياة جامدة متبلدة، سالبة للحب والمرح والمتعة، وتيرة الضغط تتزايد والمشقة تتصاعد، والأطفال حواليها يمرحون ويصخبون بلا مبالاة، هكذا قالت لنفسها بعد أن سبقتها دموعا غزيرة فرت من عينيها، وتفاجأت بنفسها تبكي بحرقة، وكانت جالسة شبه منهارة علىٰ أرضية الصالة وظهرها مستند علىٰ أحد المقاعد الضخمة المحشوة بالإسفنج والمفروشة بقماش قطيفة أحمر علىٰ ذهبي والمنتشرة في أرجاء صالون الشقة الفسيح، هرعت الخادمة اليها، تحلق حولها الطفلين أحدهم انخرط في نوبة بكاء صاخبة مثلها، والآخر عقدته مشاعر الهلع والخوف والترقب، ظل محملقا في وجه

أمه يترقب ما يجري، الخادمة تسرع بإدخال كوب الماء البارد في جوفها، ساعدتها حتىٰ نهضت علىٰ قدميها، أوصلتها إلىٰ السرير في غرفة النوم العلوية، تأكدت من ستر جسدها الهزيل بالملاءة قبل أن تظلم الغرفة وتوصد الباب خلفها بصحبة الأطفال، تأخر ظهورها المعتاد صباح اليوم التالي، استيقظ الأطفال، راعت معهم الخادمة كافة الطقوس اليومية في الصباح بدأ من دخول الحمام والنظافة والإفطار والانطلاق والصخب، تجاوزت الساعة الثانية بعد الظهر، لم تظهر فيحاء حتىٰ الآن أو يستدل علىٰ يقظتها بعلامة من طقوسها التي تؤديها يوميا مثل صوت غلق باب الحمام ورائها، والصياح علىٰ الخادمة للصعود ومعرفة الأخبار والتأكد من نظافة الأطفال وافطارهم، كانت في أيامها الأخيرة قد دأبت علىٰ الاستيقاظ قبل صلاة الظهر والاتشاح بأسدال الصلاة الذي اشترته منذ بضعة شهور من أحد المتاجر الراقية التي اعتادت زياراتها كثيرا، تصلي الصبح، تتقوقع داخل غرفة النوم وتقرأ بضعة صفحات من المصحف حتىٰ موعد صلاة الظهر ثم فتقوم للصلاة قبل أن تمارس نشاطها الروتيني داخل المنزل.

كانت فيحاء قد قررت أن تنغمس في الصلاة امتثالا لهاجس داخلي حرمها النوم بضعة أيام بعد أن عبرت بنجاح أزمة أيامها الأولىٰ الصعبة من تبطيل المخدرات والامتثال لحياة مغايرة تماما لحياتها النزقة السابقة، ارتبطت هواجسها الداخلية التي كانت تكشف عادة ضعفها وقلة حيلتها ووحدتها الداخلية المستحيلة بكوابيس مزعجة لم تعتادها علىٰ شاكلة

هؤلاء الغرباء الملثمين الذين يطاردونها في الصحراء وحيدة، ويشهرون الحراب والسيوف من خلف ظهرها!، ذات مرة استيقظت قرب الفجر علىٰ صوت قرقشة عظامها بين فكي أسد عظيم مخيف، هذا بخلاف الكثير من الأحلام المرتبطة برؤية نفسها تجري هلعة وتصيح في الشوارع من شدة الرعب، في تلك الأيام كانت ملتزمة جدا ببرنامج التعافي الذي تلقته في مصحة العلاج، وكذلك حضور الاجتماعات الاسبوعية ضمن جماعة مدمني المخدرات المجهولين، اقتربت منهم بشدة، أيضا كانت قدرتها علىٰ الصبر والمثابرة مدهشة، ورغبتها في الإقلاع والتعافي مثار اعجاب جميع من كانت تلتقيهم سواء في الاجتماعات أو المعالجين في مصحة العلاج حيث بدأت اولىٰ خطواتها نحو الشفاء، كلما مر يوم من دون تعاطي كانت تشعر بالثقة واليقين من استمرار الصمود، انقطعت صلتها بصديقتيها هانوف ومريم من دون سبب معروف، الشيء الواضح أن الاتصالات بين الصديقات الثلاثة انقطعت وكأن حالة من البرود والتبلد العاطفي تملكتهن في وقت واحد، تلاشت علىٰ إثرها كل واحدة منهن من وعي الأخريات ومن ذاكرتهن، وأيضا من علىٰ هواتفهم المحمولة، والمحصلة لم تعد إحداهن تتملك إرادة المبادرة لكي تتواصل مع صديقتها المقربة والتي تحتفظ معها بأجمل ذكريات الشقاوة والروعة، اكتشفت فيحاء إنها وحيدة في مواجهة معركتها الشرسة مع الإقلاع والتعافي، لم يخطر ببالها أن تتواصل مع صديقاتها بقدر

ما كانت تتواصل بشغف مع أصدقائها في الاجتماعات وخاصة الشخص الذي اختارته مشرفا عليها في مسألة التعافي ورحلته، كان ظهور عبدالله في حياتها مرة ثانية بمجرد خروجه من المستشفىٰ بمثابة طوق النجاة الذي انتشلها من محنة الانتحار مدمنة، عانقت معه الدنيا وعاشت معه أيام حياتها بعد أن انزلق معها في التعاطي وتغير مسار حياته إلىٰ الأبد، لم يعد في حياتها سوىٰ عبدالله والمخدرات، انمحت من ذاكرتها صور وحتىٰ أسماء صديقاتها المقربات، بما فيهم اسم وصورة هانوف صديقة عبدالله السابقة والمخلوقة التي عرفتها عليه حينما كانت في حاجة ملحة لجرعة هيروين، عاشت فيحاء أيام قليلة مع عبدالله المنتكس والذي عاد بقوة إلىٰ المخدرات، وإلىٰ حضنها، كانت أيام باعثة علىٰ الحيوية والسحر، لكن دوام الحال من المحال، لم يتحمل عبدالله صراعه مع نفسه ومزاجه وزوجته وحبيبته، لم تتملكه قدرة كافيه علىٰ مواجهة عائلته بذلك التغير الدراماتيكي الذي حدث له عقب خروجه من المصحة ومحاولة العلاج، دخل النفق الاكتئابي المظلم شديد الوطئة، طار بسيارته في السماء ليهلك داخلها، لكنه دخل نفق آخر هو الغيبوبة التي طالت، والتي علىٰ إثرها هرعت فيحاء إلىٰ العلاج في أحد المصحات المتخصصة، انقطعت صلتها عن العالم في أيام غيبوبة عبدالله الطويلة، وأيام علاجها سواء داخل المصحة أو التزامها ببرنامج التعافي بعد الخروج من المستشفىٰ سوىٰ من لهفتها وزياراتها السرية للمستشفىٰ حيث

يرقد عبدالله في غيبوبته، والقاء نظرة يومية عليه من خلف الزجاج لمجرد الاطمئنان أنه ما يزال على صلة بعالم الأحياء، استغرقت فيحاء في عبدالله واجراءات تعافيها ولم يعد في رأسها شيء آخر سوى البيت واطفالها وزيارة عبدالله، ومتابعة التعافي في الاجتماعات الاسبوعية، فرت الأيام وعبدالله يعود للحياة، ولمنزله المواجه لفيلتها شخص غير قابل للحياة، لم يعد صالحا لا لزوجته ولا لحبيبته، ولا حتى للمخدرات، تملكها شعور عظيم بالذنب استغرق صلواتها وكيانها ومفردات حديثها مع خادمتها وحتى اطفالها، والغريب أن زوجها لم يظهر طوال هذه المدة الطويلة ما بين عودتها لعبدالله والحادث وتعافيها، انقطعت أخباره عنها تماما، لم تفكر في السؤال عنه، بل لم تفكر في سؤال أحد من إخوانه عنه! كانت قبل سنوات قد اعتادت على غياباته، لكن لفترات قصيرة بضعة ليالي أو اسبوع على الأكثر، حينما يعود يبرر لها الغياب بسبب السفر في العمل، لم تكن في حاجة إلى تبريراته، ولم تصدقها يوما ما، لكن هذه المرة طالت المدة كثيرا عن المعتاد، لم تهتم أو تنشغل بهذا الغياب ربما لأن والدها واخوانها يحققون لها الاستقرار المادي، ولولا تلك المساعدات لتعرضت لمصائب أعظم بكثير مما واجهته من محن، طفقت الخادمة تدق الباب وتنادي بصوت مرتفع بلكنة مميزة «ماما افتح باب، ماما، ماما» من دون استجابة، اخرجت هاتفها المحمول لعل رناته توقظها أو تحمل معها صدى، لكن من دون جدوى، اعادت الاتصال على

الهاتف عدة مرات وكانت تسمع صوت تليفون سيدتها بوضوح من خلف الباب الأمر الذي جعلها متأكدة من وجودها في غرفة النوم كأنها مستغرقة في نوم عميق، القلق والاضطراب تسربا إلىٰ خيالها وانفعالاتها، شعرت بارتباك شديد، لم تعتد فيحاء النوم الثقيل بهذه الطريقة، والعكس هو الصحيح، كانت تعاني من مشاكل مع النوم، وكانت تستيقظ لأوهن الأسباب وبسرعة ملفتة، وكانت تشكو من صعوبات النوم، تظل عيونها مفتوحة وتحملق شاخصة في سقف الغرفة، تنهش رأسها الأفكار الغامضة حتىٰ تبدأ مكبرات الصوت في المسجد القريب من الفيلا في التهليل لصلاة الفجر، اعتادت في الأسابيع الأخيرة أن تنهض من فوق السرير وتجهز نفسها للصلاة وقراءة ما تيسر من القرآن في المصحف قبل أن تغمض عينيها إجباريا بسبب التعب والإنهاك مع خروج ضوء النهار والعصافير وانتعاش الأرض، تجاوزت الساعة الخامسة مساء، والنهار يترنح مع اهتزازات مكبرات الصوت لتهيئة الناس لمغيبة والتوجه إلىٰ المسجد لصلاة المغرب، والخادمة تتوقف عن الطرق علىٰ باب غرفة نوم سيدتها دقائق تنشغل خلالها بقضاء بعض الشئون مع الأولاد أو في المطبخ ثم تقفل عائدة إلىٰ الباب تواصل الطرق والصياح، انضم إليها الأولاد في المرة الأخيرة بعد أن خيم الظلام ولا فائدة، الباب قوي، مغلق بواسطة مزلاج قوي من الداخل وقد اعتادت فيحاء علىٰ غلقه بهذه الطريقة منذ أيام التعاطي حتىٰ لا يفاجئها أحد من أطفالها أثناء

حقـن نفسـها ومـا يسـتتبع ذلـك مـن مشـاهد دمـاء مقـززة، أو يرونهـا وهـي في تلـك الحالـة مـن التخـدير والنعـاس بعـد الحقـن، هلعـت الخادمــة علــىٰ ســيدتها بشــدة، ارتبكــت، توقــف تفكيرهــا عــن العمـل، بتلقائيـة وجـدت نفسـها تحـيط بالأطفـال وتهـبط بهـم درج السـلم بهـدوء واضـطراب!، فتحـت بـاب الشـقة الخـارجي، انـدفعت نحـو سـور الفـيلا الحديـدي مـن الخـارج، فتحـت البـاب، قـررت أن تسـتغيث بشـخص مـا لإنقـاذ سـيدتها بعـد أن توجسـت قلقـا وخيفـة مـن أن مكروهـا أصـابها، كانـت السـيارة الـبرادو الفضـية الكبيـرة قـد توقفـت تـوا أمـام الفـيلا المقابلـة في نفـس الشـارع، تفاجـأ والـد عبـدالله بمنظـر الخادمـة الهلعـة المسـتغيثة بينمـا كـان يسـتعد لمغـادرة سـيارته، لـم يفهـم مـن لغوهـا السـريع بالعربيـة المكسـورة شـيء في البدايـة، بمجـرد أن تعـرف علـىٰ المشـكلة طالبهـا بالهـدوء وضـرورة ابـلاغ الشـرطة طالمـا ليسـت لـديها معلومـات عـن أقـارب أهـل البيـت، لـم يكـن لـدىٰ الرجـل أيـة فكـرة عـن قـاطني تلـك الفـيلا ولا عـن علاقـة فيحـاء بولـده عبـدالله، اتصـل علـىٰ الشـرطة، أخـبرهم بمـا روتـه الخادمـة والهـواجس مـن حـدوث شـيء خطيـر، جـاءت سـيارة الشـرطة بعـد دقـائق مـن الـبلاغ، التقـوا بالخادمـة والجـار، طلبـوا مـن الخادمـة المكـوث مـع الأولاد بالطـابق الأرضـي، حـاولوا ايقاظهـا بالـدق الثقيـل علـىٰ البـاب قبـل أن يقـرروا كسـر البـاب ودخـول الغرفـة، هنـاك علـىٰ حافـة السـرير كانـت فيحـاء ترقـد علـىٰ جانبهـا الأيمـن بلبـاس نومهـا المعتـاد وجسـدها النحيـل، وكـان ذراعهـا الأيسـر مطوحـا ومعلقـا

في الهـواء يكـاد يلامـس الأرض، وعيناهـا مثبتتـان صـوب بـاب الغرفـة، غابـت عنهمـا الحيـاة والحيويـة وقـد اتسـعت حـدقتيها مـن فـرط الدهشـة والطمأنينـة كأنمـا كانـت تطـالع أشـياء في داخـل الغرفـة وفي خارجهـا أو داخـل الفـيلا المقابلـة، في لحظـات جـاء رجـال كثيـرون بأشـكال مختلفـة وأسـمال مختلفـة، ترتسـم علـىٰ وجـوههم جميعـا الجديـة والصـرامة وجـلال الموقـف، ازدحمـت الفـيلا التـي كانـت هادئـة دومـا بالحركـة والأصـوات وأدوات الفحـص الجنـائي، سـيارة نقـل المـوتىٰ حملـت الجثـة إلـىٰ مشـرحة المستشـفىٰ العـام لفحـص الجثـة وتقريـر سـبب الوفـاة الـذي تشـير العلامـات المبدئيـة إلـىٰ غيـاب الشـبهة الجنائيـة، أمكـن أخيـرا العثـور علـىٰ طريقـة للوصـول إلـىٰ منـزل والـدها واخوانهـا، حضـروا بسـرعة، أيضـا أمكـن التوصـل إلـىٰ أقـارب الـزوج الغائـب، حضـر منهم مـن حضـر، بـدا التـأثر واضـح علـىٰ الجميـع، أحـاطوا بالأطفـال، اصـطحبت الشـرطة الخادمـة لاسـتكمال تفاصـيل التحقيقـات في الحـادث وكـان معهـا والـد فيحـاء ووالـد عبـدالله الـذي أبلـغ عـن الحـادث، اطفـأت أنـوار الفـيلا، غلقـت الأبـواب والأحـداث، منـذ الآن لـن يكـون هنـاك فيحـاء ولا أطفـال يصخبون في فناءها خلف الباب، ولا ألم بعد اليوم.

(24)

زفاف إلى المقبرة

الفترة التي تلت حادثة موت فيحاء كانت مثيرة، والد عبدالله عاد إلى بيته بعد تحقيقات الشرطة في مزاج انقباضي واضح، دخل غرفته بسرعة وأغلق الباب، استبد الفضول بسكان البيت أن يعرفوا سبب الجلبة ووجود الشرطة وكل هؤلاء الناس داخل الفيلا المقابلة، إخوان عبدالله الرجال كانوا جميعا خارج البيت في تلك اللحظات، قررت امه ارسال الخادمة لاستطلاع الأمر وجلاء الحقيقة، سوى عبدالله وعلاقته بصاحبة الفيلا ومغامراته الصاخبة معها لم يكن أحدا من أهل البيت يدري شيئا عن هؤلاء الجيران الساكنين في الجهة لمقابلة لبيتهم، كانوا ينظرون اليهم باعتبارهم مجرد أشباح تظهر فجأة وتختفي فجأة، حتى ملامحهم لم يكلف أحدهم نفسه عناء التحديق في شخص منهم وهو يستقل سيارته، حالة من عدم الاهتمام أو الاكتراث وربما الانشغال حجبت عن أنظارهم اولئك القوم الذي قدموا منذ عامين تقريبا للسكن في الفيلا المقابلة لهم، تسرب الخبر إلى الجميع عن طريق الخادمة بوفاة الزوجة الشابة المقيمة في الفيلا المقابلة في غرفة نومها، والزوج مسافر خارج البلاد، علم عبدالله بالأمر من زوجته التي كانت تتحدث في الموضوع باعتباره حدث روتيني مثير للاهتمام والشفقة خاصة أن المرحومة شابة ولديها اطفال صغار يحتاجونها، لم يكن عبدالله مستعدا للمزيد من الأخبار المؤلمة،

تـرك زوجتـه ووالدتـه تسترسـلان فيمـا بلغهمـا مـن معلومـات وتحريـر العِنان لمشاعر الشفقة والترحم تدور في المكان، غاب في اغفاءة عميقة لا يدري كيف اصطنعها في تلك اللحظات ليخلوا المكـان مـن النـاس والثرثرة، ويختلي مع نفسه في تلك اللحظة الموجعة يحملق في سـقف الغرفة، ويعبر إلـىٰ الفـيلا المقابلـة، تلقـاه فيحـاء معشـوقته الرائعـة مـع ابتسامة الحياة، يا إلهي ماتت فيحاء المرأة التي أعطتني كل شـيء ولـم تطلب شيئا أبدا، كنت أجد في حضـنها الأمـل والسـعادة والـدنيا كلهـا، كانت بسمتها تحلق بي إلىٰ عنان السماء، وتـدفعني بقـوة نحـو الجنـة، لم تكن فيحـاء مجـرد امـرأة؛ بـل عـالم زلـزل كيـاني بمجـرد أن اقتربـت منها، ومنحني سعادة لم أحلم بها، كانت طاغية في كل شيء، في حبهـا، في انتشائها، في رقتها، في حنانها اللامحدود، حاولت الهـرب منهـا إلـىٰ العالم الآخر حتىٰ انتظرها هناك في الأبدية، لكنها سبقتني، لـم تغـادرني دقيقة واحدة، كما أني لم اغادرها، كنـت أرقـد جوارهـا قبـل أن تـذهب إلىٰ السماء، كانت سعيدة وكنت كذلك، كانت تحكي بأريحية مدهشة عـن الأطفـال ومسـتقبلهم، وكنـت احتضـنها، لكنهـا اعتـذرت بسـبب الذهاب إلىٰ السماء قبلي، أخبرتني إنها لـم تعـد ترغـب في هـذا العـالم بعد الآن، وإنها تنتظرني هنـاك في ذلـك المكـان الـذي التقينـا فيـه للمـرة الأولـىٰ، سـوف اذهـب لألقاهـا هنـاك وأمـوت بـين ذراعيهـا، والمثيـر للدهشة والاستغراب أن المنظر الذي عاينه والـد عبـدالله لوجـه فيحـاء عندما دخل الغرفة مع الشـرطة بعـد كسـر البـاب ووصـفه للجميـع هـو نفس المنظر والحدث الذي رآه عبدالله ابنه القعيد في غرفته المنزوية في ركن قصي بالطابق الثاني للفيلا، والغريب أيضا هـو إصـرار عبـدالله في

اليوم التالي لحادث الوفاة على الخروج من الفيلا وهو بهذه الحالة الخطيرة والذهاب إلى المقهى المطل على الخليج حيث التقى فيحاء للمرة الأولى مع صويحباتها، لم يعلم أحدهم سر هذا الإصرار الغريب على الخروج إلى هذا المكان بالذات سوى فيحاء التي كانت تلازمه وتتأبط ذراعه القوي في فخر وخيلاء، هناك على نفس الطاولة أشار اليهم عبدالله بالانتظار، غامت عيناه في السماء لحظات قبل أن يدخل في إغفاءة عميقة مربكة، جعلت مرافقيه يهلعون عليه، اصطحبوه على إثرها بسرعة نحو المستشفى القريب، أبلغوهم أنه دخل في غيبوبة مفاجئة وجاري اسعافه، وطلبوا منهم الدعاء له، هكذا دارت الأحداث بسرعة وظلت الأسرار داخل تلافيف قلوب اصحابها فقط رغم كل تلك المعاناة والصخب وانفلات سلوك التعاطي والإدمان في الكثير من اللحظات والمناسبات، خبر وفاة فيحاء انتشر بسرعة خاصة بعد نشره في صفحة الوفيات بالصحف المحلية، غيم الحزن على فضاء الجنازة، ظهرت كُل من مريم وهانوف في حالة سيئة، شحوب، بكاء مستمر وحزن فائض، كذلك ظهر أصدقاء فيحاء في مجموعة مدمني المخدرات المجهولين في حالة من الجزع الشديد والخوف، بعضهم تشكك في أن الوفاة ربما تكون بسبب جرعة زائدة نتيجة لانتكاستها وعودتها للمخدرات، والدليل على ذلك حالتها المزاجية السيئة في الآونة الأخيرة، لكن مصطفى صديقها المقرب والمسئول عن تعافيها في المجموعة كان متيقنا من عدم انتكاستها، وكان متيقنا من صمودها الرهيب في وجه الانتكاسة والرجوع للتعاطي من جديد، كان يعلم الكثير عن تعقيدات حياتها خاصة علاقتها

المهترئة مع زوجها المدمن الغائب، لكنه لم يعلم أبدا بقصة علاقتها بعبدالله، لم تنبس له عن أي شيء بهذا الخصوص، ظل أمر تلك العلاقة سرا يخصهما وحدهما علىٰ غير اتفاق فيما بينهما، اقتربت الجنازة من مقابر الأسرة، كانت شمس الظهيرة تجلد المشيعين بقسوة عقابا علىٰ مضايقتهم لعروس السماء فيحاء، تصدر الموكب عبدالله بقامته الفارعة ومشيته الواثقة المهيبة، وطلته التي التهمت فيحاء منذ الوهلة الاولىٰ، وكان يسير بجواره والدها واقاربها واقارب الزوج وصديقاتها وأصدقائها وآخرون كُثر امتلأ بهم فضاء الساحة في ذلك النهار من الصيف القائظ، دقائق مرت قبل أن يتم سماع أصوات لأدعية وترحم علىٰ الفقيدة من فوق قبرها حيث تم اغلاق المقبرة بإحكام واهيل التراب وتشابكت أيادي المشيعين لحظات قبل أن يتوجه كُل منهم إلىٰ سيارته بسرعة ويذهب إلىٰ حال سبيله تاركا المقبرة والحر اللافح للمسكينة فيحاء الجميلة، لم يكن مشهد رؤية عبدالله في الجنازة وطلته الفريدة محيرا لهانوف التي طالعته وكان يرفل في أبهىٰ الثياب، ويبدو في صحة مكتملة للغاية، عكس ما أخبرتهم فيحاء في لقاءهم الأخير بخصوص الحادث وعجزه التام عن الحركة، بل كان محيرا أيضا لمريم التي رأت نفس المشهد لكنها حسبته تعافي من مرضه، وقالت لنفسها ربما كانت فيحاء تبالغ بعض الشيء، لكن هانوف في رحلة العودة مع مريم من الجنازة كانت مصرة علىٰ استغرابها، وإن ما رأته أمر لا يصدق، فقد اقتربت كثيرا من عبدالله في فترة سابقة، وعلىٰ دراية تقريبا بتفاصيله، وإن ما شاهدته اليوم في الجنازة ليس عبدالله الذي حطمته الحادثة وكسرت عظامه، بل عبدالله

الشاب الوسيم القوي الذي عرفته منذ سنوات وتعلقت بحبه أيامها، لم يكن لدىٰ الصديقتان بينما كانت كل منهما متوجهة إلىٰ منزلها في هذا اليوم الصاخب بالحزن والافتقاد أن يرجعا إلىٰ طرف ثالث يشرح لهما كيف لرجل كسرت عظامه وكاد عنقه أن يدق في حادثة كبيرة نشرت تفاصيلها في كافة الصحف المحلية، وتحدث الناس عنها كثيرا، أن ينهض من مرقده في يوم زفاف فيحاء إلىٰ مقبرتها، ويسير معها في أبهىٰ الثياب والزينة مثل العريس الرائع الذي يخطو بثبات ليزف علىٰ حبيبته الرائعة في تلك الظهيرة القائظة التي لم تفلح في نزع الدهشة عن أولئك الذي كانوا في المقبرة وحضروا مراسم الدفن.

(25)

أيام السجن

من بين جميع أصدقائه خارج السجن وخاصة أولئك الذين تشاركوا في قتل الشاب الأسيوي عامل البقالة بغرض سرقة النقود وشراء «الهيروين» كانت صورة عبدالله بقامته المفرودة ووجهه الجامد تتأرجح مثل البندول في داخله كلما اختلىٰ بنفسه وغلبته رياح الحنين واللهفة لضربابة يفك بها نهم الشوق وغُصّت الكآبة التي تمسك بتلابيب رقبته فتشعره أنه علىٰ وشك الموت، لماذا عبدالله بالذات؟ علىٰ الرغم من أن علاقتهما الشخصية لم تكن جيدة في أفضل أحوالها، كلاهما يرىٰ نفسه زعيما وصاحب كلمة ورأي، وكلاهما ينظر إلىٰ الآخر بحذر ورغبة في اصطياد مثالبه واخطائه، ومثل العادة لم يتعب مشعل رأسه في التفكير للبحث عن سبب حضور عبدالله بهذا الزخم داخله في تلك اللحظات الصعبة بالذات التي تعكس حاجته الشديدة إلىٰ المخدر ورغبه في الارتواء ولو بربع ضربابة حسبما يقول لنفسه، استراح بسرعة لتفسير متعجل أقنع به نفسه وهو أن عبدالله يماثله تقريبا في شدة جنوحه ونهمه بل وشراهته للمخدر، لذلك يظل خياله داخله يداعبه في تلك اللحظات التي يشتد فيها الحاحه لجرعة هيروين تبل ريقه، كانت صلات مشعل بعالم علاقاته الخارجية قد انقطعت تماما، منذ أن استقر في السجن لم يزوره أحد من اصدقائه، انقطعت أخبارهم عنه ولم يعد يشغله شيء في

عالمه الجديد سوىٰ ترميم علاقته بإخوانه واقاربه خاصة بعد أن تم ابلاغه أنه المسئول عن وفاة امهم، ظل خيال وصورة عبدالله الشيء الوحيد الذي يزوره من حين لآخر في محبسه كلما اشتاق إلىٰ المخدرات، أمر هذا الاشتياق للمخدرات أو الحنين واللهفة لتعاطيها طار من رأسه تقريبا منذ أُصدت دونه المزاليج، واستقراره في السجن، في البداية كانت تهاجمه نوبات متقطعة من الألم تشمل جميع أجزاء جسده، تكسير عظام، وهن شديد، مغص في البطن، إسهال، زكام لا ينقطع، صداع، عدم راحة، ثم عصبية زائدة، وغصة في الحلق، ومزاج اكتئابي عاصف وعدم نوم في كثير من الأحيان، انقضت عليه هذه الأعراض بشراسة في الأيام الأُول بعد القاء القبض عليه وكان يحاول مقاومتها، نجح في التخفيف من آثارها نتيجة اصطياده لشخص في محبس قسم الشرطة (التخشيبة) أعطاه حبة «ليبريام» المنوم كانت مدسوسة في ملابسه، هذا الشاب كان «ديلر» أو مروج من نوعية أولئك الشبان مدمني المخدرات وقد أوصدت دونهم جميع الطرق لجلب المال والصرف علىٰ المخدرات، فاضطرتهم الظروف لتوزيع المخدرات للصرف علىٰ مزاجهم وتوفير جرعاتهم الشخصية، استلفت انتباهه منظر مشعل المنهار بسبب شدة الألم، تعاطف معه، منحه القرص الوحيد الذي يملكه وكان قد نجح في اخفائه عن الحراس بعد أن تم اعتقاله واودع التخشيبة قبل عرضه علىٰ النيابة، بدا شاب فارع، طويل الرقبة، أسمر، كثيف الشعر الأجعد، بشرته السمراء بها أخدودين أحدهم طولي في الخد الأيمن والاخر عرضي يشق الخد الأيسر، من الواضح أنه تعرض لتعذيب أو عقاب شديد من التجار

الذين يجلب المخدرات من عندهم، لم يكن مظهره مألوفا لدىٰ مشعل الذي يعتبر نفسه خبيرا بمثل هذه الوجوه والأشكال، بل ويزعم لنفسه أنه تعامل مع جميع مروجي وتجار المخدرات في البلاد، لكن هذا الشاب بالذات يراه للمرة الأولىٰ، لم يتردد مشعل في نزع قرص «الليبريام» من يده بمجرد أن أظهره الشاب، فهو يعرف نوع القرص ووظيفته وأنه كل ما يحتاجه الآن لعله يخفف بعض من آلامه المبرحة في هذه اللحظة، أسند ظهره بأريحية علىٰ حائط جدار التخشيبة، مد رجليه حتىٰ منتهاهما، استعد لاستقبال لحظة الراحة بعد أن يعمل قرص «الليبريام» في جسده، التفت إلىٰ الشاب الأسمر بجواره بعين مكسورة شاكرا صنيعه، تمدد الشاب علىٰ ظهره غير مبالي وحاول النوم علىٰ الرغم من الصخب الذي يملأ قفص التخشيبة والحركة والأصوات التي لم تنقطع طوال الليل في مكتب مساعد النوبتجية وزملائه في الناحية المقابلة لقفص التخشيبة.

عانىٰ مشعل من تأثير أعراض انسحاب المخدر من جسده مسافة عدة أيام كان اليوم الأول أشدها بالطبع ونجح قرص «الليبريام» الذي أعطاه له الشاب الأجعد الشعر في مساندته إلىٰ حد ما، والحد من عنف موجات الألم المتواترة التي شملت أرجاء جسده البدين قبل أن ينتقل إلىٰ محبسه في سجن الاستئناف وفقا لقرار النيابة حتىٰ انتهاء التحقيقات والمحاكمة، دهمته الأحداث والتوترات وانشغل بالقلق علىٰ مصيره ومستقبله أثناء التحقيقات والمحاكمة، لم يعد يشعر بآلام أو أوجاع وكأن قصة إدمانه للمخدرات انتهت وأصبحت من الماضي، لم تدهمه نوبات اشتياق للمخدرات، ولا حتىٰ جالت

بخواطره ذكراها، كأنه ولد من جديد، انفتحت شهيته للطعام بلا حدود، تورد وجهه الضخم المستدير، وزاد وزنه بدرجة لافتة، ظل هذا الأمر علىٰ حاله طوال شهور المحاكمة الطويلة حتىٰ تحول إلىٰ السجن المركزي، هناك بدأت متاعبه مع الأفكار الملحة بالتعاطي، وساوس، ذكريات، أحلام، مزاج اكتئابي رهيب، أحيانا كان يشعر بوخزات رهيبة من الألم تنخر في عظام ساقيه فيتخيل نفسه أصبح كسيحا غير قادر علىٰ الحركة، هذا بخلاف حالات العصبية والتهيج التي استولت عليه أحيان كثيرة وتسببت له في مشاكل كثيرة في بداية استقراره في السجن المركزي، أصبح مشهورا بحدة المزاج، والحمق، وسهولة استخدام العنف لتحقيق رغباته، الأمر الذي عرضه لمشاكل كثيرة مع زملائه، والحراس، أهمها علىٰ الاطلاق مشكلته مع زميله الذي كاد أن يقتله، وكذلك الإطاحة بالتلفزيون في اتجاه زملائه في العنبر في محاولة لتحطيمه فوق أدمغتهم، وعلىٰ إثر ذلك تم ايداعه في غرفة العزل أو الصاجة حيث أمضىٰ ثلاثة ليال عصيبة خرج علىٰ إثرها شخص آخر مختلف تماما، زهد في كل شيء، قرر الانزواء والاختباء داخل جلده، كأنه أصبح شخص آخر لا علاقة له بتعاطي المخدرات، انطفأت شهيته تماما علىٰ الرغبة أو التفكير أو تعاطي المخدرات، اكتشف أنه أصبح حرا بامتياز، تحرر من الشغف وقيود وأسر التعاطي، عزم أمره علىٰ التكيف مع أوضاع السجن وظروفه، قرر الطاعة العمياء لنظم ولوائح وقوانين السجن، ولضباطه وكافة سجانه، كذلك التقدير والتبجيل لزملاء السجن الأقدم الذين طاح فيهم قبل ولوجه إلىٰ الصاجة وكاد يقتل أحدهم، باختصار حدث تغيير دراماتيكي في

مجمـل شخصـيته وكـان سـعيدا بهـذا التغييـر الـذي أوصـله في نهايـة المطاف إلىٰ النوم أخيرا.

لكن دوام الحال من المحال وتقلبات المـدمن دائمـا تكـون غيـر متوقعة وصادمة، عادت إلحاحات اللهفـة للتعـاطي تطـن في رأسـه مـن جديـد وتهـدد اسـتقراره بشـدة، بعـد عـامين مـن الصـمود والاسـتقرار المريح لنفسيته وأعصابه، كان ذلك في أحد الأيام بينما كان منشغلا في العيادة الطبية لمح بطـرف عينـه سـجين مـن الإيـراد الجديـد منـزوي في الحمام في وضع مريب، دفعه الفضول لتتبع خبر هذا السجين الجديد، راقبه جيدا، اكتشف أنـه يستنشـق بـودرة «الهيـروين» في ركـن قصـي في الحمامات، غلىٰ الدم في عروقه، شعر باضطراب واضح خلخل كيانه، لـم يتمكن من السيطرة علىٰ الأفكار والمشاعر ولا حتىٰ الأحـلام التـي اهتاجـت داخلـه، صـمد، قـاوم، خاصـمه النـوم عـدة أيـام لكـن إلحـاح اللهفـة كـان فـوق احتمالـه، في هـذه الأثنـاء قـرر الائتنـاس بسـيجارة الحشيش المهربة والاكتفـاء بـذلك، تكيـف مـع هـذا الوضـع ولـم تعـد تـزوره خيـالات تعـاطي «الهيـروين» ولا الأفكـار الوسواسـية الملحـة بقوة لتعاطيه، حتىٰ أحلامه توارت منها مشاهد التعاطي، قرر أن يستمر في هذا البديل إنقـاذا لنفسـه مـن السـقوط في الهاويـة مـن جيـد، اسـتعاد توازنه واستقراره النفسي واستعاد مشعل نفسه ذلك الشخص الـودود، الحميمـي، القريـب مـن الجميـع، والـذي يسـاعد الجميـع، ويجامـل الجميع إلـىٰ أبعـد الحـدود، مـن المؤكـد أن خـبرة السـجن الانفـرادي داخـل الصـاجة كـان لهـا دور كبيـر في تحـول شخصـيته وهـدوء ردود أفعاله لم يكترث مشعل وقتها لما يقال عنه مـن أنـه تغيـر وأصـبح أكثـر

طاعة وتوافقا، بل تمادي في الأمر وأصبح صديقا لمعظم الحراس الذين يتناوبون عليهم، حريصا علىٰ أداء الصلوات في موعدها، والاستغراق لوقت طويل في قراءة القرآن الكريم ودعوة زملائه من نزلاء السجن للصلاة والهداية، نجح في وقت وجيز في اكتساب تعاطف حراسه، وحب زملائه النزلاء بسبب شدة التصاقه بهم، ومبادراته في مساعدتهم وقت الحاجة، بل وإيثاره للآخرين علىٰ حساب نفسه بطريقة أدهشت الجميع بما فيهم حراس السجن، أصبح بين ليلة وضحاها أيقونة السجن المركزي، والرجل الصالح، الخدوم الذي يسهر علىٰ راحة المرضىٰ، ويساعد المحتاج، وينصح الناس دائما بالهداية والطريق القويم، ومع ذلك كانت تدهمه نوبات الشعوذة اللعينة التي يعرفها جيدا خاصة في لحظات الصفاء والاختلاء بنفسه محاولا تأمل شريط حياته الماضية وإمكانية أن يتغير، كانت تلك النوبات من الاشتياق او الشعوذة التي تدهمه في بعض الأحيان تكون عنيفة، عاصفة، تدفعه إلىٰ الاكتئاب والانزواء من شدة الألم، وقهر الرغبة في الصمود والتغيير، لهذا الأمر كان يتعمد باستمرار ألا يختلي بنفسه كثيرا، يلقي بنفسه دائما في بحر البشر حيثما يكونون، تعددت علاقاته وصداقاته داخل السجن، لم يعد يطيق الانفرادية، يبحث دائما عن الآخر حيثما وجد، يخشىٰ بشدة ألم الوحدة ونوبات الشعوذة الرهيبة، والآن يعاني من هذه الحالة، كان ينام مسترخيا علىٰ ظهره فوق سريره وحيدا في الغرفة شاردا وقد تعلق بصره بسقف الغرفة لكن لا يرىٰ شيئا سوىٰ صورة عبدالله تتأرجح مثل بندول الساعة أمام عيناه الشاردتان وقد بدىٰ مهموما جدا، ويتجنب النظر اليه، أفاق نفسه

بسرعة، هرع إلىٰ الحمام، التقىٰ في طريقه بالكثير من الزملاء، حاول استخراج الكلام من فيهه من دون جدوىٰ، كأن فمه أُوصد بالضبة والمفتاح، أو لم يعد في رأسه كلام، حالة غريبة تملكته في خضم تلك الموجة العاتية من الاشتياق واللهفة للتعاطي التي دهمته منذ لحظات وقد جاءت مع عبدالله في هذا الوقت بالذات، قال لنفسه:

«يا الهي هل أعود إلىٰ العذاب من جديد؟» وماذا يفعل عبدالله في هذا الوقت، جاس في الطرقات، التقىٰ زملاء كثر، طاف حول أولئك الذين يشربون الحشيش المخدر ويتعاطونه بانتظام، لمح أحدهم ينفث في سيجارة من بعيد، من دون تحية ولا كلام سبقت أطراف أصابع يده المرتعشة المتوترة المحاذير والمسافات وحتىٰ الأفكار، انتزع السيجارة من بين أصابعه، طفق ينفث الدخان بقوة وبسرعة، يحاول اصطناع حالة «التلذذ» بما يفعل توقا إلىٰ تخفيض سقف الألم والتخفيف قليلا من غصة الاكتئاب، زميله صاحب سيجارة الحشيش يرمقه وقد اتسع فيهه بابتسامة مريحة آمنة من دون دهشة، كأنه اعتاد علىٰ هذا الأمر من مشعل كل حين في الوقت الذي يستبد به هوس الشوق إلىٰ تعاطي الهيرون المخدر، هكذا سارت أيامه في السجن، وهكذا كان يعالج لهفته لتعاطي «الهيروين» عن طريق البديل، انتظم نسبيا في تعاطي الحشيش داخل السجن وانضم إلىٰ شلة «الحشاشين» المعروفة بالاسم لدىٰ جميع النزلاء وحتىٰ الحراس، لكن ما لبث أن تركهم لضيق ذات اليد من جانب، ولرغبته في استعادة الإقلاع الكامل عن كل شيء من جانب، وتغيير مسار حياته من جانب آخر، قرر أن يستعين بالحشيش عند اللزوم فقط

حينما تدهمه نوبة الشعوذة الرهيبة غير المحتملة، فيلجأ بسرعة إلىٰ شلة الحشاشين، يلتقط من أحدهم سيجارة، ينفث منها نفسا أو نفسين يتخفف بهما من المصيبة التي لحقت به، ويستعيد اتزانه الجسدي الذي اختل بقوة نتيجة تلك الهجمة الشرسة من نوبة أو هوس الاشتياق أو الشعوذة، استلقىٰ علىٰ ظهره بعد أن انتهىٰ من سيجارة الحشيش، نظر بنصف عين لزميله محاولا استعادة توازنه، شرع الآخر في اشعال سيجارة أخرىٰ، لكن مشعل اعتذر، أخبره عن رغبته في أن يتوب الله عليه من كل شيء، ضحك صاحب السجن بخبث وهو ينفث دخان السيجارة مميزة النكهة، أخبره أن ذلك قدرنا ومكتوب علينا، ثم ضحك بصوت مرتفع لكن تصدق بالله «قدر لذيذ» كأن مشعل لم يأخذ الأمر بجدية لدرجة أنه لم يتبسم، غادر المكان وصاحبه بعد توافد زملاء آخرون طفقوا يتناوبون الأنفاس في شهية مفتوحة ورغبة حميمة في السفر إلىٰ الفضاء الواسع وآفاقه الممتدة إلىٰ السماء السابعة مع تلك الخيوط من الدخان الأزرق التي تخرج إلىٰ فضاء العنبر في تلك المنطقة المنزوية منه والتي لا يرتادها حرس السجن كثيرا ربما لعلمهم أن الكثير من الأشياء الممنوعة تحدث داخلها.

(26)

لقاء ووداع

إنه اللقاء الأول لهما بعد وفاة فيحاء قبل بضعة أشهر، تراجع القيظ وجاء الخريف متباطئا، متردداً، كأنه يعلن توحده مع هاتين الفتاتين الذابلتين اللتين مازالتا تتشحان بالسواد حدادا علىٰ صديقتهما المقربة، كان ذلك المساء في أواخر شهر أكتوبر، وكانت نسمة هادئة طيبة قد خرجت من البحر توا في طريقها لزيارة المقهىٰ الرابض في الزاوية والذي اصطخب بالزبائن والمارة في الشارع المواجه لبحر الخليج، وفي ركنهما المنزوي المعتاد جلست الرفيقتان يلفهما صمت مريب عاجز عن البوح حتىٰ بمشاعر الافتقاد والاشتياق، استقرت الأوضاع في البلاد وزالت مخاطر انتقال الحرب إلىٰ شوارع ومباني البلد الهادئ، لم يعد أحد يعبأ بما يجري داخل محيط البلد المجاور المشتعل بكل اطياف الحرائق بعد أن تفكك الجيش بقرار من المحتل الأمريكي، وانفجار الحرب الأهلية في كل مكان، لم تتمكن قوة الاحتلال من فرض السيطرة سوىٰ علىٰ منطقة بغداد المتخمة بالجنود الامريكان والانجليز وقادتهم، ومعارضي النظام السابق الذين جلبوهم معهم من عواصمهم فوق أظهر الدبابات لاستلام مقاليد السلطة نيابة عن قوة الاحتلال ومنحهم الفرصة لكي يقودوا شعبا ذاب جيشه بعد لحظات من دخول العاصمة بغداد بطريقة مريبة وغير مسبوقة في تاريخ الحروب، أسموها المنطقة الخضراء التي يحتمي

داخلها قادة الاحتلال وعملائهم الذين يؤهلونهم للحكم، حركة الناس في الشوارع عادية، لكن مشاعر الفتاتان لم تكن كذلك، كان الكرسي الفارغ حيث اعتادت فيحاء أن تجلس عليه في مواجهة البحر يشي بالكثير من الذكريات والأحداث والمشاعر أيضا، بدا كأنه يشاركهم مشاعر الحزن والافتقاد وأجمل الذكريات، لحظات الصمت مضت مع النسمة الرقيقة المتحالفة مع الحياة وقدر الاستمرار علىٰ الرغم من كل شيء، بدت مريم شاحبة، لم ترفع عينيها عن منظر البحر والاشباح الآدمية التي تتحرك بجواره من بعيد، كأنها تتعمد تجنب النظر في اتجاه هانوف التي بدورها لم ترفع عينيها عن التطلع إلىٰ سطح المنضدة حيث يجلسون لدرجة انها لم تشعر بالنادل الذي اتىٰ من بعيد مرحبا ومقدما لهم قائمة المقهىٰ، لم يكن هناك مبرر قوي يمنع لقاء الصديقتان بعد لقائهم الأخير في جنازة فيحاء قبل ذلك اليوم بمدة كبيرة، لكنه اتفاق المشاعر غير المعلنة بتجنب مثل هذه اللقاءات التي كانت تجمعهم بفيحاء الجميلة، وفي كل مرة كان يتم الاتصال بين الصديقتان كانت كُل منهما تختلق الأعذار لتجنب اللقاء، لكن هذه المرة كان اللقاء مطلوبا بشدة، كانت هانوف في قمة الانفعال بينما كانت تهاتف مريم، أخبرتها بأنها ربما تكون المرة الأخيرة التي تراها فيها قبل أن ترحل بعيدا إلىٰ الأبد، ارتبك صوت مريم من الانزعاج، ثم توقف لسانها عن الكلام بعدما توقف دماغها عن التفكير.

«يا إلهي ما الذي يجري في فضاء عالمنا الذي كان» هكذا قالت مريم لنفسها، وهكذا شردت بعيدا، هناك التقت شبح خالد حبيبها

الذي نجا بأعجوبة من جرعة موت زائدة، كان يشير نحوها لعلها تراه أو تقترب منه، لكنها استفاقت علىٰ صوت هانوف الحزين يوجه لها رسائل قصيرة، جادة، ومؤلمة أيضا، قالت:

«أعاني منذ أمد طويل من الحيرة والتشتت والانهيار، أهلي يحاصرونني بقوة لدرجة الاختناق، وأنا احاصر نفسي أيضا لدرجة الاختناق، لم أعد اعلم ما الذي اريده، دخلت في عدة علاقات عاطفية الفترة الماضية، لم أسعد، ولم أفرح، كنت أخرج لمجرد الخروج، واتأبط زراعه لمجرد أن أتعلق في ذراع رجل، ضبطني أخي عدة مرات في سيارة صديق، أخذت نصيبي من التأنيب والزجر والمنع أياما من الخروج، ليس هناك شيء ممتع علىٰ الاطلاق، حتىٰ تلك اللحظات الحميمة التي استرقتها مع صديقي لم أشعر بالمتعة، أفتقد عبدالله كثيرا، أيامي معه قبل أن تأخذه فيحاء كانت أجمل وأمتع أيام حياتي، تعجلت في تركه مع المخدرات في صفقة واحدة، عُقد قرآني علىٰ شاب من أصدقاء أخي، من واقع خبرتي الخاصة أتشكك في كونه مدمن مخدرات، لكن لست متأكدة قطعيا، لم أعد أبالي بذلك، يعمل بشركة بترول كبرىٰ في دبي ولها فرع في امريكا، وسوف تكون هدفنا النهائي بعد عدة أشهر، سوف نتزوج ونسافر غدا إلىٰ دبي، الآن انتهىٰ كل شيء، لم أعد اطيق البقاء هنا، لن أعود حتىٰ لو فشل زواجي مثلما اتوقع، لف صمت مزعج محيط الفتاتين قبل أن يكسره قدوم عامل المقهىٰ للاستفسار عن الطلبات، بفراسته أدرك أن القتاتين في عالم

آخـر، انسـحب في هـدوء، اسـتفاقت مـريم علـىٰ صـوت نحيـب مبحـوح ودمـوع تنسـال بغـزارة علـىٰ وجنتـي هـانوف المعـروف عنهـا صـلابتها وقوتهـا، بتلقائيـة غيـر محسـوبة التصـقت بهـا، احتوتهـا بقـوة في حضـنها وطفقـت تمسـح بكفهـا الأيسـر علـىٰ شعرها وجبهتهـا قبـل أن تسـتغرق هـي أيضـا في نوبـة بكـاء صـاخبة اسـتلفتت انتبـاه الجالسـين في الجـوار، تحـرك أحـد الفضـوليين نحـوهم يعـرض خدماتـه علـىٰ الفتـاتين، جـاء النـادل مـن بعيـد بكـوب مـن المـاء وضـعه علىٰ المنضـدة أمـام الفتـاتين ووقـف برهـة أمامهمـا حتـىٰ تنبهـت هـانوف وطلبـت منـه كـوبين مـن عصـير الليمـون الطـازج، كانـت قـد بـدأت في اسـتعادة شـتات وعيهـا الـذي تنـاثر مـع نسـمة هـواء البحـر منـذ لحظـات، وكـان لابـد لمـريم أن تبـوح أيضـا بمـا يثـور داخلهـا مـن فـوران الفوضـىٰ والاحبـاط، أخـبرت صـديقتها أن امـورا كثيـرة جـرت خـلال الشـهور الماضـية وقبـل مـوت فيحـاء عانـت خلالهـا مـرارة الحيـرة والاكتئـاب، مـا يـزال خالـد يطاردهـا في أحلامهـا، عـبر الهـاتف، في الشـوارع التـي اعتـادت السير فيهـا، هـي تعشـقه لدرجـة الهـوس، لا تملـك قـرارا بـالاقتراب منـه أو الابتعـاد عنـه، وكلمـا تزايـد الحاحـه كلمـا توحـدت معـه وأصـبحت داخلـه، عـادت للعـيش معـه في شـقته واسـتمتعت بلحظـات العشـق لدرجـة الإغمـاءة، لكنـه لا يـزال مـدمنا، لـم يـنجح عشـقه لهـا في أن يسـتغني عـن الضـرب علـىٰ الـرغم مـن محاولاتـه المريـرة التـي عاشـتها معـه، قالـت «أنـه يـذوب فيهـا عشـقا مثلمـا هـي كـذلك لكنـه لا يسـتطيع أن يتوقـف، حاولـت

كثيرا الخروج من عباءته والهروب بعيدا لكني لم استطيع، كأني أدمنته مثلما هو مدمن علىٰ الهروين، أخبريني كيف فعلتيها مع عبدالله وتركتي الإثنين معا» ايقنت هانوف أن صديقتها جاءتها تستغيث في الوقت الضائع وبعد أن ابلغتها منذ لحظات إنها نادمة علىٰ تركها لعبدالله الذي أمضت معه أسعد لحظات عمرها، وانها لو تملكت القدرة علىٰ ترجيع الزمن لما تركته يذهب إلىٰ حضن فيحاء حتىٰ لو ظلت مدمنة إلىٰ الأبد، هكذا دارت الأفكار والمشاعر بين الصديقتان الموشكتان علىٰ الفراق النهائي بعد لحظات، وهكذا اقفهر الجو فجأة وتحولت السماء إلىٰ اللون الأصفر، جاءت عاصفة ترابية ساخنة اطاحت بالطاولات والمقاعد وأغطية الرأس الخاصة بالرجال، تشابكت ايدي الصديقتان ودلفتا إلىٰ الداخل حيث سبقهم الكثير من زبائن المقهىٰ ممن كانوا يجلسون بالخارج، وما بين اضطراب المشاعر والأفكار في رأس ووجدان كل من هانوف ومريم، واضطراب الطقس وهجومه القاسي علىٰ أولئك المساكين الذين كانوا يتلمسون لحظة بديعة من عمر هذا الزمان يتصالحون فيها من ذكرياتهم وهمومهم وقلقهم في صراعهم الأزلي مع واقع وأزمات ليست من اختيارهم في أغلب الأحوال، ومضطرين للمضي في دروب مجهولة أو غامضة مفروشة بالأشواك والمحن والالآم، لا يعينهم عليها سوىٰ لحظات قصيرة من الفرح والمتعة، انتهت مراسم اللقاء والوداع، احتضنت كُل منهما الأخرىٰ بقوة، كان الالتصاق

الأخير للأجساد والأفكار والمشاعر والذكريات والالام أيضا، وعلى البعد منهما كانت تقف فيحاء الجميلة بقامتها الممشوقة، ورشاقتها الفاتنة تكتفي بالنظر والدهشة والحيرة، عيناها السوداوان تلتمعان بروعة اللهفة وقوة علاقة ممتدة منذ الطفولة ثم أخيرا جزع الافتقاد، كأنها أوفرهن حظا حينما استطاعت أن تهرب من مصيدة الحيرة اللعينة وترحم نفسها من عذاب القلق والاضطراب وذلك النوع من الصراعات القاسية غير المحتملة لكلتا الصديقتان، استغرق الالتصاق زمن لم يدركاه، وخطفت الأيادي والدموع دفئا حميميا، ونظره عبر البحر الذي استعاد هدوءه، وتبدلت سماؤه بلونها الأزرق الرائق، ومرت النسمة المنعشة عبر الأنوف الدقيقة، وعادت الحياة لتملأ قلبي الصديقتين الملتاعين، وتظهر في الأفق صورة فيحاء تشير لهما بينما انصرفت كل منهما في طريق سيارتها ليستمر السير في درب الحيرة وعدم اليقين، ضاعفت مريم من سرعة سيارتها وبمجرد أن فتحت هاتفها الخلوي المغلق كان خالد على الجانب الآخر يحدثها بلهفة وشوق، لكن لسانها توقف عن الكلام، القت الهاتف جانبا وواصلت السير من دون أن تتبين الطريق الصحيح، ولا أن تتنبه لحركة السيارات التي تفر خلفها وصيحات السائقين والأضواء المزعجة المحتجة على عدم انتباهها للطريق، بينما كانت هانوف أكثر هدوءا وحزنا، طفقت الدموع تنثال من عينيها غير مصدقة أن ساعات قليلة تفصلها عن المكان الذي سحر حياتها ووجدانها، وإنها

سوف ترحل عنه إلىٰ الأبد مثل فيحاء الجميلة، كانت متأكدة أن شخص ما يجلس بجوارها، يتنفس ويعبث بأشياء في التابلو بينما تقود سيارتها بهذا الهدوء، كانت تدرك بيقين غريب إنها فيحاء التي لم تتركهم، كانت تقف أمامهم من بعيد تتسمع لأحاديثهم وتشاركهم حتىٰ كوب عصير الليمون الطازج، استدارت برأسها تجاه المقعد الذي تجلس عليه فيحاء وقالت بمنتهىٰ الأسىٰ واللوعة «كم أشتاق إليكِ صديقتي، أحتاجك الآن، لماذا تركتِ لي كل هذا الألم وانصرفتِ وحدك من دون استئذان، أبلغيني من فضلك ما يتوجب أن أفعله حتىٰ أتحرر مثلك، انسالت الدموع بغزارة أكثر، لم تعد ترىٰ الطريق، صفت السيارة بهدوء علىٰ جانب الطريق، ادارت اضواء إشارة الانتظار، غابت في اغماءه، السيارات جانبها تفر بسرعة، لم يلتفت إليها أحد، ساعة مرت علىٰ هذا الوضع قبل أن تستفيق وتدير محرك السيارة في طريقها إلىٰ المنزل.

(27)

كرسي الرجاء

تضاربت مشاعر اليأس والرجاء في رحلة المانيا لمحاولة ترميم ما يمكن ترميمه، وإصلاح ما يمكن اصلاحه، بذل ابو عبدالله جهودا كبيرة من أجل تسفير عبدالله للعلاج بالخارج علىٰ نفقة الدولة، وبعد محاولات مضنية في الدوائر الحكومية المعنية، ومساندات من أعضاء من مجلس النواب للطلب حصل الرجل علىٰ الموافقة بتسفير ولده القعيد إلىٰ المكان الذي تميز أطباؤه بالبراعة في التعامل مع هذا النوع من الحالات بالغة التعقيد والمرتبطة بالحبل الشوكي والعمود الفقري بحسب ما أبلغه الطبيب المعالج، كانت حالة عبدالله النفسية في الشهور الأخيرة بعد خروجه من المستشفىٰ سيئة للغاية، بخلاف الآلام التي تستعر في جسده ولا يمكن إخمادها سوىٰ بالمسكنات، وكذلك زرع كل تلك الشرائح والمسامير وتثبيتها في حوضه ومفاصل الركبتين، ظل عبدالله في حالة من الاعتماد الكامل علىٰ الآخرين في كافة تفاصيل ممارساته اليومية خاصة ما يتعلق بالحركة ودخول الحمام، لم يعد لديه شيء مفعم بالحياة والحركة سوىٰ لسانه وذراعيه، عدا ذلك ماتت جميع اعضائه الأخرىٰ أو فقدت وظيفتها، استلقىٰ علىٰ كرسي متحرك مجهز لمثل هذه الحالات، شبكوا في قضيبه انبوبا من البلاستيك ينتهي طرفه بكيس لإخراج وتجميع البول المتدفق من جسده في أي وقت وبأي عدد من المرات، والأدهىٰ من

ذلك أن فيحاء لم تعد موجوده في عالمه الكئيب، سبقته إلىٰ الراحة وهو الذي حاول أن يرحم نفسه ويسبقها إلىٰ الراحة الأبدية لكن النتائج دائما تأتي عكس الأماني، لم يعد يفهم لماذا يتنفس لحد الآن؟ وهل القدر كان رحيما به حينما اخرجوه من حطام السيارة يتنفس؟ أم كان يسخر منه حينما أوصله إلىٰ هذه الدرجة من الرداءة الآدمية؟ حاله الآن مثل حال طفل حديث الولادة يعتمد علىٰ أمه في كافة تفاصيل حياته ومعيشته، تملكه شعور جارف بعدم قدرته علىٰ مقاومة مشاعر عدم تقبل هذا الارتداد الإنساني إلىٰ زمن «البيبيهات» لم يعد يطيق العيش، حاول الانتحار عدة مرات بعد وفاة فيحاء عن طريق تناول جرعات دوائية كبيرة وكان يتم انقاذه، لهذا السبب دار أبوه في رحلة طويلة بحثا عن مجرد أمل يلقي به في وجه ابنه لعله يتوقف عن محاولات قتل نفسه، الطبيب المشهور الذي أجرىٰ لعبدالله العمليات الكبيرة عقب الحادث والشهور التي لحقته أبلغه أن ما تم هنا من إجراءات علاجية هو نفسه الموجود في ألمانيا، لكن ربما يكون هناك تأهيل أفضل لمثل هذه الحالات وفقا لتقنيات وأجهزة أحدث، ثم لم يتردد في تهدئة روح الرجل الثائرة المرتعبة وقال له: «علىٰ العموم اذهب وحاول».

التقط والد عبدالله الخيط ودار في أنحاء البلاد، حصل علىٰ الموافقة علىٰ العلاج في ألمانيا في أشهر مراكز إصابات العمود الفقري هناك، كل ذلك لم يحرك ساكنا لدىٰ عبدالله، تشرنق داخل عالم اختفت في داخله كافة المشاعر الإنسانية الطبيعية من فرح، وحزن، وقلق، لم يعد يبالي بأي شيء، لم تعد الكلمات التي تدور حوله

مشبعة بالمعاني والدلالات، كان يحملق في السقف معظم الوقت، ويتمتم بلغة سرية غير مسموعة ولا مفهومة بعض الوقت، لا يتناول من الطعام سوىٰ ما يقيم أوده ويحافظ علىٰ أنفاسه التي ما تزال تخرج في فضاء الغرفة، اندمج مضطرا في أحد المراكز التأهيلية في مدينة هامبورج، اصطحبته زوجته، سافر له والده عدة مرات، تغير كل شيء عن سابق عهده، اختلاف في كل شيء، نظام الحياة، الناس، أساليب وتقنيات العلاج الدوائي، كان التركيز بصفة خاصة علىٰ العلاج الطبيعي وممارساته، اعتمد علىٰ أنواع أخرىٰ من الأجهزة التي يمكنه استعمالها وتيسر له أمور حياته، ثلاثة شهور استغرقتها الرحلة وكافة محاولات العلاج لإعادة ترميم ما تهتك في عموده الفقري، جاءت النتيجة مباشرة من قبل الطبيب الألماني الكبير حيث أخبره: «عليك الاعتماد علىٰ هذا الكرسي، سوف تمضي بقية حياتك فوقه، ينبغي أن تتقبل هذا الأمر، ليس لديك خيارات أخرىٰ، يمكنك أن تعمل وتمارس حياتك الاجتماعية العادية ولكن من فوق الكرسي، هذا الكرسي سوف يكون محور حياتك من الآن» لم تصدم عبدالله هذه الكلمات، كان قد تأهل وتهيأ لاستقبالها علىٰ مدىٰ الشهور الثلاثة الماضية، كأن هذه الرحلة كانت فارقة تماما في حياته، كل شيء اختلف، نظام حياته، مزاجه، أفكاره، حتىٰ تصرفاته مع زوجته، لاحظ ذلك والده ووالدته في زيارتهم الأخيرة له، كأن كوة من الضوء لاحت أخيرا في فضاء قلوب مضطربة، غشيها القلق والظلام، هذا التحول الدراماتيكي لعبدالله في المانيا لم يكن مفهوما لدي والديه وزوجته سوىٰ إنها ارادة الله ومشيئته، لكن عبدالله لم يعد قادرا علىٰ استيعاب

كل هذه التغيرات التي رجّت داخله علىٰ حين فجأة، هل بسبب أنـواع الأدوية التي تعاطاها داخل مركز التأهيـل؟ أم بسبب وجـوده في مكـان جديد مقطوع الصلة بذكريات وأحداث أصبحت عصية علىٰ الظهـور بعد الآن؟ لم يترك عبدالله نفسه للحيرة كثيرا، تجاوز ذلك إلىٰ الدهشة المرعبـة، لـم يصـدق نفسـه وقـد اعـتراه شـوق شـديد ولهفـة لضـربة هيروين، وبدأ يعاين كافة أعراض الانسحاب الجسـدية كأنـه مـا انفـك تاركا تعاطي الهيرون لتوه! أظهر شغفه بطريقـة غيـر طبيعيـة للخمـور، كان يطلبها من زوجته بإلحـاح، جزعـت، كأنهـا لـم تهنـأ بفرحـة عودتـه للحياة مرة أخرىٰ وشعوره كأنه إنسان طبيعي، احتوت طلباته ورغباتـه في شرب الخمر في البداية لكنها لم تتمكن من الصمود كثيرا، اضطرت إلىٰ تقديمها له لكي يهدأ، عادت سحابة الخـوف والرعـب تغيم علىٰ سماء المصحة في ألمانيا مـن جديـد، أخـبرت طبيـب العـلاج الطبيعـي بالتطورات الأخيرة وتاريخه مع إدمان الكوكايين في السابق وتطـورات الأمر إلىٰ «الهيروين» نصحها الرجل بعدم القلق، وأن تقديم كأس او كأسين يوميا ربما يحسنان مزاجـه وينشـطان دافعيتـه للعـلاج والحيـاة، بحكم خبرتها لم ترتح لهذا التفسير، طلبت استشارة طبيب نفسي علىٰ وجه السرعة.

حقا ما أعجب النفس البشرية، لا تسـتقر علىٰ حـال، ولا يمكنهـا أن تهدأ، ودائما تفاجئك بتصرفات عبثية بحجم عبثيـة الواقـع، أخبرهـا الطبيـب النفسـي المتبـاهي وكـان يلـبس بدلـة أنيقـة، ويمشـي في ردهـة المركـز مثـل الطـاووس أن عبـدالله يمـر بتغيـرات هامـة في حياتـه، وأن الاشـتياق واللهفـة للتعـاطي أمـر طبيعـي لجميـع مـدمني المخـدرات

المتـوقفين، وأن مـا يحـدث أمـر طبيعـي لا يسـتأهل الهلـع، ونصـح بضرورة انضمامه لبرنامج التعافي ال AA بمجرد وصوله إلىٰ بلاده، نصحها أيضا بمحاولـة السيطرة علىٰ سلوك شربه للكحـول وتقنين المسألة بقـدر الإمكـان حتىٰ موعـد المغـادرة، أدركـت السيدة أن مـا كانـت تفعلـه مـن السـماح لـه بتعـاطي كأسـين يوميـا هـو مـا يرمـي إليـه الطبيب المتباهي، في الزيـارة التاليـة والأخيـرة لوالديه قبـل مغـادرتهم جميعـا بعـد انتهـاء رحلـة العـلاج أخـبرت والـدة عبـدالله بكـل شـيء، شردت السيدة طويلا بعد سماعها هذا الكلام ولسان حالها يقـول «يا الهي هكذا نعود من حيث بدأنا لكن العود هذه المرة علىٰ كرسي طبي مجهز تماما وليس علىٰ قدميه، لك الله يا عبـدالله» بعـد ثلاثـة أيـام كـان الجميع مستعدين للمغادرة، كان عبدالله قد تدرب علىٰ تفاصيل دقيقة تتعلق بعنايته بنفسه، ونظافته الشخصية، والاعتماد إلىٰ حد بعيد علىٰ نفسه، بدا مرتاحا إلىٰ حد كبير بسبب تمكنه أخيـرا مـن الاسـتغناء عـن مساعدة الآخرين خاصة ما يتعلـق بنظافتـه الشخصية ودخـول الحمـام وتركيب القسطرة البولية، كأن حملا كبيـرا إنـزاح عـن كاهلـه، بـدا يـوم السفر في أبهىٰ ثياب وزينة، وكذلك كانت زوجته، استقلا سيارة الأجرة إلىٰ المطار، كانت المعنويات مرتفعة، وحنين العـودة للـوطن والأهـل فضحه عيون الزوجة التـي لـم يـترك مقبـض يـدها الكرسـي المتحـرك، تـدفع عبـدالله بحمـاس ظـاهر داخـل المطـار، وكـان حماهـا وحماتهـا يمضيان خلفهما في هدوء وارتياح وراحة.

(28)

ناصر يظهر في السجن

ليس هناك أحد أو شيء بمقدوره أن يوقف عجلة الزمن، مع كل طلعة شمس يتوقع البشر شيء جديد تنتعش به قلوبهم، وآمالهم في زمن أفضل، أو ينسدل الستار عن لحظات قاسية كان مطلوب وأدها بشدة، هكذا دارت أيام السجن، تتأرجح بين رجاء مع طلعة جديدة للشمس وحركة الناس وأنفاسهم وأمل يمشي بين ظهرانيهم، وبين اضطراب وكآبة وتوجس مع تقفيلة اليوم، وليل متمدد، لا آخر له، رغم تحسن أوضاع مشعل في السجن وقدرته الكبيرة علىٰ التأقلم مع واقعه وزملائه، وترميم العلاقة التي كانت مضطربة لدرجة القطيعة مع إخوانه وتوافدهم علىٰ السجن تباعا في زيارته بعد فترة قطيعة كبيرة لاعتقادهم أنه السبب الرئيسي في وفاة والدتهم، ورغم اقتراب موعد إطلاق سراحه، فإن منغصات الماضي عادت تشاغله من جديد، وتمسك بتلابيبه آخر الليل بالذات، أحلام الليل واليقظة بخصوص صورة عبدالله التي كانت دائما تزوره في هيئة غريبة، ممسوحة الملامح والوجدان تطالع عينيه وتمضي من دون صوت أو كلام، ثم أخيرا ذلك التواتر المريب لنوبات الاشتياق واللهفة لتعاطي «الهيروين» لدرجة الشعوذة وبلوغه حافة الانهيار لدرجة اضطراره إلىٰ عمل زيارات متتابعة إلىٰ زميل السجن الذي لا تفارق سيجارة الحشيش أصابعه، لعله يتخفف من ثقل تلك الموجة الرهيبة باستنشاق الدخان

المتطاير من السيجارة تارة، وكذلك الدخان المتطاير من فم صاحبه تارة أخرىٰ، أو التلذذ بامتصاص سيجارة الحشيش من يد صاحبه تارة ثالثة، هكذا دارت أيام السجن الأخيرة، حصار اكتئابي ثقيل، ووجوه من الماضي تطالعه لا يفهم ماذا تريد؟ اضافة إلىٰ غموض القادم، لم يعد لديه القابلية أو القدرة علىٰ التفكير في مستقبل أيامه بعد الخروج من السجن، بل لم يقرر من أصله موقفه بخصوص التوقف تماما علىٰ تعاطي «الهيروين» المخدر أو محاولة الانضباط والسيطرة علىٰ تعاطي جرعات خفيفة تفي بالغرض في دفعه إلىٰ عالم السحر والتخدير والروقان الذي إعتاد طوال عمره، مسائل كثيرة كانت تطن مثل دبور أحمر ضخم يزٌن داخل رأسه بقوة حرمته النوم ليالي ثقيلة، كان أبرزها هواجسه من الغموض القادم بخصوص مقدرته علىٰ التعامل بواقعية مع أيامه القادمة، واخوانه، وقدرته الشخصية علىٰ التوقف عن «الهيروين» أو حتىٰ ضبط الجرعة والسيطرة عليها من دون أن يسيطر عليه الهروين مثل السابق، كان يطيل التفكير في إمكانية السيطرة وضبط الجرعة لكن الهواجس دائما كانت تهاجم رأسه بقوة، وترده عن هذه الفكرة، فقد قرر في السابق عشرات المرات أن ينظم جرعات التعاطي، وأن يضع تعاطيه تحت السيطرة لكنه كان يفشل دائما ويعود إلىٰ سلوكه الإدماني السابق، فلماذا ينجح هذه المرة؟ ما الذي تغير حتىٰ يعتقد في إمكانية نجاحه في السيطرة هذه المرة؟ هل السجن؟ هل الأزمات التي عاينها قبل السجن بما فيها جريمة القتل التي اضطر أن يرتكبها ضد عامل البقالة الباكستاني من أجل الحصول علىٰ المال اللازم لشراء «الهيروين» مع أصدقاءه؟ حينما بلغ هذه

النقطة من التفكير انبجست داخل رأسه المرهقة فجأة وبوضوح شديد صورة ذلك الشاب الباكستاني عامل البقالة الذي يسكن بالقرب من مسكن عبدالله، كان مسجي في هدوء بعد أن هشم وزملائه رأسه بمنتهىٰ العنف والقسوة وعدم التردد، وكان يقف جواره عبدالله علىٰ حالته التي اعتاد أن يراه عليها في الأيام الأخيرة، استفاق من شروده، انتفض، ذهب للوضوء والصلاة، كان الممر خاليا، وكان زملاؤه مشغولين في كل اتجاه، مر علىٰ زميله الحشّاش، كان مثل المعتاد مستلقي علىٰ السرير وعيناه تطالعان سقف العنبر من دون حياة، انتزع السيجارة من يده، شُد نفسين فقط قبل أن يدسها في يده مرة أخرىٰ ويمضي قاصدا العيادة الطبية، هناك عثر علىٰ ما يزيح عنه كافة الهموم والأسئلة الصعبة، صعقته المفاجأة، تجسدت خيالات الماضي التي ترهق رأسه وقد تحولت إلىٰ حقيقة حية تنبض بالحياة، وتتنفس، وتمتلك القدرة علىٰ العناق الشديد والبكاء، كان ناصر رابع الأربعة الذين كانوا في السيارة ليلة مقتل عامل البقالة الباكستاني يقف قبالته بقامته المفرودة القصيرة، وجسده الهزيل، ووجهه الشاحب المخروطي خمري البشرة، وعينان ضيقتان، زائغتان، جاء مع الإيراد الجديد من المساجين الذي تم استلامهم هذا الصباح، كان يتابع عمليات الكشف الطبي الروتينية التي تجرىٰ علىٰ المساجين الجُدد قبل ولوجهم إلىٰ عنابرهم المخصّصة واختلاطهم بالمساجين القدامىٰ، لحظات مميزة انتشلته من السقوط في بئر التفكير الغامض غير المريح وردته إلىٰ واقع أنعشه ورد إليه روحه، كان ناصر قد أتم لتوه الفحص الطبي وتفرغ لابتسامات مشعل الذي جذبه من يده

واختليا ببعضهما في ركن قصي من العيادة خال تقريبا من الناس، طفقا يطلقان المشاعر والكلمات المتسارعة عديمة المعنىٰ والتي فُهِم منها أن ناصر حاول جاهدا التوقف عن التعاطي بمفرده عقب الحادث واختفاء الأصدقاء، قبع في المنزل عدة أيام، كان هدفه الأساسي الاختباء عن الأنظار عقب النشر الموسع في الصحف عن حادث قتل الباكستاني عامل البقالة، لكن عزيمته لم تسعفه خرج للشوارع لا يلوي علىٰ شيء، خارت قواه، لم يعد يتحمل السير، آثار نقصان السموم داخل جسده بسبب توقفه عن التعاطي منذ عدة أيام تظهر علىٰ تفاصيل وجهه الذي شحب بقوة، كانت عيناه زائغتان، عظامه تنز أنينا ووهنًا، شوكها ينخر بقوة داخل رأسه المجهدة فيحيل طريقه الطويل إلىٰ تراك أرضيته مغطاة بالشوك والزجاج المكسور، تعلقت الآمال علىٰ قريب له يسكن بمفرده في إحدىٰ الضواحي في طرف المدينة، مشىٰ علىٰ قدميه الواهنتين عدة كيلومترات، حينما بلغ باب الفيلا أخبره الحارس أن قريبه سافر إلىٰ المغرب، دماغه لم يعد يتحمل صدمة القفول ولا المجهول، ولا تلك الساعات الطويلة التي أمضاها هائما من دون شراب أو طعام أو راحة، آخر علاقة له بالدنيا قبل أن يسقط علىٰ الأرض تمثلت في سماعه لأصوات بشرية صارخة وهمهمات ليست واضحة، استيقظ من إغفاءته، كان محاطا بمجموعة كبيرة من الغرباء معظمهم من حراس الفيلات بالشارع، وكميات كبيرة من المياه اغرقت وجهه وملابسه، وعلب عصائر كثيرة تم سكبها داخل فمه، وكان وجه عامل البقالة الباكستاني الذي حطم رأسه وزملائه حاضرا مع هذه الوجوه الكثيرة المجزوعة التي تشبهه وقد

تكاثر عددها بقصد مساعدته، استند أخيرا علىٰ جزع أحدهم، صلب طوله وشكرهم، رفض نصيحتهم بالذهاب إلىٰ المستشفىٰ الحكومي القريب من المكان، شعر كأنه أصبح في حالة طبيعية، كان عليه أن يواصل رحلة المشي الطويلة إلىٰ البيت، أو أن ينزوي في مكان ما، حاول الاتصال علىٰ سالم صديقه، كانت الاجابة دائما الهاتف خارج نطاق التغطية، قرر الاختباء في بلد مجاور لكن هيهات كيف عليه أن يدبر الموارد المالية للسفر والاقامة حتىٰ يتمكن من العمل هناك؟ احتشد رأسه بالأسئلة والحيرة، وكانت الإجابة النهائية في ضرورة عودته إلىٰ البيت ليتدبر المال اللازم للسفر، ويجمع اوراقه لعله يجد عملا هناك، ارتاحت روحه لهذا الحل واكتشف في رحلة قفوله إلىٰ البيت أن فكرة السفر ليست سوىٰ حلا سحريا جادت به السماء علىٰ قريحته المجهدة من أثر السير والتشتت والرعب أيضا، انتهىٰ به الحال أخيرا إلىٰ البيت وكان في حالة مزرية من الارهاق والتفكك والشحوب، غاصت ملابسه في أوحال العرق وأغبرة الطريق، بدا مظهره أشبه بالمتسولين الذي يقطعون الطريق علىٰ الناس في الشوارع، بمجرد أن فتحت الخادمة الباب هوىٰ بجسده الضئيل الناحل مثل حجر يسقط من السماء علىٰ الأرض من دون حراك ولا وعي، هلعت الخادمة وصرخت، جاءت والدته مذعورة ومن خلفها أخواته البنات، كان ناصر ملقىٰ علىٰ وجهه من دون وعي ولا حراك، مظهره يوحي بأنه كان يعيش في الشارع منذ خرج من المنزل منذ عدة أيام، حالة فريدة من الارتباك لفت الجميع لمدة دقائق قبل أن تدلف اخته الكبيرة آمنة إلىٰ الداخل لتطلب سيارة الاسعاف وإبلاغ الوالد

علىٰ هاتفه المحمول، استغرق الأمر عدة دقائق حتىٰ امتلأ المنزل بالبشر ورجال الاسعاف الذي طمئنوهم إلىٰ سلامة علاماته الحيوية رغم الإغماء، شحنوه في سيارة الاسعاف علىٰ وجه السرعة إلىٰ المستشفىٰ الحكومي القريب، وسار من خلفهم موكب من سيارات العائلة والأقارب الذين تم ابلاغهم في ارتباك، استرد وعيه بعد عدة أيام، أخبرهم الأطباء أن عضلة القلب وهنت بشدة، وعادت للعمل بمعجزة، وإنه تعرض لإجهاد بدني وعصبي غير محتمل، كأنه أراد الموت أو سعىٰ إليه بجدية، لم يكن ناصر في حالة تسمح له بادراك الواقع المحيط بصورة جيدة، كانوا جميعا يتحلقون حوله بعد أن خرج لتوه من غرفة الرعاية المركزة، وكانوا يتراءون له كخيالات من ضوء أبيض متلحفة بأسمال بيضاء مثل الأكفان، غامضة تطوف في المكان بحرية من دون أن تحدها حواجز، كان يستجيب لكلمات الذين يحلقون حوله بما يراه في رأسه وأمام عينيه من أطياف وأشياء، أخبرهم الطبيب لاحقا إنها نوبة ذهانية مؤقتة نتيجة لما تعرض له من اجهاد لم يتحمله الدماغ، قرر منع زيارته لحين جلاء الرؤية، شهدت أسرة ناصر أياما لاحقة عصيبة، بعد مضي أيام قليلة غادر المستشفىٰ، لكن لازمته الهلاوس البصرية والسمعية والدخول في نوبات اكتئابية انعكست في عزوفه عن الكلام والطعام، وفتور الحماس لكل شيء وأي شيء، لكن بدأت الأمور في التحسن عن طريق مضادات الذهان والاكتئاب التي حصل عليها، أصبح يستجيب بإيجابية لكل ما حوله من أحداث وأشياء، حتىٰ أتىٰ اليوم الذي استيقظ فيه ذات يوم من رقدته، كان مفعما بالحيوية والنشاط والراحة التامة، كأن جحرا ثقيلا انزاح من

فوق صدره فجأة وأصبح متخففا من كافة الأثقال التي جثمت فوقه وأبعدته عن الزمن، أربعة أيام مضت حينما بدأ في استرجاع المعلومات والأحداث التي مر بها وخلالها قبل أن يسقط صريعا في مدخل الشقة، تملكه شعور جارف بالحيرة والخوف، كانت الأمور في المنزل بدأت تأخذ مسارها الطبيعي في مثل هذه الأوقات، دار كل فرد في دائرة انشغالاته التي تبعده كلية عن الآخرين في نفس المنزل، عاد ثانية للوحدة والفراغ وللصديق الذي ما يفتا هاتفه المحمول يُصِر علىٰ أنه خارج منطقة التغطية، لم يجد ناصر مناص من السفر والعمل في البلد المجاور، استيقظ أهل البيت ذات صباح علىٰ صوت جلبة هادئة في غرفته، ثم صمت مطبق، وورقة صغيرة يعتذر فيها عن اضطراره لأخذ مبلغ من المال من دولاب غرفة نوم والديه مع بعض المشغولات الذهبية والمجوهرات التي تخص والدته والسفر إلىٰ مكان سوف يكتب لهم عنه لاحقا، طالبهم بالهدوء والا يحاولون اقتفاء اثره، لكن الذي حدث بعد ذلك أن أحدهم من أصدقاء الكيف القدامىٰ التقاه في الطريق بينما كانت خطواته متسارعة وملامحه جامدة وجادة، اقنعه هذا الصديق بعدما علم عن وجهته وقراره وكذلك عن امتلاكه لمبلغ معقول من المال وكمية كبيرة من الذهب، أقنعه أن يبتاع كمية من «الهيروين» من خلال صديق مشترك لهما يتجر في الكيف، وأن لديه الآن كمية كبيرة بسعر رخيص، يضمن له هذا الصديق أن يبيعها هناك في البلد المجاور حيث يذهب بمبالغ كبيرة تؤمن له مستقبله هناك ويعيش حياه سهلة من دون عناء، صدمت الفكرة رأسه، أدارتها لحظات قبل أن تتباطأ سرعة قدميه المهرولة في اتجاه التاكسي

الذي يحمله إلىٰ المطار، لم يكن حنينا إلىٰ التعاطي والاندماج هذه المرة بقدر ما كان حنينا إلىٰ الهروب والتغيير والاعتماد علىٰ نفسه، هذا ما فكر فيه، وبررته له نفسه التواقة بشغف إلىٰ التعاطي من جديد، أدرك بكامل خلجاته أنه فخ يحيكه له القدر بإحكام عن طريق صديقه القديم المدمن، وإنه واقع فيه لامحالة، لكن عقله وهو يقود خطواته بشغف مع صديقه ليستقلا سيارة الأخير المصفوفة علىٰ مسافة قريبة من اللقاء كان ينضح بالصور الذهنية عن حياته الرغدة الجديدة في البلد المجاور والتحرر من كل شيء، بالفعل سلّم رأسه تماما لصديقه الذي قاده إلىٰ مكان في قلب العاصمة لكن في منطقة خلفية منها، تشي شوارعها الضيقة القذرة والأسفلت المكسر، وأسمال الناس الذين يترجلون بأنها منطقة قديمة، عشوائية، مترسة بالفقر والفقراء والعاطلين والمجرمين وأيضا تجار المخدرات، تملكته الدهشة من رؤيته لهذا المكان للمرة الأولىٰ في قلب العاصمة وهو الذي يعتقد أنه يحفظ شوارعها عن ظهر قلب، لكن صديقه الذي بدا هادئا، ودودا، بعد أن فرغ من مكالمته الهاتفية أخبره أن ما خفي في هذه البلاد هو أعظم، توقفت السيارة لحظات في أحد الأماكن الضيقة المكتظة بالفقر والسيارات القديمة الصافتة علىٰ الجانبين، ظهر شبح شخص قادم من بعيد يحجل، اختفىٰ في شارع جانبي في منتصف الطريق بمجرد أن شعر بظهوره علىٰ رادار محدثه في الهاتف، أصوات الآذان لصلاة الظهر تعالت بتواتر من مكبرات الصوت المعلقة علىٰ منارات تلك المساجد، غمز له بنصف عين قبل أن يخرج بسرعة من السيارة ويخرج معه ناصر حاملا حقيبة النقود والذهب، دلفا في اتجاه الشارع

الذي اختفي فيه الشبح، في منعطف جانبي ضيق خال تماما من العيون وقف ثلاثتهم، الشبح بدا رجل اربعيني ممتلئ، حليق الذقن والشارب، ذو بشرة بيضاء ووجه مستدير، كان يرتدي بدلة انيقة لا تتناسب مع المكان، التفت الشاب إلىٰ الحقيبة التي يحملها ناصر في يده وطلب منه فتحها علىٰ وجه السرعة، بمجرد أن نظر محتوياتها وتفحص الذهب بعينيه وأصابعه ابلغه عن ثمنها وكمية «الهيروين» التي سوف يقايضه عليها، استفسر ناصر بتوتر عن المبلغ الذي سوف يجنيه من بيع هذه الكمية، أخبره الشاب من دون مبالاة أكثر من ثلاثة أضعاف، وافق ناصر بسرعة من دون أن ينتظر رأي صديقه الذي بدا كأنه متلهف لإتمام الصفقة والخروج من هذا المكان، اختفىٰ الشاب عدة دقائق في أحد الثنايا التي يمتلأ بها المكان الضيق الغريب وعاد يحمل كيس بلاستيك أسود اللون من الأكياس التي يستعملها الباعة الجوالين وفي محلات البقالة الصغيرة يخفون فيها البضاعة، ثم فتحه أمامه وطمأنه بسرعة إلىٰ جودة المنتج والربح الكبير المتوقع من بيعه قبل أن يختفي أمامه من حيث جاء، أكد له أنه تعاون معه بهذا العرض لأجل خاطر الراجل اللي جاي معاك وغمز بعينيه نحو صديقه، ابتهج صديقه، انتفخت أوداجه، قفلا عائدين إلىٰ السيارة وبلغا بهم الحذر إلىٰ الالتفات كثيرا حواليهما، بمجرد أن ابتلعتهم وغادرت حتىٰ نبشت يد ناصر في الكيس، أخرج لفافة محشوة داخل كيس من النايلون صغير الحجم يحوىٰ علىٰ نحو عشرة جرامات من «الهيروين» التقطها منه بسرعة صديقه القديم، وبسرعة أيضا أخرج من داخل ثنايا ملابسه سرنجة وأشياء الطبخ، بدأ في التجهيز بعد أن

صفت السيارة بتعجل يمين أحد محاور الطريق السريع حيث تفر السيارات بسرعة، بمجرد أن مسُ سن الإبرة في وريده حتىٰ راح في عالم آخر، لم يحتمل ناصر هذا المنظر ويظل نائيا بنفسه خارج هذا العالم ولو لثانية واحدة، التقط السرنجة بعد أن أفرغ صديقه محتوياتها بالكامل داخل وريده، وفعل نفس الشيء بتعجل أيضا حتىٰ لحق بعالم صديقه الذي افتقده لعدة أيام منذ أن قرر أن يتوقف عن التعاطي ويلازم المنزل حتىٰ خارت قواه وخرج يستجدي الطريق والأصدقاء آملا في الخروج من دائرة الارتهان داخل ثقب الإبرة، أفاق كلاهما علىٰ صوت جلبة خارج السيارة وأشباح لمجموعة من الأشخاص بالزي العسكري لجنود الشرطة يتحلقون حول السيارة ويصوبون أبصارهم داخلها من خلال الزجاج المغلق بإحكام، طالبهم الشرطي بالخروج من السيارة وابراز هوياتهم، استفاق صديق ناصر قائد السيارة، أدار المحرك حاول الفرار لكنه تراجع من دون مبرر، تم تفتيش السيارة والصديقان والتحفظ علىٰ أدوات التعاطي وكل شيء تم العثور عليه داخل السيارة، ثم اقتادوا الإثنين بعد تقييدهما بالسلاسل الحديدية، تحرك الموكب في جلبة كبيرة مخترقا الشوارع المزدحمة حتىٰ توقفت سيارتي الشرطة أمام أحد اقسام البوليس التابعة للمنطقة، اقتيد ناصر وصديقه إلىٰ الداخل للتحقيق وانجاز الاجراءات القانونية قبل تحويلهم للنيابة في اليوم التالي، جاءت تقارير المعمل الجنائي تؤكد تعاطي الرفيقين للهروين المخدر وحبوب مخدرة اخرىٰ، اضافة إلىٰ كمية الهروين الكبيرة التي ضبطت بحوزة ناصر، الأمر الذي جعل وكيل النيابة يوجه له تهمة الاتجار في

المخدرات، وأما رفيقة فاحتسبت الكمية التي ضبطوها في جيب جلبابه كافية لتعاطيه واستخدامه الشخصي ومن ثم وجه له اتهاما بالتعاطي فقط، دارت القضية في المحاكم عدة شهور قبل أن يستقر الحكم علىٰ سجن ناصر عشرة سنوات وغرامة مالية كبيرة بتهمة الاتجار في المخدرات، وصديقه المتعاطي ثلاثة اعوام، والحكمين قابلين للاستئناف والتخفيف، تقلب مشعل في فراشه بينما كانت أصداء كلمات وحواديت ناصر ما تزال تطن في أذنيه في همس صاخب اعادته لذكرىٰ عالقة بقوة داخل رأسه وتظل صورتها تؤرق مضجعه كل عدة ليال من دون مبرر، لم تكن جريمة قتل عامل البقالة الباكستاني بالنسبة له بالأمر الذي يمكن أن يمر مرور الكرام، بل ظل تأثير صداها يدوي بقوة في أذنيه وأمام عينيه وفي أحلامه، لم يجد سببا مقنعا لهذه الأصداء في دماغه خاصة أنه عاين أحداث كبيرة، ومواقف شديدة البأس اعترك خلالها مع أشخاص، وأحداث، وتعرض للخطر والخوف مرات عديدة، لكن جريمة القتل، ووجه الباكستاني المسكين المرعوب حينما انقضوا عليه وهشموا رأسه ترك صدىٰ آخر لا ينمحي ولا يتركه يرتاح، لم تكن كلمات ناصر عن قضيته والأحداث التي عاشها فقط ما أرق مضجعه في تلك الليلة، بل حديثه أيضا عن سالم الضلع الرابع في شلتهم والذي شاركهم في ارتكاب جريمة القتل، فعلىٰ قدر ما كان شغوفا في تلمس أخباره بعد اختفاءه المفاجئ في أعقاب الجريمة، كان شغوفا أيضا بلقائه والارتماء في حضنه، كان سالم أقرب الاصدقاء إلىٰ قلب مشعل، كأنهم شخصيتان متماثلتان في الطبع والتفكير والخيال أيضا، وبقدر ما كان مشعل مندفعا لدرجة

الحمق والتهور، كان سالم حريصا، وقادرا علىٰ كبح جماح سلوكه وتصوراته وخيالاته أيضا، لكن كان هناك تمازجا واضحا بين الاثنين واتفاقا كبيرا في الأفكار والقرارات، كما أن مشعل كان يرتاح كثيرا لسالم، وكثيرا ما استضافه سالم في بيته وقضىٰ ليالِ معه، يتذكر مشعل أنه تعرف علىٰ سالم قبل سنوات في مشاجرة كبيرة كادت أن تحصل مع عدد من المدمنين علىٰ مقربة من منزل أحد البائعين، يومها كان مشعل قد قضىٰ حاجته وانصرف، وطارده أحدهم يطلب مقاسمته في الكمية التي اشتراها توا، حيث أن مشعل حصل علىٰ الكمية الأخيرة التي كانت لدىٰ المروج الذي طلب منهم مقاسمته إياها، لم يعبأ مشعل بطلبه في البداية، واصل سيره في اتجاه سيارته، لكنه علىٰ حين غره وجد نفسه محاطا بثلاثة من الشباب المفتولين، كانت عيونهم تقطر ألما وشرارا واندفاعا، نظر حواليه، لم يكن هناك سوىٰ الفضاء، والتهور، أخبرهم بحسم أن عليهم أن يقضون من مكان آخر لأن هذه الكمية لا تخصه بمفرده، اقتربوا أكثر، ظهر الخوف والتحفز في لمعة عينيه الضيقتين، صاح بقوة في الفضاء، اذهبوا بعيدا عني يا أولاد «الكلب» انشقت الأرض علىٰ شخص أسمر البشرة، طويل الوجه، فارع الطول، عريض الصدر، له مهابه واضحة، نزل من سيارته، اخترق الحصار المضروب علىٰ مشعل، وقف بينهم، فهم سبب الخلاف، بسرعة أخرج ثلاثة أكياس من النايلون من جيب الجلباب، اعطاهما للشباب واستلم منهم النقود وانصرفوا علىٰ الفور، بينما ظل مشعل مندهشا مما حدث، وغير مصدق أنه نجىٰ من خوض معركة كبيرة غير متكافئة كان يمكن أن تسلبه كل شيء، بما في ذلك حياته

أيضا، من يومها وكأن حالة فريدة من الامتزاج الكيميائي والنفسي غمرت الصديقين، اقتربا جدا، أصبحا لا يفترقان كثيرا، علم مشعل لاحقا من صديقه سالم بخصوص هذه الحادثة حيث ذكر له أنه كان عائدا لتوه وقد قضىٰ مخدره من أحد الأماكن البعيدة، واضطر إلىٰ التوقف أمام أحد أكشاك لشراء علبة سجائر، شاهد من بعيد المنظر، كان يعرف أحد هؤلاء الشبان المحيطين بمشعل، معروف عنه العنف المفرط والتهور، توجس في الأمر، نزل من سيارته بسرعة، حينما اقترب منهم علم بما حصل فقرر انهاء المسألة بمنحهم المخدرات التي اشتراها توا لكي ينصرفوا في سلام، كان سالم أيضا متهورا ولكن كان يستطيع التحكم في تهوره وحماقته واندفاعاته، لذلك كان مشعل يأنس بوجوده معه لكي يساعده في كبح جماح تصرفاته المنفلتة أحيانا، أن ما اخبره به ناصر فيما يخص سالم زاد من عمق أوجاعه وزلزل كيانه، فالذي حدث أن سالم اختفىٰ أيضا عقب حادثة قتل الباكستاني، علم ناصر من أصدقاء مشتركين أن سالم تعرف في أحد المساجد المجاورة لمنزله التي بدأ يرتادها عقب محاولاته الإقلاع من نفسه علىٰ مجموعة من الشباب الذين يطلق عليهم ملتزمين ويطلقون لحاهم حتىٰ الركبتين، بعد عدة شهور غادر إلىٰ العراق سرا، هناك انضم إلىٰ إحدىٰ الميلشيات المتقاتلة في العراق، وإنه لقىٰ مصرعه في إحدىٰ المعارك في مدينة تكريت السنية، تمكن أقارب ثقات من العودة بجثته ودفنها في مقابر الاسرة، هكذا جاءت الأنباء ثقيلة علىٰ قلب مشعل الذي بدأ يتوافق بشدة مع محبسه وأيامه وظروفه، وكأن مجيئ ناصر إلىٰ السجن في هذا التوقيت كان بمثابة

رسالة خاصة خطتها السماء لشاب يسير علىٰ الأرض مثل دابة تسعىٰ بنهم لمأكلها ومشربها وملذاتها، ابتسم ابتسامة خفيفة علىٰ ذكر كلمة ملذات حين اكتشف الآن فقط أنه غير متأكد أنه استمتع فعلا بأيامه مع «الهيروين» !، ربما حدث ذلك أحيانا، لكنه غير متأكد من فرحته بهذه الأيام، غاب في غفوة عميقة علىٰ أمل أن يستيقظ بعدها علىٰ شيء آخر قد يستجمع كيانه وشتاته الذي تضعضع.

(29)

نذر النهاية

لكل شيء نهاية، والفرق بين نهايات الأشياء يكمن في الزمن المستغرق بين البداية والنهاية لا أكثر، هكذا رأىٰ مشعل طريق طويل ممدود لا أول له ولا آخر، يتآكل، يتناقص، بانت من بعيد نهايته، فرح جدا، طار عقله، لكنه استفاق علىٰ صوت فرقعة عنيفة هزت المكان من حوله وداخله قرب النهاية، قام مفزوعا يترنح، كان الجميع نيام، والظلام طاغ في عنبر النوم، التفت حواليه لعله يلتقط شبحا في آخر العنبر يدخن سيجارة أو شخصا ما أرقته مثانته وأفزعته ليقوم بإفراغها في الحمام!، لم يكن هناك سوىٰ الصمت وسكون الموت، نزع غطاء الفراش بعصبية، توجه مباشرة نحو الحمام، علقت في رأسه فكرة نهاية الطريق وتلك الفرقعة التي افزعته ولم يتبين مصدرها، ولم يهتم ايضا، أدرك أن نهاية الطريق تبدأ من انتهائه من تلك السيجارة التي التقطها من جيب الجلباب بعفوية وزرعها مشتعلة داخل حلقه، ترىٰ ما الذي جرىٰ في الخارج، واشارات تلك الرسالة التي اطاحت بغفوته التي تلمسها بالكاد، لم يكد الصبح يظهر، وتتواتر حركة الحراس والمساجين حتىٰ استدعاه أحد الحراس الذين كان لا يرتاح لهم، أبلغه بفتور عن ورود اسمه مع بعض زملائه في كشف المفرج عنهم بعد قضائهم أكثر من نصف المدة بمناسبة عيد الاستقلال، سوف يحدث ذلك خلال الأيام التالية، كأنه استقبل الخبر بفتور علىٰ شاكلة ذلك

الحارس الغليظ الذي اعتاد علىٰ عدم السماح لأي مسجون بالمزاح معه، أو كسر ذلك الجدار الكبير الذي نصبه بينه وبين المساجين، دائما كان يردد علىٰ أسماعهم أنهم مجرد حثالة من المجرمين والكفار الذين اعتادوا الإفساد في الأرض وإغضاب الله ورسوله، استقبل مشعل هذا الخبر بانفعال ووجدان محايدين تماما، لم يشعر بفرحة ولا بحزن، لم يتغير شكل وجهة، ولم تلتمع نظرات عينيه، قلب وجهه للحارس، جالت عيناه تبحثان في العيون الأخرىٰ التي سوف يطلق سراحها قريبا، كأنه لم يتهيأ لهذه اللحظة، أو ربما لم يهتم بها تحول مزاجه سريعا إلىٰ القلق والشرود والتوتر، هرع قاصدا صديقه الذي يدخن السجائر بالحشيش دائما، وجده مثل المعتاد يسند ظهره للحائط ويدفع دخان سيجارته في توتر وعيناه حمراوان لم ينغلقا منذ يومين، استلقىٰ جواره لامباليا، التقط السيجارة من بين اصابعه المتيبسة، أخبره أنهم سوف يخرجونه في عفو عيد الاستقلال، لم يهتم صديقه، نظر نحوه بعصبية لافتة، نزع منه السيجارة بعد سحب النفس، نظر في اتجاه مجموعة من المساجين كانوا منشغلين في نقاش متوتر حول أحدهم الذي اعتاد سرقة متعلقاتهم «هل هاتفرق معاك؟» عاجله مشعل بنظرة حائرة، كمن اصابته الدهشة من انكشافه لزميله المسطول إلىٰ هذه الدرجة، تركه سريعا وانصرف مكتفيا بالنفس الوحيد الذي التقطه، بالطبع لم يعد هناك شيء يمكن أن يجذب اهتمامه لا بالأمس ولا اليوم ولا حتىٰ غدا، الشيء الوحيد الذي كان مثار اهتمامه، بل شريان حياته كلها كان الهروين، ومنذ أن امتنع عن تعاطيه داخل السجن لم يجد بديلا يستحوذ علىٰ اهتمامه وانجذابه، وليست أنفاس

الحشيش التي يلتقطها بجوار زميله سوىٰ محاولة مستميتة للتخلص من هيجان الاشتياق والحنين الجارف للدفع لتعاطي الهروين، حاول باستماته ملفتة للانتباه واهتمام زملائه وحرس السجن أن يكسر موجات تلك الأفكار اللعينة التي تدفعه للانشغال بالتعاطي والحنين اليه، كسر نفسه بالرضوخ للمساجين الأقدم وطاعة أوامرهم، والرضوخ بقوة للحراس والالتزام بكافة تعليماتهم الغبية والمهينة أحيانا، انشغل بالصلاة وقراءة القرآن والكتب الدينية المتوفرة في مكتبة السجن وتقديم النصائح لزملائه الأحدث، اعتاد علىٰ النوم مبكرا والاستيقاظ قبل آذان الفجر ليجهز نفسه للصلاة ويوقظ الآخرين ثم يؤذن للصلاة ويجمع من تيسر وجوده في مثل هذا الوقت يؤومهم في الصلاة، تغيرت حياة وشخصية مشعل تماما في مدة زمنية وجيزة، ومع ذلك ما تزال هجمات الاشتياق للهيروين تحرمه النوم أحيانا وتضطره للاستلقاء بجوار زميله يلتقط معه نفسين أو ثلاثة من سيجارته المحشوة بالحشيش يخمد بهما تلك النيران التي تستعر داخله من حين لآخر، لكنه بالفعل لم يهتم بشيء أو سبق أن فرق معه شيء أصلا، دارت عيونه تبحث عن ناصر الذي وصل حديثا يخبره عن قرب خروجه وحيرته في رجوعه الحتمي للمخدرات، تنبه أخيرا للفزعة التي حاقت به بسبب حلم ليلة امس وذلك الطريق التي يتآكل وينتهي وصوت الفرقعة العنيفة التي هزت داخله بقوة، قال لنفسه «كأنها نهاية الطريق أو أن نهايتي قد حانت» عقب هذا اليوم لم يعد مشعل يظهر في الطرقات، أو ملعب السجن، أو العيادة الطبية، أو يستلقي بجوار زميله الحشاش، أو يتحاور مع الحراس، أو يؤذن

للصلاة ويؤوم المصلين، لم يغادر سريره في العنبر سوىٰ للحمام أو للطعام حتىٰ تم استدعائه بعد عدة أيام، أخبروه أن يجهز نفسه للخروج من السجن، لم يبالي بتزاحم زملائه في الغرفة للعناق والسلام والتوصيات والرسائل للآخرين في الخارج، كما لم يبالي بعناق وتحيات الحراس الذين رافقوه الرحلة، لم يشعر بمثل هذا القدر من الوحدة القاسية مثلما شعر اليوم، الأصوات من حوله كانت تفرقع في فراغ سحيق لا يصل لأذنيه منها شيء، حتىٰ حينما احاطه اخواه في حميمية هائلة، لم يكن مشعل هو ذلك الشخص الذي دخل أحضان أخواه، بل شخص آخر ليس علىٰ يقين من كنهه أو هويته، مضت السيارة بسرعة في اتجاه البيت الكبير حيث كانت الوالدة قبل وفاتها، ظل صامتا يتلقىٰ الترحيبات والمداعبات في هدوء، جاهد نفسه في رسم ابتسامة غريبة تصلح لكافة صور وأشكال الكلمات والمداعبات دون أن ينبس، دخل المنزل، توجه مباشرة نحو غرفة والدته التي سرقها قبل أن يغادرها للمرة الأخيرة، وقف أمام سريرها، انثالت الدموع غزيرة، ارتفع صوت النحيب، جثىٰ علىٰ ركبتيه علىٰ الأرض، أمسك بطرف السرير، طفق يهذي بأصوات متداخلة، مجروحة، مبحوحة واعترافات صريحة بتسببه في أذاها وموتها وإنه مجرم لا يستحق سوىٰ الموت، اخوانه من حوله يحاولون تهدئته والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، لكنه كان مثل بركان عظيم انفجر ولم يعد بمقدور أي أحد إيقافه، ظل علىٰ هذا الوضع نحو ساعتين حتىٰ بدأ يستعيد توازنه وينهض من علىٰ الأرض وينضم لإخوانه واخواته علىٰ مائدة العشاء.

بعد استقرار الأمور وهبوب حالة من الطمأنينة والهدوء، وبينما كان يرتشف كوب الشاي فاجأهم برغبته في دخول المستشفىٰ للعلاج، ربما الوحيد الذي لم يتفاجأ كان عارف الأخ الأصغر، الذي ساعده في تفسير هذه الرغبة للأشقاء الأكبر، بدا عارف منطقيا مقنعا، أخبرهم أن الإدمان مرض مزمن يحتاج إلىٰ اساليب احترافية للتخلص منه، وذلك لن يحدث سوىٰ من خلال اختصاصيين واطباء محترفين يتعلم منهم كيف يتخلص من مرضه، كما أن المرض المزمن في حاجة إلىٰ متابعة مستمرة للحفاظ علىٰ حالة الإقلاع والتعافي، تلاقت نظرات الإخوة وتقاطعت في تعجب مما يقوله ومتىٰ وكيف توصل إلىٰ هذه المعلومات الدقيقة؟ دراسته الجامعية اقتصرت علىٰ علوم المحاسبة، حتىٰ مشعل كان ينظر إليه بإعجاب شديد وريبة أيضا، أول شيء أخبرهم به أنه في حاجة إلىٰ دخول المستشفىٰ للعلاج من الإدمان، فإنه يخشىٰ علىٰ نفسه من العودة للتعاطي من جديد، ويشعر أنه لو ترك هكذا ربما يعود للتعاطي مرة أخرىٰ، علىٰ أي حال راقت الفكرة للجميع، كلفوا عارف بالذهاب معه صباح اليوم التالي إلىٰ مستشفىٰ علاج الإدمان الحكومية التي تقع علىٰ مسافة عدة كيلومترات من المنزل والتي تقدم خدماتها المتميزة بالمجان بحسب ما ذكر عارف.

(30)

الذكر شبع موتا

ازدحمت الأيام بالغضب والحقد، زادت علىٰ ذلك تلك الموجات المتواترة من نوبات الشعوذة المسعورة، أو اللهفة التي كانت تهاجم رأسه وتزلزل كيانه شوقا لتعاطي «الهيروين» بعد عودته إلىٰ البلاد، والحاح استبدال الخمر بحقنة «الهيروين» كثف عبدالله من ضغوطه الرهيبة علىٰ زوجته التي لم تعد تحتمل، وصلت الأخبار إلىٰ والدته، هلعت، تحلقوا جميعا حوله في محاولة لتهدئته من دون جدوىٰ، استدعىٰ والده أحد الأطباء النفسيين ليناظره ويصف له دواء يخفف من شدة تأثير تلك القنبلة التي انفجرت في البيت فجأة، بالفعل نجح الدواء في إقصاءه عن بؤرة الضوضاء والمشاكل، غيبه في نوم عميق لساعات طويلة نعِم فيها أهل المنزل بالراحة، لكن الأيام طويلة، ممدودة، وتأثيرات الدواء تتراجع، استمد قوة حاسمة في تحديهم في رفض تناول الدواء، زوجته انهارت من فرط عنفه وسلاطة لسانه ورغبته الملحة في الخروج من المنزل، تملك الجميع صنوف مجنونة من المشاعر بين شفقة وتعاطف وحب، وغضب وحقد ورغبة دفينة في أن يخفيه الموت بأسرع ما يكون، نصحهم الطبيب بضرورة ذهابه إلىٰ مصحة نفسية حيث هناك الممرضون المدربون جيدا علىٰ التعامل مع هذه الحالات، رمق الرجل ولده بنظرة محيرة فيها كل الغضب

وكل الهلع علىٰ الشاب المكلوم، قال لنفسه «يا ربي كيف يمكن أن ينتقل بعيدا عني وهو في هذه الحالة؟».

كان عبدالله منكمش، متقوقع علىٰ الكرسي في زاوية الغرفة يغطي وجهه بذراعيه ويبكي بحرقة، قررت والدته أن يذهب فورا إلىٰ مصحة خاصة شهيرة للعلاج من آثار الإدمان، وقد كان، سرت موجة من الارتياح لهذا القرار الذي سوف يزيح هما ثقيلا من علىٰ كاهل الأسرة وخاصة امرأته المسكينة التي بدأ الانهاك واليأس ينخران عظامها وخلايا دماغها، بعد ساعتين جاءت سيارة تابعة للمستشفىٰ صفت جوار المنزل، نزل منها ثلاثة شباب أحدهم يبدو من هندامه والنظارة الطبية المعلقة فوق عينيه الضيقتين أنه الطبيب، دخلوا الفيلا وجلسوا في أحد صالوناتها بالطابق الأرضي، في هذه الأثناء قدمت له والدته كوب من عصير الليمون البارد بينما كان يجثوا علىٰ كرسيه المتحرك قلقا ومتوترا في الطابق الأعلىٰ، رفض بشدة، طفقت تتوسل إليه من دون فائدة، نزلت إلىٰ الرجال في الطابق الأسفل، أخبرتهم برفضه شرب كوب العصير المخدر، صعد ثلاثتهم الدرج، تحلقوا حوله، تيقن من مرامهم، حاول المقاومة بقوة ذراعيه دون فائدة، تمكنوا من السيطرة عليه، حاول إفلات جسده من براثنهم دون جدوىٰ، سيطروا عليه وعلىٰ الكرسي بحرفية وإحكام، رفعوه ونزلوا به الدرج، أدخلوه بسرعة إلىٰ السيارة التي انطلقت متوجهة إلىٰ المصحة، من خلفهم سيارة المنزل يقودها والده، وفي الجوار والدته، وامرأته الباكية تجلس في الخلف وما تزال هالعة، في الطريق تمكنوا من حقنه بمهدئات قوية المفعول، عندما وصلوا بدأت عضلات

عبدالله في الانهيار والتراخي، بدا طيعا، متعاونا، حملوه بالكرسي إلىٰ غرفة منفردة، وضعوه علىٰ سريره في هدوء وبدت تأثيرات الدواء في العمل الفوري حيث سرت تخديره مخمدة في مختلف أوصاله، خلال دقائق ثقلت اجفانه وغلقت أخيرا بعد أن ظلت عيونه متوهجة عصية علىٰ الانغلاق طوال الأربعة أيام الأخيرة لم يذق خلالها طعم النوم، ألقوا نظرة أخيرة عليه قبل مغادرة المستشفىٰ وبعد الانتهاء من إجراءات الدخول، في الطريق كان الصمت مهيمن بقوة داخل السيارة، نحيب الزوجة لم يعد يجذب الانتباه، بدت أمه المهيبة العملاقة كسيرة النفس، طفرت الدموع من عينيها، لم تجد حرجا من النظر إلىٰ زوجها وهو يقود السيارة وتخبره عن قلقها علىٰ عبدالله، حاول الرجل طمأنتها، لكنه لم يعتقد في ذلك أيضا، طلبت منهم امرأة عبدالله العروج في اتجاه بيت أبيها والبقاء عندهم عدة أيام قبل زيارة عبدالله التي تقرر لها بعد اسبوع من الدخول بحسب ما قرر الطبيب المعالج.

استجابت الأم بأريحية لطلبها، وتوجهوا صوب المنطقة الغربية حيث فيلاتهم هناك، لم يكن القلق فقط ما يحتوي أم عبدالله، بل انبجس شعور غامض رهيب تجاه ولدها تملك كيانها، مفاده أن ابنها لن يعود من رحلة المستشفىٰ، تجلىٰ في كوابيسها الليلية، وزلات لسانها التي تكررت الأيام الماضية حول الموت والعدم، لم تعد تكترث لشيء، ارتدت السواد، أعلنت الحداد، لم تعبأ بانتقادات الأبناء والزوج ولا أخواتها اللائي تكرر ظهورهن في صحن البيت، كل شيء كان يشي بانتظار خبر النهاية لعبدالله، انسدت أُفق الأمل في إمكانية أن يهدأ ولو لدقيقة واحدة، كان وجوده ثقيلا في المصحة،

ومصدر ازعاج واضطراب لجميع من يحيطونه وحتىٰ من هو خارج اهتماماتهم وعملهم، في الزيارة الأولىٰ ظهرت زوجته وأمها وأبوها بجانب والدته ووالده واخواته، كان المكان مزدحما، وكان مخنوقا بالعقاقير الموصوفة التي جعلت منه شيء مسخ أشبه بالإنسان الآلي، كان زائغ البصر، يتطلع إلىٰ الفضاء، غير مهتم بالموجودين في حديقة الزيارة بالمصحة، كانت والدته صامتة، حاولت تحريك شفتيه من دون طائل، ولما تبين لهم عدم جدوىٰ الزيارة طلب ابوه وامه لقاء الطبيب المعالج، أخبرهم أنه لايزال في مرحلة مبكرة من العلاج يتم من خلالها السيطرة علىٰ المريض بالدواء حتىٰ ينظف جسده تماما من السميات التي تملأ جسده ويستعيد هدوءه، في الأسابيع التالية اتضح أن عبدالله غير متوافق مع نظام الاحتجاز داخل المستشفىٰ، اثار الكثير من الجلية والازعاج والمشكلات، أخطرها بحسب ما أبلغ به الطبيب المعالج والدته البائسة محاولاته المستميتة لتهريب الهروين المخدر داخل المستشفىٰ، كما أنه تعاطىٰ الهروين بالفعل عدة مرات عن طريق آخرين، عقب كل زيارة كانت والدته تعود وقد زاد يقينها من أن ولدها يحارب العالم من أجل أن يموت، مالت علىٰ اذن زوجها ذات يوم بعد نحو شهرين من احتجاز عبدالله في المصحة، أخبرته بضرورة خروج عبدالله من المصحة واحتجازه في المنزل، ذهل الرجل، طفرت من عينيه نظرة مضطربة تتهم زوجته بالخبلان، لكنها بادرته قبل أن يفسر نظرته، إذا كان يجب أن يموت من الأفضل أن يموت علىٰ فراشه» تعمقت دهشة الرجل وذهوله، زفر عبارات متقطعة مبحوحة، «يامرة موت ايه اللي تتكلمين عنه، هنا الناس يمنعون الموت عنه»

ردت بقوة وحسم وقلبت وجهها «خليه يرتاح» سارت الأيام التالية ثقيلة، عاد عبدالله إلىٰ غرفته وعادت معه زوجته المسكينة التي كانت قد غادرت إلىٰ بيت ابيها طوال فترة وجوده بالمصحة ولا تلتقيه سوىٰ في الزيارات عديمة الجدوىٰ، ثلاثة اسابيع بالتمام عقب الخروج كان مزاج عبدالله قد تحسن كثرا، أصبح يسخر من نفسه وكل شيء حوله، تحدث مع امرأته بحميمية ولم يمنع نفسه من احتضانها وجذبها بقوة إلىٰ صدره في حضور والدته وبعض الزوار من الأقارب، لم يطالبهم بمخدرات ولا خمور ولا أي شيء، بدا شخص استسلم لقدره ويكافح من أجل التأقلم مع أوضاعه الجسدية الجديدة، لكن الغريب أن والدته لم تطمئن لهذه التغيرات التي اعتبرها الجميع هامة ومفتاح البداية لحل جميع مشاكل عبدالله، لكن نواقيس الهلع التي تدق داخلها كانت ماتزال تعمل بكفاءتها، علامات خيبة الأمل والاحباط والعدم كانت تجلو بقوة أمام عيون تلك المرأة المهيبة القوية الصارمة، حينما كانت تمعن التحديق في عيني ولدها البائس كان يتكشف لديها خواء الداخل وتلك الرغبة المختبئة داخل ثنايا احشائه وتلافيف مخه في أن ينفك من حصار جسده المضروب عليه عقب حادث السيارة، وحصار رأسه حيث تفتت صلته بالواقع ولم يعد له فيه من مكان يمكن أن يتنفس فيه براحة ويتمتع أيضا، في هذا المساء المشئوم وبعد انصراف الجميع، وانطفاء الأنوار استدعىٰ زوجته من رقدتها في الغرفة المجاورة، قبض علىٰ يديها، كان يجلس علىٰ كرسي الحياة خاصته، جذبها بقوة نحو صدره، طاوعته، مالت علىٰ صدره ووجهه، انهالت علىٰ شفتيه ووجه تقبيلا، شوق فجائي غمرها بعد

حرمان طويل، تفاعل معها بحرقة، توهجت نيران الشوق والحرمان لكليهما، حاول إماطة اللثام عن مخرج لتلك الشهوة الرهيبة التي زلزلت كيانه فجأة علىٰ الرغم من كل تلك الأدوية الكفيلة بقتل الاكتئاب وشهوات الرجال، حاولت مساعدته في التقاط طرف الخيط والولوج إلىٰ داخل فرحة الحياة ونشوتها الرائعة المستحيلة، كان الطرفان في حالة مروعة من التمازج واللهفة والاضطراب من أجل بلوغ ذلك الزئير الذي يريحهم في آخر اعتراكهم مع النشوة والمتعة، لكن المحاولة لم تنجح، ادرك بعد كل هذا الضجيج والجلبة، وبعد أن استفاقت من غيبوبتها وطفقت ترتدي سروالها وتعدل من ملابسها أن طريقه في هذا الاتجاه موصد بالمزاليج، وان عليه أن يصطلي بنار الشوق والشهوة وكفىٰ، أخبرته بعد أن عاينت الحزن يكسو وجهه وكانت اصابعه ترتعش، ربما يكون لدىٰ الطبيب الذي يزورنا غدا بحسب موعد المتابعة حلا ييسر الأمور لاحقا، طلب منها وهو يدفع نفسه بقوة علىٰ السرير، أن تخفيه بالملاءات وتمضي إلىٰ حال سبيلها، وقال لنفسه في سخرية لاذعة متعمدا وصول الصوت للمرأة التي اقتربت من باب غرفته أي طبيب يمكنه أن يعيد ذكرا للحياة بعد أن شبع موتا!

(31)

أيام المصحة ولياليها

مضت أيام مشعل متباطئة، ثقيلة، تقلبت الأحوال والأجواء مثل العادة، أدرك أنه تورط في قرار دخوله المستشفىٰ، لم يكن يدري أن الأمر بهذه الصعوبة، كأنما انفتحت أبواب الجحيم عليه من مختلف الاتجاهات، نار الشوق واللهفة أو كما يطلقون عليها شعوذة الشيطان تسري في دمه وتأكل خلايا دماغه، وتحيله إلىٰ شخص مجنون عديم البصيرة، يهذي مع نفسه بصورة لم تكن تحدث له أيام السجن تحرمه من النوم، وعندما يدهمه التعب تجرفه الأحلام لدقائق إلىٰ الساحة حيث أيام التعاطي، دائما كان يظهر له عبدالله، يحملق فيه من بعيد، وجه خالي من الانفعال، نار أخرىٰ لم يكن يتحسبها أبدا في مخيلته، أو ربما سعىٰ إليها لا شعوريا عندما قرر أن يلج إلىٰ المصحة فور خروجه من السجن الذي مضىٰ داخله عدة سنوات، نار تلك الصحبة التي تجمعت داخل مصحة للعلاج، القلة منهم وفق حس الخبير من يسعون للعلاج والتغيير، لكن كثرتهم كانت تمضىٰ داخل العنبر من دون اكتراث لأي شيء سواء تعليمات الأطباء، أو برنامج العلاج، أو القواعد الأساسية المعمول بها داخل العنبر، كان يحدث كثيرا أن يلاحظ تجمعات شتىٰ للعديد من النزلاء يتفقون علىٰ تهريب كميات من الهروين من الخارج، وفي بعض الأحيان تهريب موبايلات للتواصل مع العالم الخارجي والتحدث مع الأصدقاء والصديقات

والاتفاق مع الديلرز علىٰ جلب مخدرات داخل المصحة، ناهيك عن جلسات الأنس في آخر الليل صافعين بقوة للقواعد والتعليمات العلاجية، تتمحور أحاديث الليل حول أحدث أنواع المخدرات وأجودها في السوق، والخبرات المتبادلة المتعلقة بالتعاطي، والطرق المثالية الجالبة للمزاج العالي والتحليق في السماء.

كان يعاين كل ذلك ويمضىٰ من دون أن يسجل موقفا واضحا لنفسه، بل تركها فريسة للتردد والارتباك الذي كان كفيلا بنهش خلاياه، كان يسير في ردهات العنبر زائغ العينين، متشح بغمامة من الأفكار المتداخلة التي تتصارع داخل رأسه، يجادلها ويحاول أن يصل معها لحل وسط لعلها تنزاح عن رأسه حيث لم يعد يسمع أو يرىٰ أو حتىٰ يشعر سوىٰ ما يعتمل داخلها من الآم، تكرست عزلته في العنبر، لم يعد يقبل أن يدخل أحدا دائرته سواي وأحد الممرضين، في المجموعات العلاجية كان يلوذ دائما بالصمت، يتهرب من التفاعل، المرة الوحيدة التي بادر فيها بالحديث في إحدىٰ المجموعات العلاجية التي كنت اديرها كانت متعلقة بالبحث عن إرادة التغيير داخلنا، انفجر باكيا علىٰ حين غرة، أعلن بكل وضوح عجزة وعدم رغبته في التغيير، قال لن أستطيع، لقد اكتشفت أني مدمن لإدماني، انا شغوف بإدماني ولن تستطيع قوة أن تبعدني عنه، كانت جلسة صاخبة، انهمرت فيها دموع كثيرة وفاضت فيها مشاعر أكثر كاشفة عن مدىٰ عميق من العجز الانساني النبيل الذي لا يتكرر كثيرا في الجلسات العلاجية، توالت الجلسات والمقابلات الفردية من أجل سبر غور ذلك النوع من التفكير الاكتئابي الانهزامي الفريد، ومساعدته علىٰ

اتخاذ قرار ربما يغير من مسار هذه الأفكار المسيطرة علىٰ دماغه، ابتعدت الأيام وتحول كل شيء، استعاد ذاكرة السجن وأيامه، لم يعد يحتمل الحيرة ولا التردد أكثر من ذلك، قرر أن يكون نفسه التي فقدها إثر خروجه من السجن واعتقد الجميع حينها أنه تغير، الآن تألفه مستحوذ علىٰ الصدارة في جوف العنبر، قامته قصيرة، ورأسه مفلطحة كبيرة، عيناه مستديرتان جاحظتان تبحثان عن شيء في صدره لكنه غامض، امتلك ناصية العنبر والنزلاء، قبض علىٰ عقولهم وتصرفاتهم، حدثت كوارث جسيمة في العنبر علىٰ شاكلة تلك الكوارث التي تحدث في عنابر علاج الإدمان، كنا دائما موقنين أنه وراء تلك المصائب، وكان دائما يظهر ملازما لنا كأنه شخص من ضمن أفراد الفريق العلاجي، يؤشر علىٰ أسماء معينة وراء الحادثة زاعما أنه حاول ردهم والإبلاغ لكن سبق السيف العزل، والحقيقة أنه كان يتصارع معهم داخل العنبر ويريد التخلص منهم، حرص علىٰ أن يبدو ودودا وداعما للعملية العلاجية ولجميع الإجراءات التي يتم اتخاذها من أجل تحسين وتطوير مسار البرنامج العلاجي، لكنني كنت مرتابا في نظراته وسلوكه، ذات صباح وفور دخولي العنبر شعرت أن هناك حركة غير طبيعية، كان المرضىٰ منقسمين إلىٰ مجموعات، مجموعة غاضبة ومتجمهرة أمام «كاونتر» الممرضين، ومجموعة أخرىٰ كانوا جالسين متراصين علىٰ الأرضية، ظهورهم مستندة علىٰ جدار الممر المفضي من بوابة دخول العنبر حتىٰ «كاونتر» التمريض، إضافة إلىٰ تجمعات متقطعة بطول الممر حيث تقع غرفهم، كان أحد الممرضين يحاول التفاوض معهم وقد بدىٰ مرتبكا ومنزعجا، حينما وصلت إلىٰ

ال «كاونتر» أبلغوني أن المرضىٰ لم يستيقظوا مبكرا مثل المعتاد، ويقولون أنهم مضربون عن تناول الطعام والدواء، وعن حضور الاجتماعات حتىٰ تتحقق رغباتهم، جالت عيناي تبحثان عن مشعل وسط هذا الحشد الغاضب المرابط عند «كاونتر» التمريض، لم يكن له أثر، سألت الحاضرين أمامي عن رغباتهم التي يسعون إلىٰ تحقيقها من أجل إنهاء الإضراب؟ أبلغني أحدهم وكان دائما ملحا في طلب الخروج علىٰ الرغم من سوء حالته، نخرج وقتما نشاء، وإبعاد الممرض رأفت من العنبر، لأنه يتعمد إهانتنا باستمرار، التفت إلىٰ الممرض الذي يواجهني وسألته عن مشعل، أخبرني سريعا أنه في غرفته لم يغادرها، طلبت منهم أن يحضروه إلىٰ مكتبي داخل العنبر، مثل أمامي خلال دقيقتين، أخبرني عن مبلغ انزعاجه من ما يحدث في العنبر، وأن وراءه ذلك المريض الذي أبلغني طلباته توا، أحاط وجهه وحركاته بغلاله متقنة من السكينة والهدوء، أبلغني أيضا رفضه لكل ذلك، وأنه حاول منعه لكن للأسف الممرض رأفت تصرف معهم بطريقة خاطئة تنقصها الاحترافية، تفحصت عينيه جيدا وهو ينسج عباراته بطريقة متقنة تبعده عن الشبهة، وتدفع في نفس الوقت في اتجاه تحقيق أهداف هذا التمرد وأهمها إبعاد الممرض رأفت من العنبر وتحميله مسئولية الأحداث والمشاكل.

لم تكن هذه أول حادثة ولا آخرها يطالب المرضىٰ بإبعاد الممرض رأفت المعروف عنه صرامته الاحترافية في التفتيش ودقة الملاحظة، وإمكانية سيطرته علىٰ العنبر في نوبته وجعله خال من الممنوعات، كثيرا ما نجح في نوبته في ضبط هواتف محمولة مهربة،

وحبوب مخدرة وحشيش، وفي أحد الأيام ضبط مرضىٰ كانوا يتبادلون التعاطي فيما بينهم، الأمر الذي سطر له تاريخا غير مريح عند أولئك الذين يدخلون الجناح من دون رغبة حقيقية في الإقلاع عن المخدرات والتغيير، استفسرت منه عن علاقة الإضراب عن الطعام والدواء وعدم حضور الاجتماعات العلاجية بخروج فلان أو إبعاد ممرض؟ هذه حقوقك ومسئوليتنا الطبية، أنت لا تأكل أو تأخذ دوائك من أجلنا، ولا من أجل مصالحنا الشخصية، بل من أجل علاجك والتزامك وتعهداتك مع إدارة المصحة يوم دخولك، بادرني بسرعة قبل أن ألاحظ دهشته وارتباكه، «أنا مليش دخل باللي عملوه، عن نفسي فطرت عادي وقاعد في غرفتي، لكنهم يأسوا من وجود أحد يستمع لهم، أخبرته بضرورة أن يذهب ويحل المشكلة، وأن يخبر زملائه أن مطالبهم سوف نناقشها في اجتماع الفريق العلاجي بعد ساعتين، ويجب أن يكونوا مستعدين للاجتماع الصباحي معي خلال ربع الساعة من الآن، يفطرون ويتناولون علاجهم ويحضرون جلسة العلاج، بمجرد أن قلب قفاه كنت في إثره أبلغت المرضىٰ زملائه أن أمامهم ربع ساعة فقط للإفطار والدواء وفي انتظارهم في جلسة الاجتماع الصباحي، اختفيت من المشهد وأصداء جلبتهم وهمهمتهم وصراخ بعضهم يقرع أذني بقوة احتجاجا ورغبة في تصعيد الأمور، مضت ربع الساعة، وربع ساعة آخر، بل ساعة بأكملها لم يظهر أحد، انسحب الجميع إلىٰ الغرف، جاء الممرض، أخبرني أنهم مصرون علىٰ الإضراب، وفي انتظار اجتماع الفريق العلاجي، في هذه اللحظة أيقنت أنهم يضمرون أمرا، وأن حل المسألة يتطلب قرارات حاسمة،

هاتفت زملائي، كان الممرضون أعلموهم بالأمر، في الاجتماع استقر الأمر علىٰ ضرورة إبعاد مشعل وزميله المتورط من العنبر، واستدعاء أسر جميع المرضىٰ المشاركين في الشغب وابلاغهم بموقف أبنائهم وطرح خيارات الخروج أو استكمال العلاج من خلال اشتراطات البرنامج العلاجي الخاص بالمصحة، حدث كل ذلك بسرعة، في مكتب خارج العنبر تم استدعاء مشعل وزميله وإبلاغهم بقرار الخروج بعد استدعاء أقاربهم، ابتسم مشعل ابتسامة غير مريحة رماني بها قبل أن يخرج من الغرفة، هرولت خلفه قبل أن يلتحق بأقاربه الذين حضروا لاستلامه، بدا المشهد غير طبيعي لزملائي الذين اكتملت دهشتهم وتعجبهم، ضبطتني وقد توحدت معه تماما، أخبرته ومشاعر غريبة تتملكني لم أعاينها مع أي مريض من قبل، ربما فضحتها عيناي اللتان نضحتا بالإشفاق والهلع، حينما تعود المرة القادمة سوف أكون في انتظارك، أتمنىٰ أن تكون في انتظاري أيضا، كأنه فهم ما أرمي اليه، وكأنني فهمت أزمته، اختفىٰ من أمامي وقفلت عائدا لننتهي من بقية إجراءاتنا للسيطرة علىٰ العنبر وإنهاء الأزمة، وهذا ما حدث بالضبط، لكن ظل مشعل وعيونه الجاحظة يطاردونني بضعة أيام، كلماته لم تغادر رأسي، جاءني اتصال من هاتف غريب، كان شقيقه الأكبر علىٰ الطرف الآخر يتحدث بهدوء، أخبرني أن مشعل تعرض لحادث كاد يقتله، تناول كمية كبيرة من «الهيروين» مع آخرين ومن حسن الحظ أنه سقط أمام المنزل لحقناه إلىٰ المستشفىٰ القريب، دخل الرعاية المركزة، ظل عدة أيام بعد الإفاقة ظل يردد اسمك ويطلب لقاءك، طلبت منه إحضاره إلىٰ المستشفىٰ وسوف أعمل علىٰ دخوله

ورعايته، كان ذلك ضد لوائح المستشفىٰ حيث أن من يخرج ويكون مثيرا للشغب والمشاكل يوضع ضمن القائمة السوداء الخاصة بالمرضىٰ المشاغبين ولا يحق للمستشفىٰ استقباله كمريض مقيم قبل عدة شهور، وعلاجه يكون عن طريق العيادات الخارجية، التقيته بعد عدة أيام بصحبة أخيه الأصغر وكان في حالة بدنية صعبة، شديد الهزال، عيناه غائرتان، وجهه شاحب مطفأ من دون بريق، وصفت له العلاج اللازم وتركته وقد هدأ شيء ما داخلي أشعل نار قلقي منذ غادر المصحة، الآن أجدني قد تخففت كثيرا من هذا القلق، وقلت في نفسي وأنا أعبر بوابة الخروج حمد الله علىٰ السلامة يامشعل.

(32)

شياطين الليل

لم أنشغل كثيرا بذلك التدفق الجارف من المشاعر الإيجابية والتعاطف حيال مشعل، منذ لامست نظراته الحانية عيناي في أول لقاء جمعني معه بعد دخوله المصحة أثناء مناظرتي المبدئية لحالته، والتي خرجت منها شبه متيقن أن هذا الشاب المسكين من تلك النوعية من المرضىٰ المدمنين الذين يمكن تصنيفهم بأن إدمانهم يمثل خطرا داهما علىٰ حياتهم أو «ريسكي» كما يقولون، بمعنىٰ آخر أنه حالة ميؤوس منها فيما يتعلق بمسألة توقفه عن الإدمان، وأن حياته مهددة بالانتهاء نتيجة جرعة مخدر زائدة قد يتعاطاها في أي لحظة.

خلال هذه المناظرة المبدئية لم يستغرق ارتيابه ولا استكشافه لي ولا لأفكاري وأسلوبي في التعامل معه لحظات حتىٰ طفق يحدثني عن تفاصيل حياته، وأدق أسرار تصرفاته وعلاقاته، وأيامه البعيدة في تلك الرحلة مع الإدمان والتي كان قد بدأها مبكرا جدا، أرجعت السبب في ذلك إلىٰ عمق تلك النظرة الحانية الغريبة حيث تلامست أعيننا، التقط منها مدىٰ تعاطفي ورغبتي في مساعدته بحق، وفيما يخصني تملكني شعور خفي بصدق نظرته، لكن هناك شيء مؤكد وهو أن هناك نوعية من أولئك المرضىٰ المساكين من فرط تورطهم واعتراكهم في أمور التعاطي والإدمان والمشكلات المتعلقة بسياقه يكتسبون مهارات وقدرات خاصة يستغلونها بكفاءة في تسيير أمور

تعاطيهم والحفاظ علىٰ استمرارهم مهما كان الثمن، منها تلك القدرة في التأثير علىٰ مشاعر الآخر غير المدمن بالطبع وسلبه قدرته علىٰ التفكير المنطقي لدرجة الوقوع ضحية في براثن أكاذيبه وأحابيله، هذه النوعية من المدمنين من السهل عليهم استقطاب الأقارب والزملاء والأصدقاء والناس العاديين في دائرة نفوذهم المشعة عن طريق إرسال طيف من مختلف ألوان المسكنة من خلال عيونهم، وجدانهم وتصرفاتهم، علىٰ شاكلة تصدير أقصىٰ درجات حالات الضعف الإنساني والعجز وقلة الحيلة والمثابرة المستميتة علىٰ جذب التعاطف للآخر المستهدف، وإدارة ماكينة التلاعب بالمشاعر والاحتيال بطريقة احترافية وبدرجة مرتفعة من الإتقان التمثيلي الدراماتيكي الإنساني الفريد الذي يؤهله إلىٰ السيطرة بقوة علىٰ الآخرين وسلبهم عقولهم ومشاعرهم بالكامل وجعلهم متوحدين ومصدقين تماما كل ما يقوله أو يشعره أو يفكر فيه، ولا يستفيقون الا بعد حدوث الكارثة الكبرىٰ، عند هذا الأمر يدرك الآخرون أنهم كانوا ضحية أو فريسة لشخص تلاعب بهم كل هذا الوقت، العاملين في مجال علاج الإدمان خاصة الأطباء الأحدث والممرضين حديثي الخبرة بالمجال يصبحون أحيانا فرائس لهذه النوعية من المدمنين، ويتم استغلالهم من أجل إصلاح ذات البين بين المدمن وأسرته، وإقناعهم بأنه مقبل علىٰ العلاج، ولديه رغبة فعلية في تغيير أسلوب حياته، هدف المدمن من ذلك تحقيق كافة مآربه في استمرار التدفق المالي والمعيشي واستمراره في التعاطي من دون مشاكل، لكن من الصعب أن يحدث ذلك مع

العاملين المحترفين، نظرا لتعرضهم لمثل هذه المآزق في السابق عشرات المرات.

علىٰ أي حال لم انشغل بطبيعة ذلك الانجذاب المشاعري بيني وبين مشعل، بقدر انشغالي بالتأكد من عدم تأثير هذا الأمر علىٰ العملية العلاجية من جانب، ومحاولة الإحاطة والاطمئنان عليه بعد أن تيقنت من مبلغ خطورة حالته مع التعاطي والإدمان والمصير السيء الذي ينتظره في لحظة ما من جانب آخر، عاد مشعل هذه المرة مختلفا تماما عن سابقتها، بمجرد فوقانه واسترداده لصحته، شاهدته يقود المرضىٰ في الاجتماع الصباحي الرئيسي في الجناح بكل حيوية ونشاط، انتظرت في غرفتي حتىٰ انتهىٰ الاجتماع مع المرضىٰ وزميلي المعالج، لم يمهلني حتىٰ استدعيه، دق الباب، كان وجهه بشوشا، لامعا، تقفز الفرحة والحيوية من عينيه الجاحظتين، طلبت منه الجلوس، أخبرني عن امتنانه وشكره لما أقدمه له، وإنه قد اثقلني كثيرا بمشاكله، طلبت منه غلق صفحة الماضي والمحاولة من جديد، وعدني بأنه قرر بالفعل ذلك لكن المسألة صعبة جدا، طفق يتحدث عما جرىٰ في الفترة الماضية، فشلت محاولاتي لإيقافه عن بث حديث الذكريات، كان لديه إصرار غريب علىٰ التحدث والإسهاب، ذكر تفاصيل غريبة عن دوره في الجناح قبل أن يتم طرده منه وزملائه، حوادث وحواديت مدهشة تؤكد نظرية الشخصية المزدوجة التي تعيش حياة النهار بصورة مغايرة تماما لحياة الليل، هؤلاء الشباب الذين قدموا من أجل الإقلاع عن المخدرات تراهم يسعون في النهار مع ضوء الشمس بمنتهىٰ الطبيعية سواء كانوا مجتمعين في ردهات

العنبر أو داخل الجلسات العلاجية، أو من خلال تجمعاتهم حول طعام الإفطار والغداء، وكذلك في الصالة الرياضية وأحاديثهم لبعضهم البعض، علاقاتهم بجميع العاملين داخل العنبر طيبة ومشجعة وتبعث علىٰ التفاؤل، لكن مع زحف الليل والهدوء، وإظلام الشمس يتحولون إلىٰ قطعان متمردة، ملهوفة، لا حديث بينهم يعلوا علىٰ حديث المخدرات وأيامها ولياليها، اجتماعات ليلية مريبة، ومؤامرات وتبادل الأفكار بخصوص تهريب المخدرات والموبايلات، هكذا يتحول الليل إلىٰ بؤرة ساخنة من الانفلات وانتهاك كافة القوانين والنظم، يصبح العنبر ساحة لاستباحة كل المحرمات والممنوعات، يستمر سمرهم وسهرهم حتىٰ الفجر، دائما يكتب الممرضين في تقاريرهم الليلية عن هذه الانتهاكات ودائما يستمر التضييق، وتتزايد جرعات الدواء من أجل السيطرة علىٰ هذه السلوكيات ومع ذلك تظل ساعات الليل موعدا لخروج شياطينهم العصية، أخبرني مشعل أنه في الليل يتحول إلىٰ شيطان لا يدري كيف؟ يكون مندفعا بقوة تجاه رغباته وغرائزه، وخاصة ما يتعلق بالسيطرة وانتهاك كافة القواعد والقوانين المعمول بها، يتحدث مع أصدقائه المدمنين في الخارج بواسطة الموبايلات المهربة إلىٰ داخل العنبر، يتصل بالديلرز، يتفق معهم علىٰ صفقات مخدرات، وطريقة تهريبها لداخل العنبر، يحكي عن زملائه وكيف أن احدهم اعتاد علىٰ أن يقهر زوجته ويهددها بالطلاق ما لم تحشي له المخدرات في وجبة السمك التي تحضرها له في الزيارة، حدث ذلك بالفعل واستمتع الجميع بالسمك والمخدرات، وهذا شخص آخر طلب من زوجته تحت

التهديد بالطبع أن ترش له «التورتاية» التي جلبتها له بمناسبة عيد ميلاده بحبوب «التامول» المطحونة، وأكلوا جميعا من التورتاية وعاشوا مع «التامول»، أيضا ذلك الشاب الذي طلب من شقيقه المدمن حشو عبوة كبيرة من زجاجات الكوكاكولا بالمخدرات وإعادة غلقها بطريقة احترافية بحيث تظهر كأنها قادمة من المصنع لم تفتح من قبل، أن عالم الليل عالم خيالي مدهش، يعشقه المدمنون المتوقفين ويعايشونه في عنابرهم كل ليلة، لكن لعطلات نهاية الأسبوع حواديت أخرىٰ، حيث المزيد من البراح، والمزيد من الاكتئاب، والمزيد من التلهف والعطش الشديد للتعاطي، خلال العطلة التي تبدأ مع نهاية يوم الخميس تخف الحركة، يتوقف برنامج العلاج النهاري، يختفي غالبية الأطباء والمعالجين والممرضين والعاملين في العنبر، يصبح المكان في ذمة المرضىٰ، ولك أن تتخيل قطيع من المدمنين المتوقفين يعانون من الاشتياق واللهفة الشديدة للتعاطي، كما يعانون من الاكتئاب، وكذلك الافتقاد لنظراء خرجوا من العنبر خلال الأيام الماضية والآن أصبحوا أحراراً في تحركاتهم ومسايرة أدمغتهم التواقة للكِيف، ومع شعور هؤلاء المرضىٰ المحبوسين بفراغ المكان وفراغ الزمان، ومع وجودهم في مكان آمن هو العنبر المرهون تحت سيطرتهم بالكامل وقت الإجازة الأسبوعية للعاملين حيث لا يتواجد بينهم سوىٰ نفر قليل من موظفي النوبتجية، طبيب شاب مقيم في غرفة سكنه خارج العنبر طول الوقت، عدد محدود وغير كاف من الممرضين في أغلب الأحوال، يتحمل مسئولية ملاحظة ومتابعة أفعال المرضىٰ وتصرفاتهم علىٰ مدىٰ يومين كاملين، مؤكد سوف تحدث

مصائب كبرىٰ علىٰ شاكلة محاولات الهروب من العنبر، تهريب المخدرات والموبايلات وكافة أنواع الممنوعات، كذلك تصنيع الخمور عن طريق الاحتفاظ بالفواكه والعصائر التي يتحصلون عليها مع وجبات الطعام اليومية، تخزينها وتخميرها، وكذلك تخزين الفواكه التي يتسلمونها من الأهل في الزيارات الرسيمة الأسبوعية للعائلات، تخمير هذه الفواكه وعصرها، ثم دسها في مكان مجهول في العنبر لاتصل إليها يد التفتيش، أو تقع عليها عين أحد من الفضوليين العاملين في العنبر سواء من تمريض أو عمال النظافة، ثم يتناوبون معاقرتها حينما يرخي الليل سدُلَه، وتخف الحركة، وتخفت الأصوات، عندها يلجون إلىٰ جنتهم في شغف ورغبة محمومة في معايشة الواقع الصعب، وقتل الوقت والمكان، طفق مشعل يتحدث بتلقائية وطلاقة مدهشين، ويبقر بطن ليل العنبر وأسراره، وتجمعات الليل والعطلات بأريحية جعلتني ارتاب في مقصده أو في حقيقة هذه الحوادث الليلية من أصله، لكني ظللت مصيخا السمع باهتمام لحكاياته وانفعالاته واستربت في إمكانية خلطه حواديت السجن حيث عاش سنواته السابقة علىٰ الدخول مع حواديت عنبر العلاج من الإدمان، والذي حدث أنه بعد أن أفضىٰ بكل ما في رأسه من حواديت وأسرار طالبني بالاستمرار في الوقوف بجانبه ومساعدته في البحث عن طريقة تجنبه ممارسة مثل هذه التصرفات مستقبلا، تعجبت من طلبه وأخبرته أن الطريقة المثلىٰ لتجنبك هذه المشاكل أن تخرج وتتابع العلاج التأهيلي مع الدواء من خلال العيادات الخارجية، لكن المشكلة إنك غير قادر علىٰ السيطرة علىٰ تصرفاتك وسلوكك حاليا،

وغير جاهز بالمرة لمسألة الخروج لمتابعة البرنامج عن طريق العيادة الخارجية، ثم تظاهرت بالشدة والحسم وأنا ابلغه أنه غير جاد في موضوع العلاج، وإنه لا يزال يبحث عن مبررات لممارسة سلوكه الإدماني والتعاطي، تركته والحيرة تتملكني بخصوص التعامل مع هذه المشاكل الخطيرة التي أخبرني بها، كما انشغلت أيضا بالغرض من وتوقيت إبلاغي بهذه المعلومات التي تكشف عن سلوك العصابات الذي يحتاج العنبر ولا يكتفي بإفساد العملية العلاجية فحسب بل يتحول العنبر إلىٰ ملاذ آمن للتعاطي وتجارة المخدرات، اجتمعت مع زملائي وناقشنا الأمر واتفقنا علىٰ التشديد علىٰ ملاحظة المرضىٰ ومتابعتهم خاصة في المساء، وزيادة عدد مرات عمل التحاليل العشوائية المفاجئة وأيضا التفتيشات المفاجئة والتي اضحت تتم كل يوم تقريبا، راقبته لاحقا في الجلسات الجماعية والفردية، وكذلك سلوكه في ضوء ملاحظات ممرضي نوبتجية الليل، دائما كانت النتائج تشير إلىٰ أن العنبر في حالة هدوء، زادت حيرتي، ارتفع معدل فضولي في مراقبة مشعل والسعي إلىٰ مساعدته وتغييره، اقتربنا كثيرا، عايشته لحظات اكتئابه واشتياقه وارتباكه ولحظات سعادته وفرحه وتباهيه، كان المسار دائما يتخذ وضعا زجزاجيا، فيه صعود نحو بلوغ هدف الإقلاع والتعافي، لكنه صعود التفافي غير مستقيم وغير واضح بجلاء، قضىٰ في المصحة قرابة العامين، مر بجميع مراحل التأهيل النفسي السلوكي/ الروحاني، استحق شهرة كبيرة، أصبح يقود المرضىٰ في برنامج التأهيل في مرحلته الأخيرة، وكما كان الحال في السجن تحول الجميع في المصحة إلىٰ أصدقائه وأحبائه، مرضىٰ، ممرضين، أطباء،

اختصاصيين، عمال من كافة الأصناف، أثناء زيارته المنزلية الأخيرة خرج في المساء، بمفرده ومن دون تواصل مع أهله حسب التعليمات، دهمه الشوق للتعاطي بقوة حسبما ذكر، تواصل هاتفيا بأحدهم من أصدقاء التعاطي كان يتوقع وجوده في الطريق، هناك التقاه، تعاطي معه بمنتهىٰ الشراهة حتىٰ كاد أن يفقد حياته، اضطر صديقه أن يحمله في سيارته، كانت حالته الصحية سيئة، أنفاسه تخرج بصعوبة، الوعي مشوشا لم يغيب بعد، أوصله إلىٰ منزله، كبس زر باب المنزل وفر بسيارته بعيدا، فتحت الخادمة وكان مشعل راقدا أمام الباب، صاحت الخادمة، خرج أخاه الأوسط، كان الوحيد المستيقظ في مثل هذه الساعة، صرخ في إخوانه، عاونوه في وضعه في السيارة وانطلقوا بسرعة إلىٰ مستشفىٰ قريب، دخل غرفة الرعاية الفائقة، قضىٰ يومين قبل أن يتقرر خروجه ومعاودته للمستشفىٰ، طلبت منه محاولة تذكر الأفكار والمشاعر التي سبقت الانتكاسة وأثنائها، أقسم أنه لا يتذكر أي شيء، حتىٰ اسم الصديق الذي تعاطىٰ معه رفض البوح باسمه للجميع، هذا الأمر كان له صداه السلبي علىٰ العائلة، حينما قابلتهم قبل أن يذهب إلىٰ جناح «الديتوكس» كانوا محبطين، لم يعد لديهم ثقة في امكانية تعافي مشعل، كما لم يعد لديهم ثقة في العملية العلاجية نفسها، أخبرني أخاه عارف بوضوح أنه لم يعد متأكد من جدوىٰ العلاج، لم يعد لديه جهد أو شيء يقدمه لمشعل بعد اليوم، حقا كانت مهمتي صعبة تجاه الطرفين، مشعل وإخوانه المحبطين اليائسين من جراء تقلبات المدمن ومقالبه التي لا تنتهىٰ، بذلت جهدا كبيرا في تقديم المساندة والدعم النفسي المطلوبين في مثل هذه الحالات للأسرة ولمشعل نفسه قبل

تحويله إلىٰ جناح «الديتوكس» أخبرته إنني سوف أزوره حتي يحين موعد عودته إلىٰ جناحي، عاد مشعل بالفعل إلىٰ عنبر المرحلة الأخيرة من العلاج بعد شهر ونصف بالتمام ليندمج في البرنامج وحصل بعدها زيارة منزلية، عاد في موعده لكن التحليل اثبت تعاطيه للمخدرات، غضب بشدة رافضا نتيجة التحليل، أقسم وحلف بأغلظ الأيمانات أنه لم ينتكس، بل لم يفكر فيها أصلا، وأن هذه النتيجة مزيفة، والمشكلة في معمل التحليل، رفض التحويل لعنبر «الديتوكس» تم الاتصال علىٰ أسرته، قال أخوه الأصغر أنه كان ملتزما هذه المرة ولم يلحظ عليه سلوكيات غير طبيعية، ثم أنهىٰ كلامه ربما يكون هذا التحليل نتيجة حبوب بنادول اكسترا، حيث كان يتألم ليلة أمس من صداع في رأسه واعطيته بيدي حبتان من هذا الدواء، أخبرته أن تعاطي أدوية غير موصوفة من قبلنا ممنوع، قال الرجل هذا ما حصل واللي تشوفوه اعملوه، كنت شبه متيقن من انتكاسة مشعل، وأن ما يفعله لا يخرج عن كونه مناورة من مناوراته للتهرب من التحويل لعنبر «الديتوكس» ولكي لا تتدهور صورته أمام إخوانه أكثر من ذلك، بالفعل تم تحويل مشعل إلىٰ جناح «الديتوكس» رغم غضبه وصياحه ورفضه وإنكاره التام لتعاطيه أثناء الإجازة، والذي حدث أنه اعترف لاحقا لأحد المقربين منه من المرضىٰ بتعاطيه المخدرات أثناء الإجازة، وأنه تعمد الشكوىٰ من الصداع أمام إخوانه حتي يعطونه البنادول بأنفسهم، ويشهدون بذلك أمام الأطباء، تأملت موقف مشعل والصعوبات التي يواجهها مع نفسه، تأكدت أن نظام الإجازات المنزلية لا يناسب شخص مثله، لكن ظل سؤال يلح كثيرا

في اجتماعاتي مع زملائي بخصوص مستقبل العملية العلاجية خاصته، أنه لن يظل حبيس المستشفىٰ وبرنامج التأهيل إلىٰ الأبد، الفكرة إننا نعالج الإدمان ولا نريد أن نقع في ورطة استبدال الإدمان علىٰ «الهيروين» المخدر بالإدمان علىٰ البقاء في المستشفىٰ، المريض نفسه غير متقبل البقاء في المستشفىٰ فترات طويلة، كانت هناك غمامة من التشاؤم واليأس تحلق في سقف غرفة الاجتماعات بخصوص إمكانية قدرته علىٰ التبطيل، مشعل يعتبر حالة نموذجية لشخص استسلم تماما لقدره ومصيره ولا يريد أن يبذل جهدا من أجل تغيير هذا القدر أو المصير، كأنه مستمتع بمثل هذه الحالة الانسانية الفريدة من اليأس والرجاء معا، يعيش حياته النظيفة داخل المستشفىٰ بكل معانيها واهدافها وطموحاتها، لكن خارج المصحة يتحول إلىٰ شخص آخر، موغل في الإدمان واليأس والرغبة المحمومة في تحقيق أكبر قدر من التحليق والطيران في السماء، والابتعاد عن الأرض ومشاقها وأهوالها، قررنا في نهاية الأمر تغيير استراتيجية العلاج التأهيلي خاصته بقدر الإمكان، تم استدعاء الأسرة قبل تحويله إلىٰ العنبر بعدة أيام لاطلاعهم علىٰ ما نفكر فيه كفريق علاجي، وأهمية مضاعفة الدعم من جانبهم لعل وعسىٰ يحدث تنشيط وتحفيز لتلك الإرادة التي ماتت منذ زمن بعيد.

عاد مشعل إلىٰ العنبر من جديد، بدا يائسا، كسيرا، غير متحمس للبرنامج، عزل نفسه في غرفته، ابتعد عن الجميع، لم يعد يستيقظ مبكرا، لم يعد يحضر «الكوميونتي ميتنج» الصباحي بانتظام، يرفض أيضا مختلف الأنشطة العلاجية والتأهيلية، تم تهديده أكثر من مرة

بطرده من العنبر وتحويله لجناح التأهيل السلوكي، لم يبال بشيء، اعتبرنا ما يحصل منه انتكاسة سلوكية تستوجب تحويله إلىٰ جناح التأهيل السلوكي حيث يمضىٰ شهرا قبل أن يعود مرة ثانية، تم تحويله بالفعل، تابعت أخباره وفق تقارير زملائي في اجتماعات المستشفىٰ، ما يزال علىٰ تلك الحالة من السلبية والرفض، ذات صباح جاء في تقرير المستشفىٰ الخاص بجناح التأهيل السلوكي خلال الاجتماع الصباحي لفريق العمل بالمصحة أن أحد المرضىٰ غافل الممرضين في الصالة الرياضية وتمكن من الهرب، كان هذا المريض مشعل، توجست خيفة وقلقا علىٰ مصيره الذي استشعره، دهمتني الأيام ومشاكل العمل والمدمنين حتىٰ قرأت خبر وفاته في الصحف، أدركت ساعتها أنه استجاب أخيرا إلىٰ نداء خفي داخله ظل يطارده ويقض مضجعه ليل نهار حتىٰ تحققت الأُمنية وتم الاستجابة إلىٰ هذا النداء، ترىٰ هل كل هؤلاء الأشخاص الذي يتوافدون اليوم إلىٰ مقر عزاء مشعل لمواساة أهله يدركون كم كان هذا النداء الخفي قويا وعظيما؟ وهل كل هؤلاء الأشخاص يمكن أن يتفهمون أن مشعل استطاع أن ينفذ مشيئته؟ مع أنه كان يحمل إرادة من فولاذ كافية لإنجاز ما يريده هو وليس ما يريده مخدر «الهيروين»؟ وهل كان عامل البقالة الذي انقض عليه مشعل مع زملائه بوحشية غريبة حاضرا في محفل العزاء وسعيد بانتقامه غير المسبوق؟